

الكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة
بكلية الآداب — جامعة القاهرة (سابقاً)

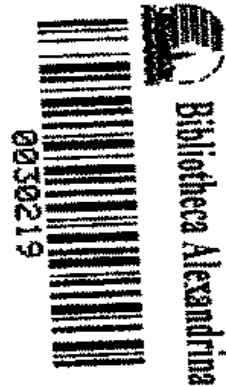
أدب المقاتل الصحفي في مصر

الجزء الثالث

أبراهيم الموشى

صاحب مصباح الشرق

مطبعة الطبع والنشر
دار الفكر العربي



الدكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة
بكلية الآداب — جامعة القاهرة (سابقاً)

أدب المقالات الصحفية في مصر

الجزء الثالث

إبراهيم الموشى

صاحب مصباح الشرق

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

وزارة الصحاح والطباعة
١٩٤٥ - ١٩٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يذكر القراء أنني قدمت لهم في الجزء الأول من هذا الكتاب حديثاً عن ميلاد الصحافة المصرية ، وعن المدرسة الصحفية الأولى في مصر ، وهي المدرسة التي كان من أشهر تلاميذها رفاة الطهاوي ، وعبد الله أبو السعود ومحمد أنسي ، وغيرهم .

كما يذكر القراء أنني قدمت لهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب حديثاً آخر عن شباب للصحافة المصرية ، وعن المدرسة الصحفية الثانية في مصر ، وهي المدرسة التي كان من أشهر تلاميذها أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم .

والذي لا يقبل الشك بحال من الأحوال أن الصحافة المصرية على أيدي هؤلاء الثلاثة بنوع خاص قد وضحت معالمها ، واشتد ساعدها ، وقويت شوكتها وأصبحت سلطة قوية في البلاد لها هيبتها ، ولها قيمتها ، ولها قدرتها على توجيه الشعب والحكومة في وقت معاً ، وكان لهذه الصحافة المصرية حينذاك أهداف سياسية قومية ، وأخرى اجتماعية ، وثالثة خلقية ، ورابعة دينية وهكذا .

والذي لا يقبل الشك أيضاً بحال من الأحوال أن الصحافة المصرية حققت كل هذه الأهداف بنجاح تام ، وبحسبنا أن نضرب المثل هنا بالسيد عبد الله النديم ، فقد أدرك بثاقب فكرة ، أو بموهبته كيف طغى سيل الغرب على الشرق ، وكيف أوشكت الحضارة الأوربية أن تجرف الحضارة الشرقية ،

وكيف عم انفرج البلاد حتى كاد يمحو التقاليد المصرية والعادات المصرية ويضعف الإيمان بالخلق الإسلامى نفسه إلى الأبد .

إذ ذاك نهض أمثال النديم نهضتهم الصحفية المعروفة فى التاريخ ، فردوا بها المصريين إلى أنفسهم ، وأفقرهم من غشيتهم ووضعهم فى المكان اللاتق بهم ، وبمجدهم ، وكرامتهم ، ودياتهم ، وكانوا فى كل أولئك من المجاهدين الصادقين .

معنى ذلك إذن أنه كان فى مصر فى ذلك الوقت طغيان أجنبي ينبغى أن يقاوم ، وأنه كان فيها شعب قوى مستعد لأن يقاوم .

ومعنى ذلك أيضاً أنه إلى أولئك الزعماء فى الصحافة والأدب والسياسة يرجع الفضل كل الفضل فى احتفاظ المصريين بشخصيتهم ، ودفاعهم عن قوميتهم ودياتهم ، وصونهم لسمعتهم التى كانت على شفا جرف هار ينهار بها فى نار جهنم .

ومعنى ذلك فى نهاية الأمر أننا نحن المصريين المحدثين من أبناء هذا الجيل مدينون فى كل ما ننعم به من عزة وكرامة لهؤلاء القادة من الأدباء والصحفيين والساسة ، وإذنه لدين كبير يتألف من أشياء كثيرة لا سبيل إلى حصرها ، ولا قدرة لنا على الوفاء بها .

فنحن مدينون لهم بسلامة لغتنا التى أوشكت على الضياع ، وسلامة ديننا الذى تعرض لكيد الكائدين له من جبايرة الاستعمار ، وسلامة تقاليدنا التى أوشكنا أن نتركها جانبا ، وتوثر عليها تقاليد الغرب متبعين فى ذلك نظرية ابن خلدون التى يقول فيها : «إن المغلوب مولع دائماً بمحاكاة الغالب» ، وأخيراً نحن مدينون لهم بسلامة مصريتنا وكرامتنا التى أوشكنا أن نهدرها طائعين أو مكرهين ، ونسلمها سلعة رخيصة للمحتل الغاصب .

ألا — ما أعظم هذا الدين الذى فى أعناقنا لأولئك الأبطال ،

وما أخلق شبابنا في مصر والشرق أن يذكر لهم كل ذلك ، وأن يحمدهم عليه ويسير سيرتهم فيه .

وهذا إبراهيم المويلحي يقرأ الباحث ما بقي من آثاره فلا يتردد في النظر إليه على أنه أحد رجال تلك الحلمة ، وبطل من أبطال تلك العصبة أولى اقوة ، وتلميذ نابه من تلاميذ تلك المدرسة الثانية من مدارس الصحافة في مصر ، يدعو بدعوتها ، ويكتب بطريقتها ، ويتبع أنماطها في التفكير والتحرير .

ثم إن إبراهيم - فضلا عن هذا كله كان كاتب الامير وذلك منذ اختص به إسماعيل ، واصطفاه لنفسه دون الناس أجمعين ليكون صديقه في المنفى ، وداعيته في الصحف .

ومن أجل هذا أصدر إبراهيم عددا كبيرا من الجرائد في أوروبا ، وكلها على نفقة إسماعيل ، ومن وجيه ، ولخدمته ، ولكنتنا مع الأسف الشديد لم نظفر بعد بواحدة من تلك الصحف المصرية التي ظهرت في البلاد الأوربية ، ولعل بعضها يوجد الآن في بعض نواحي لبنان ، ونحن نأمل أن نحظى بها في يوم من الأيام . وإذ ذلك فقط نستطيع أن نضيف إلى هذا الجزء من كتابنا فصولا جديدة عن صحافة المويلحي في أوروبا ، وعن أغراض هذه الصحافة . على أننا على كل حال عرفنا كل شيء عن أسلوب إبراهيم المويلحي في الكتابة ، وذلك من خلال جريدته التي أصدرها في مصر ، ونعني بها جريدة (مصباح الشرق) ثم من خلال مقالاته التي كتبها في نقد السلطان عبد الحميد وحاشيته ، وهي المقالات التي جمعها في كتاب له بعنوان (ما هنالك) .

وحين تبين لنا أسلوب هذا الكاتب من خلال مقالاته ، ووقفنا على خصائصه الفنية ومميزاته لم نجد ما يحول بيننا وبين الكتابة عنه على هذا النحو ، مادمننا لا نطمح دائما في الكمال ، ولا نزعم لأنفسنا قدرة على الوصول إلى الكلمة الأخيرة في موضوع ما .

وقدرتبت هذا الجزء على تمهيد وستة فصول . فأما التمهيد ففيه بيان (لحرارة التنوير) التي اقترنت بالاحتلال الفرنسي لمصر ، وهو احتلال لم يدم فيها أكثر من ثلاث سنين ، ولكنه ترك في الحياة المصرية والعقل المصري أثراً ليس إلى إنكاره من سبيل . وفي هذا التمهيد بيان كذلك (لحرارة المقاومة) التي اقترنت بالاحتلال الإنجليزي بمصر وهو احتلال طال أمده وثقل وقعه ، وضاء أثره . وأما الفصول التي يتألف منها صلب الكتاب ففيها حديث عن حياة إبراهيم ، وعن جهوده الصحفية في جريدة مصباح الشرق ، وعن جهوده الأدبية الأخرى في القصة ونحوها ، وعن كتابة (ما هنالك) ، وعن منهجه في الإصلاح ، وعن أسلوبه الكتابي في نهاية الأمر .

ولم أجد ما أختم به الكتاب خيراً من أن أعرض على القارئ طائفة من النماذج التي تمدد بصورة صادقة لأسلوب هذا الكاتب وطريقة تفكيره .

(وبعد) فهذا تراث أدبي مصري قريب كان على وشك الزوال ، ولكن الله جلت قدرته وفقنا إلى إنقاذه من الضياع ، حتى لا تكون هناك حلقة مفقودة من حلقات أدبنا المصري الحديث . فله الشكر على ما هدى ، وله المنة فيما وفق ، وهو أكرم مسئول عن أن ينفع به نابتة هذا الجيل . لأنه سميع مجيب .

ولا أستطيع أن أترك هذه المقدمة دون أن أقدم الشكر خالصاً إلى الشاب المهذب السيد إبراهيم المويلخي حفيد المترجم ، وسميه ، فقد أمدنا حضرته ببعض الوثائق والمواد التي أفادتنا في هذه الترجمة .

عبد اللطيف حمزة

مصر بين الاحتلال الفرنسي والاحتلال الانجليزى

او

بين التنوير والمقاومة

في طريق التورير:

استيقظ المصريون من غفلتهم على أصوات الحملة الفرنسية ، وغرتهم
حيرة كبيرة عند رؤيتها ، وعجبوا كيف أن في الأرض جيشاً هو أقوى من
جيش المماليك ، وأن في الأرض علماء غير ما يتلقونه في الأزهر الشريف ،
ومضى الفرنسيون ينعنون في إثارة العجب في نفس المصريين ففتح
هؤلاء النائمون أعينهم على عجائب لم تدر لهم في بال ، ولا ارتقى إليها خيال ،
ولا ظنوا أنهم يعيشون حتى يروا إحداها في يوم من الأيام .

فن مطبعة تطبع الصفحات الكثيرة في ثوان ، إلى صحيفة تنقل للناس
مختلف الأخبار ، من أبعد الأقطار ، إلى حياة اجتماعية غريبة يختلط النساء
فيها بالرجال إلى معامل عليية ، هي في نظرهم أدنى إلى السحر والشعوذة ،
إلى كثير من أمثال هذه العجائب والفرائب .

ثلاث سنوات قضاها الاحتلال الفرنسي في مصر (من سنة ١٧٩٨ —
١٨٠١) وستة وأربعون عاماً من علماء فرنسا رافقوا الجنرال بوناپرت إلى
مصر — بعض هذا في الحقيقة كان كافياً لتغيير نظر المصريين إلى الحياة ،
وانبعاثهم إلى آفاق جديدة لا عهد لهم بها من قبل .

وما أقوى تلك اللفتة التي لفت إليها الجنرال بوناپرت أنظار الصفوة
من المصريين في ذلك الحين ، يوم أن أنشأ لهم ما يسمى « بالديوان » ، فأتاح به
لمصر والمصريين — لأول مرة في تاريخهم الحديث — فرصة اشتراك
الشعب مع ولاته في الحكم .

وما أروع تلك الأفكار السياسية التي سرت كذلك إلى نفوس المصريين
عن طريق الفرنسيين ، كفكرة الحرية ، والإخاء ، والمساواة ، والوطن ،
والوطنية ، وحقوق الإنسان ، وغير ذلك من الأفكار التي أتت بها الثورة
الفرنسية ؛ وإن كان الإسلام قد نادى بالكثير منها قبل ذلك بأكثر من

ألف سنة ، لولا أن نسيها المسلمون ، أو كادوا ينسوتها في مصر والشرق ، من طول عهدهم بالحكومات المستبدة التي تعاورتهم ، والتي كان بينها وبين حكومة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده فرق ما بين السماء والأرض ! ثم ما كادت مصر تفيق من غفوتها حتى وجدت نفسها تسلم قيادها مختارة لذلك العبقري ، الذي أخذ بيدها إلى النهوض الحقيقي ؛ ونعني به محمد علي ، ومنذ ذلك الوقت .. أو قبله بقليل .. كان المصريون قد اهتموا إلى طريق النور ، فرأوا أمامهم طريقاً طويلاً له مراحل معارضة، وصوتى مرسومة، تعرف بها كل مرحلة من هذه المراحل على حدة. كما رأوا عند كل مرحلة منها مشعلاً كبيراً من مشاعل النهضة الحديثة ، يهدى السائرين ، ويكشف لهم عما في طريقهم من زروع ونبت كريم .

ففي أول هذا الطريق كنت ترى (المشعل الفرنسى) تمسك به أيد فرنسية قوية ؛ هي أيدى علماء الحملة التي أتت مع الجنرال بوناپرت . ولقد كان هذا المشعل الفرنسى ضخماً رائعاً يهر أعين الناظرين ، ويلدع لمعاناً قوياً على ضفاف النيل ، ويرسل بأشعته إلى مسافات بعيدة !

وفي ثانية من مراحل هذا الطريق الطويل كنت ترى (مشعل محمد علي الكبير) يهدى المصريين إلى منابع الثقافة الأوربية الحديثة، ويسلك في سبيل ذلك طرقاً، منها طريق البحوث العلمية، ومنها طريق الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ومنها طريق المدارس الحديثة . وعند هذا المشعل الكبير كنت ترى الرائد الأول للثقافة الأوربية في مصر، بل القائد الأعلى لجيش الثقافة بها، ونعني به رفاعة الطهطاوى وحول هذا الرجل جموع عديدة من جند الثقافة ومحبيها من المصريين، كل يريد أن يقدم لبلاده أمن ما يستطيع تقديمه من ذخيرة علمية أو أدبية، ويتحضرها بنفس ما تقع عليه عينه من جوهر العلم والأدب .

وفي ثالثة من مراحل هذا الطريق كنت ترى مشعل (السيد جمال الدين الأفغانى) وحوله عدد كبير من مريديه، وقد أيقظ في أذهانهم معانى الحرية والكرامة الإنسانية ، وغيرهم بالذل الذى ذاقته مصر على أيدى الأمم التي

ملكها وسيطرت عليها . ومن كلماته الماثورة التي كان يخاطب بها الفلاحين من المصريين في ذلك الحين قوله :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق ، ويقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » (١)

فيا لها من صيحات دوت دويًا هانلا في آذان المصريين ، فحركت ساكنهم وأثارت نائهم ، ونمت في قلوبهم البغض الحقيقي لكل محتل أجنبي .

وفي رابعة من مراحل هذا الطريق كنت ترى (مشعل الجامعة الأزهرية) تجاهد ذبالاته في هتك أستار الظلام الكثيف . وعند هذا المشعل العتيق كنت تلح طائفة من علماء الأزهر الشريف . وقد أخذوا ينفضون التراب المتراكم على بعض الكتب العربية القديمة بغية بحثها من جديد حتى تأخذ الثقافة الإسلامية القديمة مكانها إلى جانب الثقافة الأوربية الحديثة .

وفي خامسة من مراحل هذا الطريق كنت ترى (المشعل السورى) وإلى جانبه رجال من سورية أتوا إلى مصر ، واقتحموا فيها ميداناً لم يزل بعد بكرأ ، هو ميدان الصحافة .

ثم في نهاية الطريق يلح الناظر من بعيد علماء مثلك الألوان يهتز في شئ من الزهو أو القنخ ، ويرمز إلى الحد الذي وقف عنده نفوذ الثقافة الفرنسية في مصر .

وهكذا نستطيع نحن أن ننظر إلى هذه الحركة المباركة التي اشترك فيها الفرنسيون من جانب ، والمصريون من جانب آخر ، والسوريون من جانب ثالث ، على أنها حركة التنوير . . . وهي الحركة التي أيقظت العقل المصرى من سباته ، وأقالتته من عثارة ، وأخلت بينه وبين أهواء والنور ، وجعلته يطوى صحائف النوم والكسل ، ويبدأ صحيفة الجد والعمل .

ومنذ ذلك الوقت أصبحنا أمام عقلية مصرية حديثة الواقع أنها عقلية فرنسية المصدر برغم أن فرنسا تركتنا للاحتلال الانجليزى باعتبارها لانجلترا

(١) مذكرات شفيق (بأشأ) ص ١٠٩ الجزء الأول الطبعة الأولى .

بكل الحقوق في مصر . نعم — لقد انتصر نفوذ الثقافة الفرنسية الذي كان قد انتشر في مصر خلال قرن من الزمان على تسلط أجنبي لم تستطع مصر أن تفلت من قبضته إلى اليوم،^(١) .

في طريق المقاومة

زحفت مصر إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهي تحمس لندة هذا الجلد الذي أفاضت فيه منذ مشرق ذلك القرن ، وتستشعر عظمة هذه النهضة التي بدأتها منذ عهد محمد علي . وإنها لماضية في سبيلها ، مسنيقنة من نجاحها ، وإذا بالاحتلال الإنجليزي — عقب الثورة العرابية — يدهم البلاد ويزعج العباد . وينتظر المصريون أن يجلو الإنجليز عن بلادهم في بضعة سنوات كما جلا الفرنسيون في مثل هذه المدة . ولكنهم عثا يحاولون ، إذ بالوحش البريطاني ينشب أظفاره يوماً بعد يوم في كل مرفق من مرفاق الحياة المصرية بحجة الأخذ بيد المصريين نحو الحضارة الأوربية .

ولكن لكل حضارة من الحضارات محاسنها ومساوئها . ولقد مضى على المصريين حين من الدهر كانوا فيه قد استمتعوا بمحاسن الحضارة الأوربية . وكان لا بد لهم كذلك من أن تصيبهم هذه الحضارة بمساوئها ، غير أن شعور المصريين بهذه المساوىء لم يشتد في نفوسهم ، ولم يكبر في قلوبهم إلا منذ عهدهم بذلك الاحتلال البريطاني ، الذي كان مخالفاً في ظروفه كل المخالفة للاحتلال الفرنسي .

هنا أفاق المصريون إفاقة أخرى اتبها فيها إلى أنهم أخطئوا في اندفاعهم إلى الأخذ من الحضارة الأوربية ، وإهمال الحضارة الشرقية الإسلامية ، ورأوا أن عليهم أن يحتفظوا بشخصيتهم ، ويعتزوا بقوميتهم وديانتهم ، ويتعاضدوا جميعاً على مقاومة التدخل الأجنبي .

والحقيقة أن هذه الحركة التي سميناها « حركة المقاومة » سارت في مراحل ثلاث :

(١) راجع مذكرات الحديو عباس حلمي الثاني وانظر ما نشر منها في جريدة المصري بتاريخ

أولها — المرحلة التي ظهر فيها السيد جمال الدين الأفغانى وتلاميذه ، الذين من أشهرهم السيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده . وفي هذه المرحلة كان يعبر عن المقاومة أحسن تعبير وأقومه « مجلة العروة الوثقى » (١) .

الثانية — المرحلة التي ظهر فيها إبراهيم الموبلحى والسيد على يوسف ومصطفى كامل ، وقد بدت المقاومة بقوة هائلة على يد الثانى والأخير من رجال ذلك الرعيل ، وكان يعبر عنها أقوى تعبير جريدتان عظيستان ، هما جريدتا المؤيد وصاحبها على يوسف ، واللواء وصاحبها مصطفى كامل .

الثالثة — المرحلة التي قام فيها سعد زغلول بالثورة الوطنية المعروفة في تاريخ مصر الحديث بثورة سنة ١٩١٩ . وهذه الأخيرة لا تعيننا كثيراً في البحث ، لأن وقت الحديث عنها لم يكن بعد .

اندفع المصريون في هذه المقاومة عقب الثورة العراقية مباشرة ، ولاذ الأحرار في أول أمرهم بفرنسا ، وهناك طفقوا يتحدثون إلى العالم الإسلامى كله ، عن طريق جرائدهم التي عكفوا على كتابتها في مدينة النور ، وإذ ذاك أعانتهم ظروف الاحتلال البريطانى على المضى في هذه المقاومة ، على النحو الذى يشرحه هذا الجزء من الكتاب والجزاء التالية له إن شاء الله .

أجل — كان إيمان المصرى بالحضارة الأوربية سائراً في طريقه إلى النمو والسكال ، وكان سلطان الثقافة الأوربية يزداد في نفوس المصريين على توالى الأجيال ، وبلغ هذا السلطان أشده في عهد إسماعيل الذى أثر عنه أنه قال يوماً لوزيره نوبار : « إننى أريد أن أجعل مصر قطعة من أوروبا » .

غير أن هذه الموجة العنيفة — ونعنى بها موجة الافتتان بالحضارة الأوربية سرعان ما تلتها موجة أخرى جديدة ، هى موجة البغض الشديد لهذه الحضارة الأوربية ، بل النظر إليها على أنها السبب الحقيقى فيما أصاب مصر من تدهور خلقى ودينى وسياسى واجتماعى .

(١) راجع الجزء الثانى من كتابنا (أدب المقالة المسغية) ص ٨٨ — ١٠١

وهكذا نجد هذه المقاومة التي بدت من الجانب المصرى ، بل هذه الكراهية التي غذاها الاحتلال البريطانى ، بل ذلك الشعور بالتهرم الذى نمته السياسة الاستعمارية فى الشرق الإسلامى - نجد كل هذا كافياً لظهور طوائف من المصلحين الصادقين يتلو بعضها بعضاً منذ ذلك الحين . ومن ثم اتخذت هذه الكراهية للإنجليز أشكالاً شتى ، وظهرت فى ميادين متعددة ، ومحيطات واسعة. ومنها المحيط الدينى ، والمحيط الاجتماعى ، والمحيط السياسى ، والمحيط الأدبى . والواقع أن الحديث عن كل واحد منها حديث عنها جميعها . ومع ذلك فسنتقف وقفة قصيرة عند كل محيط منها على حدة .

فى المحيط الدينى

أتى الأوروبيون مصر ، فرأوها فى خمول عظيم وكسل مقيم ، وعلوا أن المصريين يعتقدون الدين الإسلامى ، فراحوا يرمون هذا الدين بالجنود ، وذهبوا يحملونه تبعه هذا الجهل الذى غرق فيه المصريون والشرقيون ، ثم لم يكفهم ذلك حتى شرعوا يسخرون من هذا الدين وأهله ، ويتدنون بالشرق وجهله ، وجاهر كثيرون منهم بهذه السخرية فى صحفهم وكتبهم وأحاديثهم الخاصة والعامة .

ثم حلت بمصر كارثة الاحتلال البريطانى ، واصطدم المصريون بالإنجليز فى ظروف شتى ، منها ظروف دنشواى ، وهو الظرف الذى كشف النقاب عن سياسة الاستعمار ، وجاء دليلاً على أن الحكم الإنجليزى فى مصر أضربها فى كل شئ ، وذلك إذا استثنينا جهود الإنجليز فى إصلاح الرى .

إذ ذاك طفق الكتاب الأحرار فى مصر ينتقدون الحكم الإنجليزى بشدة ، ويكشفون عن نيات الإنجليز بصراحة وحدة ، وبذلك أخرجوا صدر الحكومة البريطانية ، وصرروها أمام العالم الأوروبى بصورة المستعمر العاشم والحاكم المستبد .

ويومئذ لم يجد الإنجليز بداً من رمى المصريين بتهمة التعصب الدينى الذى

يخشى منه على حياة الأجانب في مصر ، وباطها من تهمة شنعاء ، وفرية باطلة ، وسياسة خرقاء ، تلك التي سلكها الإنجليز في مصر ، ومن أجلها نجح في الميدان طائفة من الكتاب المصريين الأحرار ، يدافعون عنها وعن الإسلام وعن الشرق ، وكان من أشهرهم : علي يوسف ، ومصطفى كامل ، ولطفي السيد . ولقد كان من الأفكار التي اهتدى إليها المصريون بل المسلمون جميعاً في ذلك الحين ، فكرة الدعوة إلى (مؤتمر إسلامي) ، وهي من الأفكار التي دعا إليها عبد الرحمن الكواكبي في كتابه (أم القرى) ثم وجدت صدى لها ، وميلاً إليها عند السادة البكرية المعروفين بالديار المصرية . وكان أحدهم بالفعل وكيلاً لهذا المؤتمر .

وهنا يجب أن نلفت الأذهان إلى أن الزعامة في مصر إلى ذلك الوقت كانت باقية في أيدي رجال الدين ، من علماء الأزهر ، أو من مشايخ الطرق الصوفية ، والزعامة المصرية كالكتابة المصرية ، كانت في أول أمرها في أيدي الأزهريين من علماء الدين ثم أصبحت في أيدي المدنيين من الحقوقيين والأدباء والصحفيين .

ونشرت الأهرام حديثاً لهذا الشيخ البكري الذي أشرنا إليه ذهب فيه الشيخ إلى أن هذا المؤتمر ديني واجتماعي ، ولكن لاصلة له بالسياسة ، وأن أعضائه سيدعون للبحث في أدوار الأمم الإسلامية ، التي سقطت بعد عز ، ونخضعت بعدة قوة ، وأصبحت تشعر شعوراً حقيقياً بحاجتها إلى الإصلاح والترقي (١) .

وعلقت (المزيد) على هذا الحديث فقالت ما معناه .

د ... وأما الجامعة الإسلامية فقسمان : دينية وسياسية . والدينية موجودة بوجود العقيدة الإسلامية ، والسياسة غير موجودة ، ولم توجد ، ولن توجد ، لعدم وجود الرابطة بين الأمم الإسلامية ؛ وهي المصلحة

وذلك أن المسلمين إذا وجدوا جامعة سياسية إسلامية أوجد غيرهم جامعة مسيحية وهكذا ، فتكون المضرة عليهم بسبب ذلك .

معنى ذلك أن الشيخ علي يوسف كان يرى ألا عودة إلى الحروب الصليبية ، وإن هذه الحروب اختفت إلى الأبد ، ومعنى ذلك أيضاً أن فكرة الجامعة الإسلامية اقترنت بفكرة المؤتمر الإسلامي ، وكان لهذا الاقتران محل واضح في أذهان المسلمين في أول الأمر ، ولكنهم حين أخذوا يقبلون الرأي في الفكرتين معاً وجدوا أولاهما مستحيلة أو كالمستحيلة ، ووجدوا الثانية ممكنة ومقبولة ، وتخوف الرأي الأوروبي العام أولاً من هذه الفكرة ، ولكن سرعان ما تبين له أن المسلمين لا يعنون بها غير الإصلاح الاجتماعي والإصلاح الديني . أما الاتحاد السياسي بين الشعوب الإسلامية يومئذ فشيء كان بعيداً عن أذهانهم ، وإن حنت إليه نفوسهم ، وتعلقت به آمالهم .

وفي جريدة المؤيد مقال بعنوان :

« رأى غربي في الجامعة الإسلامية ، كتبه «سيو لشاتليه» مدير مجلة العالم الإسلامي جاء فيه (١) .

« الحق أن الجامعة الإسلامية ليست ذات وجود حقيقي عند المسلمين ، وإن هذا اللفظ لا ينطبق على المعنى الذي يدل عليه ، وما الجامعة الإسلامية في الواقع إلا حجة يتوكأ عليها من أخفقوا في سياستهم من الأوروبيين ، أو واسطة لاستدراج الأموال السرية التي تنفقها الخلافة العثمانية ، أو صورة منقولة يدلون بها على حدوث الفتن الأهلية بين المسلمين ، في حين أن فكرة الجامعة الإسلامية لا تجد لها معنى حقيقياً بين أهل الإسلام وأنى لهم اليوم أن تنضم كلتهم وهم لم يستطيعوا ذلك منذ ألف سنة ؟ ذلك أن الإسلام قد أنهكت قواه طريقة الحكومات السابقة في الحكم ، فراح يدخل في ثورة كثورة فرنسا سنة ١٧٨٩ ، وإذا كان الإسلام لم يوفق حتى الآن إلى

(١) راجع المؤيد عدد ١٥٠٨ سنة ١٩٠٧ .

لمجاد الحرية العقلية بين أهله - وبدونها لا يتأتى له أن يتمتع بحرية اجتماعية
- فإنه يستعد لها ، ويهيئ الأسباب والدوافع ، إلى أن قال :

« فالجامعة الإسلامية ملفقة من حيث السياسة مسكوت عنها من حيث
المجتمع، والموجود منها رد فعل طبيعي و ضروري في ذلك الوسط الاجتماعي
الإسلامي الذي يعوزه الهواء، حتى لا يقضى عليه القاضون، والإسلام يدافع
عن نفسه ضد ذلك ، ويستخدم الأسلحة الطبيعية لتنظيم شئون أهله ، وإذن
ليس ثم جامعة إسلامية في الحقيقة، بل هناك ثورة تريد الإصلاح والتجديد .

ولقد كان من الوسائل التي تدرع بها المسلمون في المرحلة الأولى من
مراحل المقاومة - وهي المرحلة التي تعبر عنها مجلة « العروة الوثقى ، أصدق
تعبير وأحسنه - أنهم عمدوا إلى تطهير معتقداتهم الدينية بما علق بها من
البدع والخرافات وما إليها من الأمور التي أوشكت أن تصيب الدين نفسه
في قواعده ، ودعوا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى
الكتاب والسنة ، بحجة أنه (لا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله) .

ثم كان من الوسائل التي تدرع بها المسلمون في المرحلة الثانية من مراحل
المقاومة - وهي المرحلة التي كانت « المؤيد ، و « اللواء ، تعبران عنها
أصدق تعبير وأحسنه - أنهم حصروا جهودهم في الدفاع عن الدين ضد أعدائه
الذين رموه بشتى التهم ، وأضافوا إليه كثيراً من النقائص عدواً بغير علم .
ومن الحق أن يقال أن الشيخ محمد عبده اضطر في أواخر حياته إلى النزول
في هذه المعركة ، حيث التقى بالوزير الفرنسي هانوتو ، ولكن هانوتو كان
خصماً شريفاً ومعقولاً ، وكان يحنك إلى العقل والمنطق في مجادلاته ومقالاته .
وكذلك فعل الإمام الشيخ محمد عبده ، أما الإنجليز - وهم خصوم الإسلام
في هذه المرحلة من مراحل المقاومة - فكانوا يقذفون الإسلام بهذه التهم
لغايات سياسية ، أو أقل لأغراض استعمارية يريدون تحقيقها ، ولا تعنيهم
الوسائل المؤدية لها .

وهكذا لم يصبح هم الكتاب الأحرار في هذه المرحلة الأخيرة مقصوداً على إصلاح الفاسد من الأفكار والعقائد ، كما كان الحال على ذلك في المرحلة التي سبقتها وإنما أصبح هم أولئك الكتاب الأحرار مقصوداً على تنظيم الدعاية Propaganda للإسلام في مشارق الأرض ومغاربها قصد صيانتها من هجوم المهاجمين ، وسخرية الساخرين ، وسوء نية المستعمرين من الأوربيين ، وكان من أشهر هؤلاء الكتاب الأحرار رجلا نهما : إبراهيم المويلحي وعلي يوسف . أما أولهما : وهو المويلحي - فسرى أنه كان أديباً بطبعه قبل كل شيء ، فاتخذ من الإصلاح الديني أو الدعاية الدينية موضوعاً أدبياً خالصاً . فهو حينما يكتب في السخرية من العادات الأوربية التي تفشت في البلاد الإسلامية الشرقية ، وحينما يعرض على قرائه جوانب من الحضارة الأوربية على سبيل الموازنة بينها وبين الحضارة الشرقية ، وحينما ثالثاً يتهم على رجال الدين من المسلمين المصريين ، ويرميهم بالتقصير في العمل على نشر دينهم في الآفاق ، كما يفعل المبشرون المسيحيون الذين يتحملون شظف العيش في جهات نائية لاتلائم صحتهم ، فضلاً عن أخلاقهم وطبيعتهم الخ .

وأما ثانيهما : وهو السيد علي يوسف - فقد كان رجلاً صحفياً وسياسياً بطبعه ، فاتخذ من الإصلاح الديني أو الدعاية الدينية موضوعاً سياسياً خالصاً وألبس آراءه الدينية ثوب الدفاع عن كيان مصر السياسي ضد الأوربيين عامة ، والإنجليز بنوع خاص . ونظر هذا الكاتب الأخير إلى موضوع الدفاع عن الدين من زاوية السياسة ، فعالج الأمر معالجة سياسية ، لادينية ، ولأدبية على النحو الذي ستراه في الجزء الرابع من أجزاء كتابنا هذا إن شاء الله .

في المحيط الاجتماعي :

كان قادة الرأي في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من المجددين من تلاميذ السيد جلال جمال الدين الأفغاني .

وعلى رأسهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والخطابين في حبله من المصريين المثقفين بثقافة أوربية .

وفي المعسكر الآخر من الحياة المصرية جماعة المحافظين بمثلين في رجال الأزهر والمتصلين بهم من أنصار الرأي السنّي المحافظ، ومع ذلك فقد اشترك الفريقان في الدعوة إلى المحافظة على التقاليد .

ولاشك أن المحافظة ألزم للشعوب في أوقات الحزن والكوارث ، وأي محنة كانت أشد على مصر من محنة الاحتلال البريطاني ؟ لقد كان على المصريين أن يتناسكوا في أثناء ذلك كل التماسك ؛ فإن أي قدر من التهاون في مثل هذه الظروف كان غير مأمون العواقب .

مهما يكن من شيء فعلى كواهل المجددين المعتدلين وقع عبء الإصلاح الاجتماعي . وكان أكثرهم نهوضاً بهذا العبء تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . ومنهم إبراهيم النويلحي ، وعلى يوسف ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، والشيخ عبد القادر المغربي ؛ وغيرهم .

وهكذا أصبحنا أمام طائفة من تلاميذ الإمام يحاربون الأدواء الجديدة التي ظهرت في المجتمع . وكان بعضها نتيجة لانتشار الحضارة الأوربية الحديثة . وبعضها نتيجة لإهمال المصريين أنفسهم في هذه الحياة الجديدة .

ومن هذه الأدواء - على سبيل المثال - ما فشا في مصر يومئذ من عادة المضاربة المالية ، وعادة الرشوة والمحسوية . ومنها كذلك ما اندفع إليه المصريون كذلك من اختلاط الرجال بالنساء ، وما استتبع ذلك من تطور ظاهر في الأخلاق والعادات .

أنكر الرأي العام في مصر كل هذه الأشياء ، كما أنكر اندفاع المصريين إلى تقليد الأوربيين في كل مظهر من مظاهر الحياة العامة والخاصة .

فتلك بيوت الصفوة من المصريين أوشكت أن تكون أوربية لا شرقية ، وهذه ألسنتهم قد أصبحوا يلونها لياً متصلاً بلغة أعجمية لا عربية . وتلك عاداتهم قد أصبحت ولا صلة لها بالعادات الإسلامية .

كل هذه أمور تنكر لها الرأي العام في مصر إلى أوائل القرن العشرين، ثم تلت ذلك موجة تالفة هي موجة الرجوع إلى الأوربيين؛ وهي الموجة التي تغشى حياتنا الاجتماعية في وقتنا هذا .

ولقد كان لجريدة «مصبح الشرق» التي يحررها إبراهيم المويلحي جولات موقفة في هذه السيل، كما كان لجريدة «المؤيد» التي يحررها السيد علي يوسف طرق خاصة بها في محاربة العادات الضارة؛ ومنها عادة المقامرة، وانظر إلى هذه الجريدة الأخيرة كيف تنظم الحملات الشديدة على هذه العادة الذميمة، من ذلك أنها نشرت في بعض شهور سنة ١٩٠٧ خطاباً هذا نصه :

عطفتمو ناظر الداخلية :

أنا الموقع اسمي أدناه أضمر صوتي إلى سائر المسترحمين، وإلى قديبي المؤيد، وأتمس من سعادتكم إنقاذ الناشئة الوطنية والأمة بأسرها من محلات المقامرة على اختلالها .

الإمضاء

الإسم والشهرة

العنوان

ودعت المؤيد كل غيور على الأخلاق في مصر إلى نزع هذه الأسطر من الصحيفة، وإمضائها، وإرسالها إما إلى المؤيد، وإما إلى ناظر الداخلية رأساً، واستجاب الجمهور المصري إلى هذه الدعوة حتى أسمع الحكومة صوته، فأخذت الحكومة من جانبها تحارب هذه الدور .

وأما الرشوة فقد فشلت كذلك في موظفي الحكومة، حتى اضطر اللورد كرومر إلى ذكرها مراراً في تقاريره. ومن ذلك ما جاء في تقريره عام ١٩٠٦ «أما بخصوص الرشوة فإني أعرف عدة حوادث اشتكى منها أشخاص، هم غالباً من ذوي الحثيات، وذلك بما فرضه عليهم إنجاز الأعمال الموكفون

الصغار في نظارة الأشغال العمومية وغيرها من المصالح الحكومية .
وردت التزويد على اللورد. ولكنه مضى في اتهام المصريين بهذه الجريمة،
وذهب إلى أن لإنشاء وزارة مسئولة أمام مجلس نيابي يمثل أغلبية الأمة،
مطلب من مطالب الوطنيين في مصر . ولكن يحول دون تحقيقه ما شاع
بينهم من الرشوة، ومن الميل إلى الدسائس ونحو ذلك من الأمور التي تعطل
الحكومة الدستورية، وتجعل مهمة الوزارة المسئولة من أشق الأمور !!
وما دام هذا الداء الاجتماعي قد أصبح في نظر الإنجليز مسألة سياسية،
فهنا وجب على الكتاب الأحرار من أمثال المويلحي وعلي يوسف أن
يعنوا بالأمر، وأن يكتبوا في الرد على اللورد، وفي ردع المصريين عن
يلجئون إلى هذه العادة القبيحة التي يأخذهم بها في تقريره، ويتخذ منها ذريعة
لحرمان المصريين جميعاً من التمتع بالحكم الذاتي .

ولقد كان لذلك كله صدى في الأدب المصري - كإساقى الحديث عن
ذلك - ففي شعر حافظ إبراهيم تسمع شكوى هذا الشاعر الاجتماعي الكبير
من تكاسل المصريين، وانغماس شبيبتهم في اللهو والمجون، ومن ذلك قوله :

أفي الأزبكية مثوى البنين وبين المساجد مثوى الآب ؟
وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب
أنا بته العصر إن الغريب مجد بمصر فلا تلعب

وهكذا كان شعراء مصر في ذلك الوقت يتحدثون في أشعارهم عن
التدهور الخلقى على أنه حقيقة واقعة، ويوازنون بين كسل المصري وجد
الأجنبي، على أنه من الأمور التي لا بد من علاجها، والتفكير في إيجاد حل
ملائم لها .

في المحيط السياسي :

طال أمد الاحتلال البريطاني في مصر، ونسبت الحكومة الإنجليزية

أو تناسست وعود الشرف التي قطعتها مراراً على نفسها بالجللاء الناجز عن هذا القطر ، ولم يبق إلا أن يجاهر المصريون بعداتهم للمحتل ، وأن تنخذ المقاومة في المرحلة الثانية شكل حركة وطنية يشترك فيها الجميع ، ويومئذ انقسم المصريون إلى متطرفين ومعتدلين ، ولكنهم لم يختلفوا تقريباً في الغاية التي يهدفون إليها ، وهي إجلاء الإنجليز ، والظفر بالدستور . ومن ثم نشأت الأحزاب السياسية ، وإن كان ظهورها بشكل رسمي قد جاء متأخراً بعض الشيء . وكان من أهم هذه الأحزاب اثنان هما : الحزب الوطني وهو حزب المتطرفين بزعامة مصطفى كامل ، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وهو حزب المعتدلين بزعامة علي يوسف (١)

ولم يكن إبراهيم المويلحي متتمياً إلى حزب من هذه الأحزاب التي بدى في تكوينها بعد وفاته . وإن كان في الحقيقة - كما يلوح للباحث - من المصلحين المعتدلين . أو قل أنه كان يعتبر تليذاً للشيخ محمد عبده ، يرى رأيه في الإصلاح ، ويأخذ مثله بنظرية الاعتدال ، ويرى فيه المحقق للغرض . والمهم أنه بعد أن كنا في المرحلة الأولى من مراحل المقاومة - وهي المرحلة التي ظهر فيها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، أمام حركة تهدف إلى تحرير الشعوب الشرقية ، أو حركة يمكن بشئ من التساهل أن نطلق عليها اسم الجامعة الإسلامية ، أصبحنا في المرحلة الثانية من مراحل المقاومة - وهي المرحلة التي ظهر فيها علي يوسف ومصطفى كامل أمام حركة ضيقة ولكنها متعمقة ، تهدف أولاً إلى استقلال وادى النيل ، وتنخذ لها عبرة من الشعوب الأجنبية التي ناضلت عن استقلالها ، وظفرت بدستورها .

أما إبراهيم المويلحي فكان كصاحبه يدعو إلى استقلال الوطن من جهة ويحتفظ بشئ قليل من الهوى والميل إلى الجامعة الإسلامية من جهة ثانية . ومع أن التاريخ يؤيدنا في فهم الحركة الوطنية في ذاتها على هذا النحو

(١) سبق هذين الحزبين إلى الظهور (حزب الأمة) الذي هو أول الأحزاب المصرية .

فإننا نجد اللورد كرومر يقول في بعض تقاريره (١) :

« .. وإذا كان غير صحيح مطلقا أن يقال أن الحركة الوطنية المصرية هي بأجمعها حركة جامعة إسلامية ، فمن المحقق بها أن صفة هذه الحركة وتلك حقيقة اعترفتها من زمن طويل ، ويراها اليوم ولو أخيراً عدد من الأوربيين المقيمين في مصر إذا رجعوا إلى ما تنشره الصحافة المحلية عن ذلك ، وأنه لمن السهل — إذا قضت الضرورة — أن تقدم أدلة عديدة تؤيد هذه الحقيقة ، ومهما يكن الحال فن الواضح أن الجامعة الإسلامية هي عامل مهم في الحياة المصرية يجب الاعتداد به ولو إلى حد محدود . لهذا كان من الضروري أن ندرك معنى هذه الكلمة إذ يطلقون الجامعة الإسلامية للدلالة على اتحاد مسلمي الدنيا بأجمعها ، تعجيز الدول المسيحية ومقاومة لها . ولو نظر إليها بهذا الشكل لوجب بالتحقيق مراقبة الحكومة بواسطة الأمم الأوربية ذوات المصالح السياسية في الشرق ، لأن هذه الحركة يمكن أن تؤدي إلى انفجار حوادث تعصب في أقطار متعددة ، ولقد وجدنا أنفسنا على قيد خطوتين من هذا الانفجار في الربيع الماضي بمصر .. »

هكذا كان فهم الإنجليز — إلى نهاية عهد كرومر — للحركة الوطنية المصرية ، وقد سبق أن تعرضنا لهذا الرأي ، وأيدنا فيه رأى جريدة التويد التي قالت إن الجامعة الإسلامية لها وجود فعلي من حيث الدين ، ولكن لا وجود لها مطلقا من حيث السياسة . وسرى في بعض فصول هذا الكتاب عناية الموليحي بفكرة الجامعة الإسلامية بهذا المعنى .

وإذا كنا لم ننس في هذا التمهيد أن نوازن بين ما صنعه الاحتلال الفرنسي لمصر ، وما صنعه الاحتلال البريطاني لها ، فينبغي أن نذكر هنا أن الاحتلال الأول على يد الجنرال بونابرت أيدى رغبة شديدة في مساعدة

(١) راجع تقرير كرومر عنه سنة ١٩٠٦ ، والرأى ترجمته وتلخيصا بجريدة التويد

المصريين في أن يشتركوا في حكم أنفسهم بأنفسهم ، على حين أن الاحتلال الثماني بدأ مقاوماً لمثل هذه الرغبة، فقد كان اللورد كرومر - لسوء حظه وحظ مصر معه - رجلاً استعماريًا بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى ، فكان لا يسمع - مثلاً - إلى رأى بعض الساسة المعتدلين من الإنجليز في مثل قوله : « عندما تدرك أن مبدأ (مصر للمصريين) ليس دسيسة شيطانية موجهة إلى الإنكليز ، بل هو في الحقيقة نتيجة لا بد منها للبدأ العام الذي أحبهنا فيهم بتقاليدنا - إذ ذاك نعم ماهية العمل الشريف المفروض علينا إتمامه في مصر . فقد كان من حسن حظنا أننا بدأنا به . ويكون من حسن حظنا كذلك أن نوصله إلى دوره النهائي - دور الكمال، إننا إذا سعينا وراء إنصاف مصر - مهما كلفنا ذلك من العناء - فإن عملنا هذا يقيد المصريين برابطة ولاء لنا لا تقدر أشد الحوادث على حل عراه ، (١) .

في المحيط الأدبي :

ليس شك في أن الأدب كان ظلًا لجميع هذه الأحداث الدينية والاجتماعية والسياسية . وجاء هذا الأدب بشعره وثره وصحافته وخطابته معبراً أصدق تعبير عن جميع الأفكار السائدة في مصر في تلك الفترة .

فأما من حيث الدين فقد دافع هذا الأدب المصري دفاعاً حسناً عن الإسلام ؛ وهو الدين الذي أبدى يوناپرت عظيم احترامه له ، سواء أكان صادقاً في احترامه أم غير صادق . على حين أن كرومر نعت به منازع السياسة الإنجليزية الصلبة إلى أن ينهش أعراض المسلمين ، ويسدد طعناته النجلاء إلى قلب هذا الدين . فتعرض بذلك لسخط المصريين وازدراء الأوربيين في وقت معاً ، وتصدى للرد على كرومر جماعة من الكتاب من أهمهم صاحب المؤيد ، ثم الكاتب الذي سيستأثر لهذا البحث ؛ وهو إبراهيم

(١) راجع المؤيد - العدد ٥١٧٩ - بتاريخ ٢١ يونيو ١٩٠٧ حيث ترى ملامحها

من م . اميجو استشهد في كلام السنر فرنزر بلاير، ومنه العبارة المقدمة .

المويلحي . وفي فرنسا تصدى للرد على كرومر كثير من الصحف التي سبق لها أن عرفت الشيء الكثير عن الإسلام والمسلمين ، وسبق لها أن درست كل ذلك منذ اللحظة التي وطئها فيها بونا بورت أرض القراعنة . وأكثر من هذا وذاك أن وجدنا بعض الصحف الفرنسية تدافع عن الإسلام وعن حضارة الإسلام ، وتضرب المثل بحضارة بغداد ، ثم حضارة قرطبة ، ثم حضارة مصر ، كما ضربت المثل بتلك الثقافة الإسلامية التي أطلقت الفكر من عقاله في الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في بحار من الأوهام والجهالة (١) .

وأما من حيث اللغة العربية فقد اشترك في الدفاع عنها في المرحلة الثانية من مراحل المقاومة كل من علي يوسف والمويلحي ، وغيرهم من كتاب جريدتي المؤيد ومصباح الشرق ووقف الشعراء صفوحاً إلى جانب الكتاب يدافعون عن هذه اللغة ، وطالب الجميع الحكومة المصرية بأن تجعل العربية لغة التعليم الرسمية في جميع المدارس على اختلافها . وإن ينس مؤرخ الأدب فلن ينسى تلك القصيدة الرائعة التي نظمها حافظ إبراهيم دفاعاً عن اللغة العربية . وهي قصيدة يحفظها أكثر المتعلمين في مصر إلى وقتنا هذا ومنها قوله :

رجعت لنفسي واهمت حصاتي	وناديت قومي واحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتي	عقمت فلم أجزع لقول عدااتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي	رجالاً واكفاء وأدت بناتي
وسمت كتاب الله لفظاً وغاية	وما ضقت عن آي به وعظاتي
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله	وتنسيق أسماء لمخترعاتي ؟ (٢)

وأما من حيث السياسة فبصرف النظر عن الصحافة نجد الشعر المصري يخوض هذا الميدان . وكان من أسبق الشعراء اشتراكاً في السياسة رجلاًن هما : إسماعيل صبري وحافظ إبراهيم . ثم انضم إليهما أحمد شوقي بعد ذلك

(١) راجع ترجمة مقال بهذا المعنى في جريدة المؤيد - العدد ٥١٣٩ - ١٣/٤/١٩٠٧

(٢) ديوان حافظ إبراهيم - ص ٢٥٣ .

وقد نظم هؤلاء كثيراً في نقد اللورد كرومر ، وحادثة دنشواى ، ونقد الوزراء المصريين والتعريض بهم ، ونقد السياسة الخارجية ونحو ذلك .

أما إبراهيم المويلحى - بنوع خاص - فقد عمد إلى محاربة الاحتلال الإنجليزي بطريقة أدبية لا سياسية أو صحفية ، وشرع يكتب قصته (موسى ابن عصام) التي أبدى فيها عداوته للاحتلال ، ثم حيل بينه وبين إتمام هذه القصة على النحو الذى سنشرحه للقراء فى كتابنا هذا إن شاء الله .

وأما من حيث المجتمع فقد رأينا كيف تصدت الصحف المصرية لحماية الأخلاق ، وحماية المجتمع نفسه من بعض العادات الضارة ؛ كعادة المقامرة وعادة المضاربة . وعادة الشراب والتهالك على الملاذ ونحو ذلك . كما اشترك الشعر المصرى فى هذا الميدان . وسمعنا شاعراً مصرياً كحافظ إبراهيم يخاطب (الأزبكية) فى شعر له فيقول :

كم وارت غض الشباب رميته بفرام راقصة وحب هلوك

ألبسته الثوبين فى حالهما تيه الغنى وذلة المفلوك (١) .

على أن مؤرخ الأدب المصرى الحديث لا يستطيع أن يهمل فى بحث له طويل أو قصير ذكر «الصالونات الأدبية» أو تلك الأندية الأرستقراطية التي كانت تجذب إليها صفوة المصريين من كتاب ، وشعراء ، وخطباء ، وسياسيين ، ومحامين ، ومعلمين ، وصحفيين ، ومهندسين . حيناً يجمعهم (صالون الأميرة نازلى فاضل) وحيناً يجمعهم (صالون إسماعيل صبرى) ، وحيناً يجمعهم فى (منزل على باشا مبارك) . وحيناً يجمعهم فى (منزل سعد باشا زغلول) ، وحيناً فى (منزل لطيف باشا سليم) وهكذا .

على أن صالون الأميرة نازلى فاضل كان أهمها جميعاً ، وكان أشدها

تأثيراً في الحركة الأدبية والحركة السياسية . فن حيث الأولى كان منتدى هذه الأميرة منزل الوجدى بالقياس إلى أكثر الشعراء والكتاب الذين اختلفوا إليه في ذلك الوقت ، ومن حيث الثانية كان هذا النادي مولد الحزب الوطنى الذى كان يضم إليه صفوة القوم فى مصر ، ومعهم رؤساء الوزارات المصرية ؛ كشرىف ورياض وغيرهما ، وأعيان البلاد كسلطان (باشا) ولطف سليم (باشا) ، وشاهين (باشا) . وعمر لطفى (باشا) وراغب (باشا) وغيرهم من تألفت منهم هذه الجماعة التى عرفت بالحزب الوطنى .

ولا يستطيع مؤرخ الأدب أن ينسى كذلك (دار المؤيد) وغيرها من دور الصحف الهامة فى مصر فى ذلك الوقت ؛ كالأهرام ومصباح الشرق . وفيها أى فى هذه الدور كان يجتمع برئيس التحرير خريط عجيب من المستنيرين . وإذ ذاك يتطرق الحديث بينهم إلى مسائل شتى فى الأدب والاجتماع والسياسة والتعليم والاقتصاد والأخلاق ونحو ذلك وناهىك بعظم الأثر الذى تتركه هذه الأحاديث فى نفوس سامعها بما لا يدع مجالاً للشك كذلك فى فائدتها لجميع هذه المرافق التى أشرنا إليها .

وإلى جانب (الصالونات) الأدبية الأرستقراطية كانت ثم (صالونات) ديمقراطية . ونعى بهذه الأخيرة ما كان يجتمع هنا وهناك من جماعات الناس الذين يتطرقون كل ليلة على أبواب الحوائىت العامة . فهذه حلقة أدبية بمحانوت بزاز ، وهذه حلقة أخرى بمحانوت كواء أو عطار أو نساو وهكدا . وفى تلك الحلقات كنت ترى الشيخ الأزهرى إلى جانب اتقى العصرى إلى جانب الشاعر أو الكاتب المغمور ، إلى جانب الأديب المشهور ، أو العالم الكبير . وجميعهم يتحدثون فى شتى الأمور السياسية والاجتماعية والدينية والأدبية حديثاً طلقاً من القيود ، محبباً إلى النفوس ، باعثاً على اللذة المعنوية والفنية .

الحق أن القرن الماضى فى مصر قد أتاح لأبنائه من سعة الوقت ما يسمح

لهم باقتناص هذه اللذائذ التي تتحدث عنها ؛ وهي اللذائذ التي حرمت منها الجماعات في عصرنا هذا - عصر الأزدحام ، وعصر الآلة ، وعصر السرعة .

كتاب عهد الاحتلال :

والخلاصة التي نريد أن نخرج بها من هذا التميد هي أن يقظة المصريين في القرن الماضي اتخذت لها طريقين هما : طريق التنوير ، وطريق المقاومة بعد انتوير . . . أما أولهما فبدأ بالاحتلال الفرنسي لمصر ، وأما الثاني فبدأ بالاحتلال البريطاني لها .

وهذا الكتاب يتناول حول البحث في شخصية من شخصيات الدور الثاني ؛ ونعني به دور المقاومة ، بل في المرحلة الثانية من مراحل هذا الدور الأخير وهي المرحلة التي قوى فيها سلطان الإنجليز ، وحكموا فيها أتبلاد المصرية حكماً يوشك أن يكون مطلقاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى .

والحق أنه وسط هذه الظروف التي شرحنا جانباً منها ، وضجيج الحوادث التي أشرفنا الإشارة عابرة إلى أهميتها منها نشأت طائفة حديثة من الكتاب وقادة الرأي في البلاد ، واتخذوا الصنف مجالاً لأفلامهم ، وميداناً لعرض أفكارهم وكان لهذه الأحداث كلها صدى في نفوسهم ، ووقع عظيم في أذهانهم ، وكان من نتيجة هذا التأثير ما خلفه لنا أولئك القادة والكتاب من ثروة أدبية وصحفية طبعت بطابع السخط على الاحتلال البريطاني ، وطابع الثورة على أوروبا وما يرد منها . وقد علمت من جميع هذه الأحاديث أنه كان من أشهر أولئك الكتاب ثلاثة يصح أن تطلق عليهم اسم (كتاب عهد الاحتلال) وهم : إبراهيم المويلحي ، والسيد علي يوسف ، ومصطفى كامل .

ما أول الثلاثة فهو عدو الحضارة الأروبية في أي شكل من أشكالها . وأما الثاني فهو نصير الخديو عباس الثاني وعدو اللورد كرومر بوصفه جبار الاحتلال البريطاني .

وأما الثالث فهو مشعل الحركة الوطنية وزعيمها ، وهو داعية مصر في أرجاء العالم المتمدن والمدافع عن حقوقها .

والأول وهو المويلحي أدناهم جميعاً إلى الأبد ، وأقربهم جميعاً إلى محيطه ، وأكثرهم جميعاً تهيؤاً له ، وقد جاء أسلوبه في الكتابة أدبياً أكثر منه صحفياً .

والثاني : وهو على يوسف أدناهم جميعاً إلى الصحافة ، وأقربهم جميعاً إلى محيطها ، وقد جاء أسلوبه صحفياً أكثر منه أدبياً بهذا المعنى .

وأما الثالث : وهو مصطفى كامل - فهو خطيب مصر السياسي ، وزعيمها الوطني ، وداعيتها القوي ، وقد أثر كل ذلك في أسلوبه تأثيراً واضحاً ، فجاء أسلوبه حماسياً لا أكثر ولا أقل .

هؤلاء إذن هم كتاب عهد الاحتلال في مصر ، وقد خصصنا كلا منهم في كتابنا (أدب المقالة الصحفية) بجزء . وهانحن أولاء تقدم للقراء الجزء الخاص بالمويلحي ، راجين أن تقدم لهم في نفس الوقت جزءاً خاصاً بعلي يوسف ، وآخر خاصاً بـمصطفى كامل ، والله الموفق .

ابراهيم الموشى

١٩٠٦-١٨٤٤



الفصل الأول

حياة إبراهيم المولحي

لئن افتخر الجيل الذي نحن من أبنائه بالكثيرين ممن تخرجوا في المدارس والجامعات ، لقد كان من حق الأجيال التي سبقتنا في القرن الماضي أن تفخر بالكثيرين من أصحاب المواهب الخاصة ، ممن لم يتخرجوا في جامعة ولا مدرسة . واثن افتخر الجيل الحاضر بهذه المؤسسات الكثيرة كالمعاهد والجامعات ، لقد كان من حق الأجيال السابقة في القرن الماضي أن تفخر بالمجالس الأدبية سواء ما كان منها أرسنقراطيا كمجلس الأميرة نازلي^(١) ، ومجلس البارودي ، ومجلس إسماعيل صبري ، وما كان منها شعبيا ذي مقر أظيانا كهذه الجماعات التي كانت تنشط دائما حول التجار على اختلافهم من زار وكواء وعطار ونحو ذلك .

وكما كانت المجالس الأدبية ، الأرسنقراطية ، تجذب إليها من شيوخ الأدب بعض سراة القوم وبعض الشباب المثقف ، فقد كانت الحلقات الأدبية الشعبية تجذب إليها أخلاطاً من شيوخ الأزهريين ، وبعض المتعاطشين من الشباب إلى الظهور في عالم الأدب ، أو النبوغ في ميدان الشعر والخطابة والكتابة . وكان هؤلاء هؤلاء يجدون في هذه المجالس الصغيرة من اللذة والمتعة ما يصرفهم ، ويصرف التجار معهم حتى عن العمل الذي يكسبون منه العيش ١١ . ألم نقل عن عبد الله النديم ، أنه كان يقضي هذه المجالس الأدبية

(١) الأميرة نازلي هي كريمة مصطفى فاضل (باشا) أخى الخديو إسماعيل وكان يختلف إلى منزلها الأدبي كثيرين من عليه القوم ومنهم على سبيل المثال سعد زغلول . وأحد زبوره ، وقاس أمين ؟ وإبراهيم الهلباوي والسيد أحمد الحسين الحامى والمولى الكبير والصغير وغيرهم .

على اختلاف درجاتها؟ وأنه أفاد منها شيئاً ليس إلى إنكاره من سبيل ؟
وهذا الذي قلناه عن النديم قوله الآن عن إبراهيم المويلحي .
انحدر هذا الفتى من أسرة سنتحدث الآن عنها . وكان له أخ أصغر
منه يسمى عبد السلام ، وكان أبوهما السيد عبد الخالق المويلحي يريد أن يجعل
من إبراهيم تاجراً . ومن عبد السلام أديباً أو عالماً ، فبعث بهذا الأخير إلى
الأزهر ، وترك إبراهيم - لأنه الكبير - في متجره الذي كان يعمل به
في تجارة الحرير ، ولكن القدر حكيم أراد غير ذلك . فخرج عبد السلام
من الأزهر واحترف التجارة ، ولم يلتحق إبراهيم بالأزهر ولزم المتجر ،
ولكنه تلمذ لحسن حظه وحظ الأدب والصحافة على عطار كان له حانوت
بجوار متجر السيد عبد الخالق المويلحي والد صاحب الترجمة ، وكان هذا
العطار عالماً في الفقه واللغة والأدب وغير ذلك من علوم الأزهر . ومن
نواد ما حكى عن المويلحي في صلته بهذا العطار العالم أنه كان إذا أصبح
الصباح وذهب لفتح متجر أبيه بقي فيه لحظات قصيرة ريثما يأتي جاره العطار
وإذا ذلك يجلس إليه إبراهيم ليتلقى عنه دروساً في الأدب والنحو والبلاغة ؛
وكان الفتى يعلم أن ذلك لا يرضى أباه ، فكان يحتاط الأمر ويكل إلى بواب
اسمه « علي الأشموني ، ليقف على قارعة الطريق ، حتى إذا رأى السيد
عبد الخالق مقبلاً من بعيد أسرع فأخبر إبراهيم ، ليترك أستاذه العطار على
عجل ، ويعود إلى المتجر متظاهراً بالشغل به طيلة الوقت !

أسرة المويلحي :

بيت المويلحي من البيوتات القديمة في مصر وهو ينتمي إلى الحسن
والحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وقيل أن هذه الأسرة نزلت
إلى « المويلح » وهي بلدة في جزيرة العرب على شاطئ البحر الأحمر سنة ٥٠٥
(١) أطلقى حضرة إبراهيم (أندلسي) المويلحي على سورة شمسية لمضرب بيت فيه كل
ما ذكرت .

للهجرة . وبقي أفراد هذا البيت يتولون أمر هذا الثغر مدة كبيرة من الزمان حتى أصبحت الجزيرة العربية تابعة للدولة العثمانية ، واتخذ السلطان سليم من أبناء هذه الأسرة وكلاء عنه في بلعة «المويلح» . ومنذ ذلك التاريخ اشتهرت أسرة المويلحي باسم « أسرة الوكيل » . وقيل أيضاً أن الجد السادس عشر لهذه الأسرة ، وهو السيد محمد أبو السرور ، شيد قلعة في « المويلح » لحمايتها ولإيواء الحجاج المارين عليها ولإطعامهم في طريقهم إلى الكعبة . ثم في عام ١١٨٠ هـ رأينا حاكم المويلح ، وهو يومئذ السيد مصطفى حفيد السيد أبي السرور الذي سبق ذكره يطلب من السلطان أن يعث إليه بأمرأة الأوجاقات السبعة وقضاة اشرع ليشهدوا - حسب العادة والعرف إذذاك - بما تم في القلعة من ترميمات ، فجاءوا إليها وشهدوا كل ذلك وقدروا تفقاته ، وكتبوا به سجلاً رفعوه إلى السلطان ، وكان هذا الأمير ونعنى به السيد مصطفى المويلحي الوكيل يتاجر فوق ذلك في الحرير ، وقد أسس له عام ١٧٧٥ م وكالة مشهورة بصناعة هذا النسيج بمدينة القاهرة ، تاركا أمر إدارتها إلى ابنه السيد أحمد المويلحي ، ويقال أنه منذ ذلك التاريخ انقسمت أسرة المويلحي قسمين :

قسم ظل يحكم ثغر المويلح ويقال أنه لم يزل بهذا الثغر إلى اليوم ، وقسم أتر الديار المصرية بالرحلة إليها والإقامة فيها ، فبقي هناك حتى تولى عرش البلاد محمد علي (باشا) الكبير عام سنة ١٨٠٥ م . ومنذ ذلك التاريخ نشأت صلة قوية ، وصدافة متينة بين هذه الأسرة وبين والى مصر وبعض رجاله سنتحدث عنها ، ووجدنا بالفعل بين أفراد هذه الأسرة رجلا اسمه إبراهيم المويلحي وهو ابن السيد أحمد المويلحي وجد إبراهيم المويلحي صاحب الترجمة ، وقد اتصل بحبيب أفندي كتنخدا محمد علي واتخذة السكتنخدا كاتبا له ، وكان لإبراهيم ولع بالأدب عظيم ، وعناية باللغة كبيرة ، ويحكى أن السيد أحمد المويلحي كان يحكم ثغر « المويلح » بعد أبيه السيد مصطفى وذلك في الوقت الذي جهز (٣٢ - أدب للقالة السلفية ج ٢)

فيه محمد على الكبير حملته المشهورة لمحاربة الوهابيين سنة ١٨١١ م ، وحين نجحت الحملة في تسكين فتنة الوهابيين وطردهم من ثغر « المويلح » وذلك بفضل المعونة التي قدمها السيد أحمد ، وصلت الأبناء إلى « محمد على » بمصر فسر بها كثيراً ، وكتب بها إلى السلطان وطلب منه الإبقاء على السيد أحمد المويلحي وكيلا عنه في ثغر المويلح ، فوافق السلطان على ذلك .

ثم في ١٨١٢ م أتى السيد أحمد لزيارة ابنه إبراهيم في مصر ، فوجد الوالي مشغولاً بتجهيز حملة أخرى إلى الحجاز ، وسمع أنه بحاجة في هذه المرة إلى ستائة كيس من المال ، فتحركت في نفس السيد أحمد أريحية عربية حملته على أن يدفع هذا المال كله إلى محمد على ، فقبل الوالي منه ذلك شاكراً ومحسباً له ولأسرته هذا الجليل .

وتوفي السيد أحمد المويلحي سنة ١٨١٣ م فأمر محمد على بدفنه في مسجد الإمام ، وتولى ابنه إبراهيم تجارة أبيه في الحرير ، وأثمرت تجارته ونمت وجلبت له ولأسرته المال الوفير . ثم إن محمد على لم ينس لأبيه ذلك الصنيع فعينه في سنة ١٨٢٧ م عضواً في مجلس فصل الدعاوى بين التجار .

وتوفي السيد إبراهيم ، تاركاً ابنه السيد عبد الخالق في سن الستين ، وبقى السيد عبد الخالق يتولى تجارة أبيه وحده في الحرير ، وهي تزداد في يده نماء وإثماراً ، حتى رزق بولديه إبراهيم وعبد السلام . وبقى هذان الأخوان في رعاية أبيهما ، وكان ظن أبيهما — كما قلنا — أن يكون إبراهيم وهو الأكبر — تاجراً وعبد السلام عالماً ، ولكن شامت الأقدار أن تخلف هذا الظن ، وأن تظهر في إبراهيم ميول أدبية قوية لم يستطع مقاومتها ، ولم ير بدأ من الاتصال لأجلها بمجانوت العطار ، الذي قلنا أنه كان يحفظ كثيراً من علوم الأزهر ، وأخذ عنه إبراهيم شيئاً غير قليل من هذه العلوم التي منها البلاغة والآداب والنحو والعروض .

سيرة ابراهيم المويلحي الخاصة :

توفي السيد عبد الخالق سنة ١٨٥٦ م تاركاً لابنيه عبد السلام و ابراهيم ثروة كبيرة ، كان خليقاً بهما أن يحتفظا بها ، ولكنهما أضاعا جانباً كبيراً منها في المضاربات المالية التي قن بها ابراهيم بنوع خاص ، وكانت مصر حديثة عهد بهذه المضاربات التي كانت تبهير الناس بسرعة ما تفجؤم به من الإثراء ، قال إليها الكثيرون من سراة مصر في هذا الوقت وأضاعوا فيها ثروتهم ، وأصبحت بيوتاتهم كأن لم تغن بالأمس ، وكان ابراهيم من هؤلاء الذين لا يقنعون بما في يدهم من الغنى ، فراحوا ياتمسون أكثر منه بهذه الطرق ، واتسعت تجارة هذه الأسرة في التحرير بعد وفاة السيد عبد الخالق المذكور ، واشتهر بها أمر ابنه ابراهيم حتى أصبح عضواً في مجلس التجار ، فحضر في مجلس مصر الابتدائي ، غير أن ذلك كله لم يصرف ابراهيم عن الأدب برغم أن الأدب كان يومئذ مهنة الفقراء . وأخذ يتصل بكثير من كبار الأدباء ، واشترك مع أحدهم إذ ذاك واسمه عارف (باشا) في تأسيس «جمعية المعارف» وغرضها نشر الكتب القيمة وتقرئها للقرء بصورة ملائمة ؛ وكان تأسيس هذه الجمعية سنة ١٨٦٨ م. ثم أنشأ المويلحي لهذه الجمعية مطبعة عرفت كذلك باسم «مطبعة المعارف» وقامت هذه المطبعة بنشر طائفة صالحة من الكتب أهمها « قاموس تاج العروس » ورسائل بديع الزمان ، وسلاوك الممالك ، وألفباء ، وكتاب أسد الغابة ، ومحاورات الأدباء والشعراء والبلغاء ، وهكذا كان لهذه الجمعية شأن يذكر في تاريخ النهضة العلمية الحديثة ، وبقية رأينا ابراهيم المويلحي يتجه بعد ذلك إلى الصحافة ، وكان أول ما فعله من ذلك إصدار جريدة «نزهة الأفكار» بالاشتراك مع أحد الأدباء المشهورين إذ ذاك وهو عثمان جلال ، ولم يكن لمصر من الجرائد الشعبية يومئذ غير جريدة « وادى النيل » لصاحبها أبي السعود . غير أنه ظهر أن جريدة «نزهة الأفكار» كانت من الخطورة على الرأي العام بحيث أشار شاهين (باشا)

يومتد على الحكومة بتعطيلها خوفا من جرأة كاتبها ، ولذلك رأت الحكومة القائمة أن تصدر أمرها بتعطيل هذه الجريدة ، ولم يكن قد صدر منها غير عددتين لا ثالث لهما . ومن ثم ترك إبراهيم العمل في الصحافة هذه المرة مكرها ، وطفق يقضى وقته بعد ذلك في مضاربات « البورصة » التي لم تلبث كما قلنا أن استنزفت ثروته و ثروة العائلة ، وكانت في نظرنا دليلا على مزاج هذا الأديب ، وهو مزاج سريع التقلب إلى درجة تلفت نظر المؤرخ كما سترى ذلك بعد .

وكانت هذه الأسرة العريقة تتعرض للتلف لولا يد إسماعيل العظيم الذي ذكر لهذه الأسرة فضلها القديم ، ورأى أن يستدعى الآخرين عبدالسلام وإبراهيم فثلا بين يديه فقال : من منكما الأكبر ؟ فقال إبراهيم : عبدكم يا مولاي فسأله : كيف تسير أعمالك التجارية بعد موت أبيكما ؟ فقال إبراهيم : إن عليها عند عبد السلام لأنى انقطعت للعلم والأدب ، فالتفت الخديو إلى عبد السلام فتقدم وبسط الحالة التجارية والمالية . وهنا تناول الخديو ورقة وخط فيها يده الكريمة سطرين وناولها إبراهيم ليسلها لرئيس الديوان^(١) وخرج الآخرين من حضرة إسماعيل ، وإذا بأحدهما وهو إبراهيم عضو في مجلس الاستئناف براتب شهري قدره أربعون جنيا ، وإذا الثاني وهو عبد السلام في يده إذن بمبلغ أربعة آلاف جنيه أصلح بها حال تجارته ، ونهض بها من عشرته وعشرة أسرته .

ولم يكف إسماعيل بذلك ، بل أنعم على الآخرين الشقيقين بالرتب والنياشين ، وأصدر أمره لسيدات القصر ألا يلبسن خير الحرير الذي تنتجه مصانع المولىحى . ثم أمر كذلك بإعداد كميات كبيرة من هذا الحرير فأرسلت إلى معرض فينا في تلك الأيام ، ومنذ ذلك الوقت اشتدت الصلة

(١) انظر مقالا لإبراهيم (أندى) للمولىحى بالعدد ٢٤٩ من مجلة الرسالة بالقاهرة .

بين الخديو إسماعيل وأسرة المويلحي ، ووطن إبراهيم نفسه على الإخلاص ما عاش لهذا الوالي ولأولاده من بعده .

وبقي إبراهيم في العمل الحكومي الذي عينه فيه الخديو إسماعيل حتى دب نزاع بينه وبين حيدر يكن (باشا) رئيس مجلس الاستئناف انتهى باستقالة إبراهيم من هذا العمل وتفرغه بعد ذلك للأدب .

غير أن الخديو إسماعيل عوض إبراهيم عن ذلك بإعطائه « مصلحة تمتاز المشغولات والمنسوجات » على سبيل الالتزام - أعني الاحتكار على الطريقة المتبعة إذ ذاك - وحدث بعد ذلك أن سقطت وزارة نربار وتلتها الوزارة الوطنية برياسة شريف (باشا) ، وكان على هذه الوزارة الوطنية أن تفكر في وضع الدستور ، فاختير إبراهيم المويلحي للاشتراك مع السيد البكري في وضع اللائحة الوطنية لتأسيس مبادئ الحكومة الدستورية ، فوضعها يريتمذ وقدمها لأولى الأمر .

تم وقع اختيار راغب (باشا) ناظر المالية بعد ذلك على إبراهيم ليكون كاتم سره في نظارته ، وصادف هذا الاختيار قبولاً حسناً في قلب إسماعيل الذي لم يكتف بذلك حتى عين إبراهيم ناظراً للقلم العربي بهذه النظارة ، وإذ ذاك أظهر المويلحي من النشاط والمقدرة ما جعل راغب (باشا) يحيل إليه كذلك النظر في قلم العرضحالات مع ملاحظة قلم (تركي المالية) . وفوق هذا كله عينه راغب (باشا) عضواً في مجلس تسديد الديون السائرة .

إبراهيم المويلحي والخديو إسماعيل :

ثم حدث ما حدث ، من تنازل الخديو إسماعيل عن العرش سنة ١٨٧٩ ، ومن سفره إلى إيطاليا واختياره مدينة « نابلي » للإقامة فيها . وإذ ذاك تطوع إبراهيم بالسفر إليه في هذا المنفى تاركاً جميع مناصبه الحكومية التي كان يشغلها في مصر . وهناك في إيطاليا كتب إبراهيم صيغة جديدة من

كتاب حياته . هي صفحة الولاء والإخلاص لصديقه إسماعيل . وكان إسماعيل في محتته هذه محتاجاً لشينين لا ثالث لهما : أما الأول فصديق بيته شكواه ويستشيريه في كثير من الأمر، وأما الثاني فصحيفة يذود بها عن نفسه ضد السلطان، وضد الأجانب ، وضد الصحفيين من المصريين عن تعرضوا لنعته وتقده في داخل مصر وخارجها ، وكان من أشد أولئك الصحفيين على نفس إسماعيل ذلك الصحفي الإسرائيلي المعروف باسم يعقوب بن صنوع . ولقد وجد إسماعيل في صديقه إبراهيم ذلك الزميل الذي يحقق له هذين الغرضين ، فاتصل الود بينهما ، وأنس كل منهما إلى الآخر ، ووثق به كل الثقة ، وتحدث الناس بهذه الصلة الحميدة في المجالس وفي الصحف ، وبقى إبراهيم ينظر إلى صديقه العظيم « كيف يضيئه الأمل ، وكيف يقعده الملل ، وكيف يصعده ذلك فوق رموس سكان النجوم ، وكيف ينزله هذا تحت سكان التخوم ^(١) » . فيتأثر لذلك تأثراً يرتعد له جسمه ، ويخفق له قلبه ، ثم لم يزل إبراهيم لصاحبه الكبير « حتى حشره في زمرة أصحاب الصحف ، فموضه الله عن العرش الضائع بأحرف المطابع وعن التشريع بالزقريع ، وعن الورق بالورق ، وعن العيد الطائعين بالمشركين ، وعن التمثيل بالتحصيل ، وعن اقرارات بالمقالات ، وعن حفلة الرقص بآلة القص ، ونقله من التدبير إلى التحجير ، ومن أطال الله عمر الملك العظيم إلى يا أبا شادى أدر ما كينة التخريم ، فسبحان من وضع الأشياء موضعها . وفرق العز والإذلال تفريقاً .

وهكذا وجد إسماعيل راحته في النقي في صديقه المويلحي ، ثم في هذه الصحف التي كانت من إيماء إسماعيل ومن إنشاء إبراهيم ؛ ومن هذه الصحف صحيفة يقال لها « الخلافة » ، وأخرى باسم « الاتحاد » ظهرت سنة ١٨٨٠ م

(١) من مقال بجريدة الساعة عدد ٥٢ بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩٠٦ لصاحب الجريدة للذكورة أحمد نواد .

ولكن لم يصدر منها أكثر من ثلاثة أعداد ، جاءت كلها نقداً لا ذعاً لسياسة الدولة العلية ، ولقد أزعج هذا النقد اللاذع السلطان عبد الحميد بالأستانة ، فبعث إلى سفيره بإيطاليا أن يبذل أقصى الجهد في أن يكف المويجى عن هذا النقد .

وهرضت إحدى الأميرات من زوجات إسماعيل بمرض الروماتزم وأشار عليها الأطباء بالاستشفاء في مدينة «بروسه» من مدن تركيا ، فتحير إسماعيل في الأمر ، واستشار فيه صديقه وأمينه إبراهيم ، فأشار عليه يومئذ بأن يبعث إلى السلطان برسالة يستعطف فيها أمير المؤمنين حتى يأذن الأميرة المريضة بالإقامة في هذه المدينة . وتولى إبراهيم بنفسه كتابة هذه الرسالة وإليك طرفاً منها :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، أطال الله بقاءه ، وجعلنى من كل مكروه فداه ، من عبد اكتنفه حرمان الرضامن ولى نعمته ومالك ناصيته ، فساعته شهر ، وليلته دهر ، وعبرته نهر ، وإنى أتضرع إلى مقام خلافتكم العظمى ، وسلطتكم الكبرى ، متوسلاً بجزاب صاحب هذه الرسالة — صلى الله عليه وسلم — أن يلحظ ما أعرضه لدى سدتكم الملوكية بعين الرضا ، ولو أن العذر إقرار بالآثام الصحائف أذاراً ، ولعرضت التوبة ليلاً ونهاراً ، وهبى يا أمير المؤمنين جئت بكل ذنب ، أليس فى سعة عفوك وساحتك إخوانكم ما تغفر به الذنوب ؟ وأمير المؤمنين أعلى نظراً أن يراخذ بقول وهو إلفك الوشاة ، أو يعاقب بكلام وهربتان السعاة ، من الذين اتخذوا حرقتهم أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، بعد أن أفنيت حياتى بهذا البيت المعمور فى خدمتتها ، وأوامر أظعتها ، ونراهم امتثلتها ، وموالاة جعلتها شرطاً سادساً لدينى ومعتدى ، واتباعاً لقوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ثم قال : وإن أذكر أمير المؤمنين ، والذكرى تنفع المؤمنين ، بقوله تعالى « واتقوا الله الذي تساملون به والأرحام » .

وإن بين جلالكم وبين رعيتكم — وهذه المريضة فرد من أفرادهم — الرحم الذي هو أولى بوجوب الصلة من رحم السنين ، قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » — أي واتقوا الله في إخوانكم في الدين برعاية عهودهم ، وحفظ حقوقهم ، فملنا أن الآخرة الدينية تقضى مزيد الشفقة والرحمة ، ولا معنى للرحمة والشفقة ، إلا أن تنفذ المؤمن من المهالك ، وتؤمنه من المخاوف ، وتخلصه من الآفات وأن توصل إليه الميراث ما استطعت ، ولا يكمل عند الله الإيمان حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، ولو شاهد أمير المؤمنين هذه المريضة المسكينة وهي سالتني بماذا أجاب الخليفة ؟ أيرضى أمير المؤمنين أن أقول لها قد أخضى عن الإيجاب وهو تصریح بهتك الحجاب أو الموت — كبرت كلمة تخرج من الأفواه فإذا قالت « فإين الدين والإيمان ؟ والحديث والقرآن والعدل والإحسان فلا مساغ يا أمير المؤمنين للجواب .

يا خليفة رسول الله ، هذه فرد من أفراد رعيتكم ، وقال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكل مسئول عن رعيتة » ، فالتمس من أعتاب مولانا المعظم أن يصدر أمره العالی بما يوافق شفقتة وإرادته ، وأن يعفو عن عبده ، وإني لممثل لجميع أوامر مولانا أمير المؤمنين أعتها فرضاً واجباً ، فإن الحياة والله لا تصفر لعبد سدتكم وفي التصور أن ولي نعمته مغض عنه ، وأنا واقف على البعد أتلقى أوامرکم بفريضة الامتثال ، فإن لم يصادف تضرعي ودعائي قبولاً فإنني أخشى أن هذه المريضة وهي في الاحتضار تمد يدها بكتاب الله تعالى قائلة « بيني وبين أمير المؤمنين هذا الكتاب العزيز في الدنيا والآخرة والامر لله من قبل ومن بعد » (١) .

سافر إبراهيم بعد ذلك عام ١٨٨٤ ، إلى باريس حيث أصدر العدد الرابع من جريدة الاتحاد ، التي كان يرعاها الخديو إسماعيل . وكانت لهجة إبراهيم في هذا العدد قاسية على السلطان . نطلب هذا عن طريق سفيره في باريس إلى الحكومة الفرنسية نفي إبراهيم من فرنسا . ولا ندرى لماذا بادرت الحكومة الفرنسية بتلبية طلبه . وإذا ذلك انبرى لتقد وزير الداخلية أحد المحامين الفرنسيين .

ونشر المحامي نقده هذا في جريدة « الفيجارو » الفرنسية عدد ٣٣٣ سنة ١٨٨٤ واختتمه بقوله « إني أسأل بصراحة المسيو « ولديك روسو » عن الضرر الذي يسببه إبراهيم (بك) في باريس . أم هل نقد بلدنا الجمهوري حتى الإقامة فيه ، وأضحى غير قادر على منح الضمان الكافي للحكوم عليه سياسياً . وإلا فما هو الأمان الذي يمكن أن يجده عندنا كل غريب فقد حتى التمتع بمصالح بلده ؟ ألا يظن حضرة وزير الداخلية أنه من السذاجة أن تنال بسهولة وبدون محاكمة إبعاد صحفي فرنسي غير راض عن سياستنا الحالية من اسطنبول أو لندرة مثلاً لأنه يصدر جريدة عدائية هناك ؟ إن اقبحص على إبراهيم (بك) ونفيه بدون محاكمة لا يعد فقط عملاً استبدادياً ، بل أمراً منكراً ربما استحق الاستجواب عنه في البرلمان (١) .

أبحر بعد ذلك إبراهيم إلى لندن بدعوة من السيد جمال الدين الأفغاني ، فعرض عليه أن يشترك معه في تحرير جريدتي « العروة الوثقى » و « ضياء الخافقين » كما اشتركا في الدفاع الحار عن الشرق والإسلام ولم يكتب إبراهيم بذلك بل أنشأ هناك لنفسه جريدتين جديدتين ، وهما جريدة « الأنباء (٢) » وجريدة « عين زبيدة » .

(١) انظر مقالا لإبراهيم (أفندي) للويس بالمعد رقم ٢٥٠ من مجلة الرسالة بالقاهرة .
(٢) ورد في جريدة الكوكب لصاحبها محمود زكي العدد ١٨ بالسنة الخامسة بالقاهرة أن جريدة الأنباء ظهرت في نابلي . أما جورجى زيدان وعيسى اسكندر الملو ففروا أنها ظهرت في باريس .

ولسنا ندرى لماذا اندفع إبراهيم فيها اندفاعاً ظاهراً إذ ذلك في إظهار ولائه للسلطان عبد الحميد . وحين وصلت الأخبار إلى مسامع السلطان ، سر لها سروراً عظيماً . وأظهر الرضا عن خطة إبراهيم في تقده الشديد لساسة الإنجليز وعلى رأسهم « غلاستون » . ومن ثم فكر السلطان في استدعاء المويلحي إلى الأستانة ؛ ولكن المويلحي ارتاب أولاً في هذه الدعوة ، ورأى أن يبعث بابنه محمد لكي يكشف له عن جلية الأمر ، فذهب محمد إلى الأستانة وتبين له أن السلطان صادق في هذه الدعوة التي وجهها إلى أبيه ، فكتب إليه يطمئنه على ذلك ، ويتعجل حضوره .

إبراهيم المويلحي في الأستانة :

ومثل إبراهيم بين يدي السلطان الذي أكرمه ، وتلقاه بالإنعام والبشر والبشاشة ، ثم عينه عضواً في مجلس « أنجمن المعارف » وكان رئيسه يومئذ « منيف باشا » الذي وصل إبراهيم بكبار رجال العلم بالأستانة ومنهم الشيخ « انشنيطي » وهناك في الأستانة تعرف المويلحي كذلك إلى إبراهيم (بك) أدم ، صاحب جريدة الحقائق ، وأخذ على عاتقه وصف المواكب السلطانية على صفحات هذه الجريدة ، وذلك في كل مرة يخرج فيها السلطان للصلاة . وهناك مثالا من إنشائه ، يصف موكب صلاة الجمعة في الأستانة قال : ما يقصر في يوم افتتاحه ، أستغفر الله ، بل ما سعد قادماً من القادسية ولا المعتصم من عموريه ، أملاً للقابو مهابة ، ولا للعيون بهاء ، من رؤية جلالة السلطان في موكبه يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ، ترد العساكر رجالاً وفرساناً من أطراف الأستانة إلى « بشكطاش » عشرة آلاف أو يزيدون ، فينتظرون في طريق السرايا السلطانية صدور الإرادة السنية بتعيين المسجد ، وهي طريقة جارية إلى اليوم ، وإن كان المسجد الحميدي قد اختص بصلاة جلالة دون سواه ، فإذا صدرت الإرادة اجتمعت العساكر في ساحة المسجد أمام باب السراي ، واصطففت صفوفاً مضاعفة

بعضها وراء بعض ، وفي هذه الأثناء تتسابق مركبات المشيرين ، والوزراء والمشايخ ، والأجانب من السفراء وغيرهم فيجلس السفراء ومن كان معهم من عليّة القوم الوافدين على الأستانة في قاعة « الجيب الهيونى » انطلة على تلك الساحة ، التي لا يسمع السامع فيها قيلا ولا صهيلا إلا صليل الأسياف ، وترديد الأنفاس ، هيبة وإجلال ، وانتظاراً واستقبالا لإشراق نور الحضرة السلطانية فإذا حان وقت الصلاة أشرفت المركبة السلطانية المذهبة كالشمس ضياء ، من مطلع السراى التي تحمل الإمام نائب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجلس أمامه الغازى عثمان (باشا) والمشيرون ، وكبار رجال الدين حافون من حول المركبة مشاة خشع الأبصار ، ترهقهم ذلة من جلال تلك العظمة الإمامية ، وهم في غير هذه الساعة أكاسرة الزمان ، وقياصرة الرومان كبراً وجبروتاً ، كلهم في أمواج الملابس الذهبية يسبحون ، وعلى صدورهم نياشين الجواهر تخطف الأبصار وتأخذ بالآلباب إلخ » (١) .

وشامت الأقدار أن يقيم إبراهيم في الأستانة عشر سنوات ، شق على جواسيس تركيا في أثنائها أن يصفوا له العيش ، وأن يظل صديقاً للسلطان ، أثيراً عنده ولو في انظاره ، وترصد هؤلاء الجواسيس لإبراهيم حتى علموا أنه يكتب جريدة « المقطم » في مصر بين حين وآخر ، وأن موضوع المقالات التي يكتبها في الجرائد المصرية نقد لاذع لسياسة « الباب العالي » وتعريض ظاهر بها وأبلغوا ذلك كاه مسامع السلطان ، فبعث إلى الشرطة لتقوم بتحقيق الأمر ، واستطاع ناظر الضبطية أن يلقى القبض على إبراهيم ، وتصادف أن كان بيده في هذه اللحظة مسودة مقالة من هذه المقالات التي ينتقد فيها السلطان فأسقط في يده ، ونظر من نافذة الحجرة التي ألقى عليه القبض بها ، فرأى ديكا خارج النافذة فأسعفته بديهته إذ ذاك بجيلة

(١) انظر جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر الجزء الثاني

تخلص بها من المقال الذي بيده ، وذلك أنه أخذ يمزق الورق التي كتب بها المقال قطبا قطبا ، وأخذ يلوك كل قطعة منها بلسانه لوكا شديداً حتى يجعل منها شبه الحبة التي يلقى بها إلى الديك فيلتقطها قطعة قطعة ، حتى آتى على نهايتها . والعجيب أن هذه الحيلة التي نجح بها إبراهيم جازت على رجال التحقيق ، واقتنع هؤلاء ببراءته ، وبلغ ذلك سمع السلطان فأظهر الرضا على إبراهيم من جديد ، وأنعم عليه يومئذ بالرتبة الأولى من الصنف الثاني وصاحبها يلقب « بسعادتاو افندم » ، وهي توازي رتبة الميريهيران الملكية التي يلقب صاحبها بلقب باشا . وهكذا كان إبراهيم يخدع السلطان عن نفسه طول هذه المدة ، ولكن السلطان فيما يظهر كان لا يرى بأساً في هذا الخداع وكان السياسة أملت عليه ذلك . وحدث أن آتى الخديو «عباس الثاني» إلى الأستانة لزيارة السلطان لمرض الشكر والعبودية على أعتاب الخلافة السنية ، وأحب إبراهيم وهو الصديق القديم للأسرة الداوية أن يزور هذا القادم من رجالها إلى الأستانة وهو الخديو عباس ، ولكن حيل بينه وبين هذه الزيارة التي كان يترقبها ، فقد أبى بعض الكبراء من حاشية عباس أن يصاروا بينه وبين إبراهيم . وهو الرجل الذي تجرى في عروقه محبة للبيت العاوي ، وهي محبة قديمة ورثها عن آبائه وأجداده منذ تولى محمد على الكبير عرش مصر . واشتد غضب إبراهيم لهذه الحادثة ، وكاد يتهيز من الغيظ ، وفكر من لحظته في حيلة عجيبة يفسد بها على القوم أمرهم ، ويمرهم بها ثمرة الجحيم ، إلى الأستانة والتشرف بلقاء السلطان بها ، فأمسك بالقلم وخط مقالا زوره تزويراً على لسان حاشية الخديو «عباس الثاني» وبعث به إلى جريدة المقطم في مصر ، وعمد «إبراهيم» في مقاله هذا إلى أن يصور معية عباس بصورة الناقلين على الحالة في مصر ، والفرعين إلى السلطان أن يتخذ مصر والإسلام من برائن الاستعمار ، وجاء في هذه الرسالة المختلفة قوله :

هذه مصر أيد الله بك مقام الخلافة، وثبت بك أركان السلطنة ، ونسرك

النصر الوشيك ، فريدة التاج العثماني والقسم الأكبر من السلطنة السنية ،
واطريق الأعظم إلى الحرمين الشريفين ، قد أصبحت تمد يد الفزع الصارخ
إلى عظمتك ، وتنظر كالمغشى عليها من الموت إلى حياتها في يدك الكريمة ،
فامن عليها بالحياة يا أمير المؤمنين ، وخلصها من تجاسر على حوزة الإسلام
بلا حجة ولا قوة ، وفي يد جلالتك الحجة والقوة ، وهذه أرواحنا رهينة
ثلاثة أحرف من عظمتك ، فرثا بما تريد لنخلص الإسلام المتخبط في
تلك الأشراك ، وقد بقينا يا أمير المؤمنين سنين عدة معلقين لا ندرى
أنحن تحت حكم الخلافة والسلطنة السنية فطمئن قلوبنا ، أم تحت حكم هذا
الذي دخل في يوم على وعد أن يخرج في غده فبقى إلى الآن تحضن آياته
على مساجد المسلمين في بلد هي عش الأولياء ، ومرقد آل البيت النبوي ،
ومجد جدك السلطان سليم خان ... الخ .

فالآن وقد وفدنا على دار الخلافة مع سمو وكيلك المطبوع على محبة
جلالتك ، المفتخر بنظرات الرضى عليه من الطاف عظمتك ، الواقف موقف
السمع والطاعة لأوامرك ، راجين من السدة السنية إجراء الوسائل الفعالة
لإخراج هذا الداخل على وطننا ، وإبعاده عن الأراضى المقدسة التي
يبدأون على التدخل فيها فإنهم إذا استمروا — لا قدر الله — في البقاء
بمصر سهل عليهم الدخول فيها وفي غيرها لطبيعة الموقع . ونسأل الله أن
يزيد جلاله مولانا الخليفة الأعظم وينصره على الباغين (١) .

كان من نتيجة هذه المقالة السديدة أن ثارت تائرة الحكومة الإنجليزية، وذهب
سفيرها في تركيا لمقابلة السلطان ، وسأله بم جاب معية الخديوي عباس ؟
وكادت العلاقات السياسية تتوتر بين البلدين ، لولا أن فكر السلطان يرمث
في عمل يثبت به لا إنجلترا أنه لا يوافق على شيء مما جاء في المقال ، وكان من
نتيجة هذا العمل أن امتنع السلطان عن جميع الإنعامات التي كان ينوي منحها

(١) راجع المصدر السابق ص ٦٦٠ من مجلة الرسالة العدد ٢٥٠

حاشية الخديوى عباس ، وذلك فى الحفل الذى أقامه لاستقبال « الخديوى عباس فى قصر يلندز. وهكذا نجح إبراهيم بهذه الحيلة - وإن كانت سيئة - فى أن ينتقم لنفسه انتقاماً سريعاً من حاشية الخديو . بل هكذا كان من أخلاق المويلحى المهارة فى تدبير المسكائد ، والحنق فى حبك المؤامرات . والأخبار الدالة على هذا كثيرة . وكلها ناطقة بذكاء الرجل وحرصه على الانتقام ، وإن القارىء لمذكرات أحمد شفيق (باشا) ليقع فى ثناياها على شتى من هذه الملاحظات . كتب شفيق (باشا) يقول : قد كان الخديو (يريد « عباس الثانى ») مستاء من دسائس إبراهيم (بك) المويلحى ومن تقاريره التى كان يرسلها «للهايين» ، وكنت قد أشرت على سموه أن الطريقة الوحيدة لراحته أن يقترح سموه عليه اصطحابه مع حاشيته ، وعمل اللازم عند الوصول إلى الأستانة لإبقائه بها ، وعندما أراد الخديو الرجوع إلى مصر ذكرت تحسين (بك) بحجز المويلحى ، فرد على بأن السلطان إن رأى حجزه وهو قد حضر فى كنف الخديو يكون مدعاة للنقد ولا يليق بمقام سموه ، ولذا ترك ليعود مع جنابه .

لسنا نريد بذكر هذه الصفة أو غيرها من صفات المويلحى أن نشوه سمعته ، أو ننقص من قيمته ، وإنما المؤرخ الأدبى يحرص على تصوير الكاتب أو الناصر لا كما تفعل آلة التصوير الشمسى ، ولكن كما تفعل الأشعة السينية حين تنفذ إلى العظام والأعصاب وتخترق الشرايين والأوردة ، وغرض المؤرخ فى ذلك هو لإحداث الصلة بين الأديب وبين ما يصدر عنه من أدب . ولم أذهب بعيداً فى هذا الموضوع ؟ ألم يكن ابن خلدون على شهرته من أمهر رجال التاريخ الإسلامى فى الدسائس والمسكائد ، ألم يكن يتحدث من أسرة معروفة فى التاريخ بهذه الأوصاف ؟ بل ، ومن أجل ذلك استطاع ابن خلدون أن يفلسف التاريخ الإسلامى ، وأن يكتب وهو رجل لم يقرأ كثيراً فى كتب الفلسفة كتابه « المقدمة » وهو الكتاب الذى طغت شهرته على الكتب التاريخية التى كتبها .

المؤلف يعود إلى مصر:

ولم يجد إبراهيم بعد ذلك بدأ من العودة إلى وطنه مصر ، والنجاة بنفسه من هذا الجو الخائف في تركيا ، فوصل إلى مصر في غضون عام ١٨٩٥ م واستراح الرجل في بلده من وطأة الجواسيس الذين أحاطوا به في الأستانة، واستنشق في مصر نسيم البساطة التي كان محروما منها طول إقامته بالقرب من « الباب العالي » ثم أخذ ينشر بين الحين والحين مقالاته الانقادية التي كتبها على صفحات المقطم ، ووصف فيها حياة القصور السلطانية بالأستانة، وكشف اقناع عن الدور الخطير الذي تلعبه الجاسوسة داخل هذه القصور، وكان إبراهيم لا يحسر على إمضاء هذه المقالات باسمه الصريح ، وإنما كان يوقع تحت هذه المقالات باسم أحد الفضلاء ، ثم بدا له أن يجمع هذه المقالات النقدية في كتاب جعل عنوانه « ساهنالك » ولم يجرؤ أن يجر به باسمه كترلف لهذا الكتاب ، بل قال إن مؤلفه « أديب فاضل من المصريين ، وعلم السلطان بأمر هذا الكتاب فبعث إلى سفيره في مصر بأن يجمع كل النسخ التي طبعت منه ، فأذن السفير لأمر السلطان عبد الحميد ، كما أذن له إبراهيم ، وجمع بنفسه نسخ هذا المؤلف الصغير ، وسلمها إلى السفير خلا نسخا قليلة كانت قد تسربت من قبل إلى بعض أصدقائه وسنعرض للقارئ بعض نماذج من هذا الكتاب عند الكلام عن الأساوب الصحفي لمؤلفه .

وكان إبراهيم صحفياً بطبيعته ، لا يستطيع أن يحبس قلبه عن الكتابة ولا يقوى على العيش بعيداً عن الصحافة ، من أجل ذلك فكر سنة ١٨٩٨ في إنشاء جريدة أسبوعية أدبية سياسية سماها « مصباح الشرق » وسيعرف القارئ أن هذه الجريدة الأخيرة كانت تنشر فيها بعض الفصول الأدبية التي أغوت كثيراً من القراء ، فكافوا ينتظرون صدورها بفارغ الصبر ، وكانت تنفذ جميع أعدادها يوم إصدارها ، بحيث يشق على الناس العثور

على نسخة منها في اليوم الثاني ، وظل إبراهيم يصدر هذه الجريدة حتى وقف
عن إصدارها فجأة سنة ١٩٠٣ .

وإلى إبراهيم المويلحي كذلك تنسب جريدة أخرى اسمها (المنشكاة)
كان يصدرها بأسم ابنه السيد خليل (بك) المويلحي وصديقه حمدي (بك)
يكن ، إلا أنه لم يصدر من هذه الجريدة غير أربعة أعداد فقط ، احتجبت
بعدها سنة ١٩٠٥ عن أنظار الجمهور .

أهمون المويلحي :

ومهما يكن من شيء فكل من يقرأ سيرة هذا الرجل يستطيع أن يستخلص
منه صورة لخلقه وأخرى لعقله . ولقد يكفيناهنا أن نمنع أيدينا على الخطوط
العامة لهاتين الصورتين ، ولا نريد من ذلك إلا ما يريده الناقد الأدبي حين
يتعرض لشخصية شاعر أو كاتب خطيب ، فيحطل ما أمكنه هذه الشخصية
إلى عناصرها ويقربها إلى أذهان الجمهور .

وأول ما يلفت نظر القارئ لسيرة المويلحي أنه كان رجلاً كثير القلب
إذ كان نهياً لمشاعره ، وكان يصدر في حياته دائماً عن عاطفته أكثر مما يصدر
عن عقله وتفكيره ، يحب فيبلغ من الحب أقصاه ، ويبغض فيبلغ من البغض
أقصاه ، ويمكر فوق ذلك بالرجال ، ويكيد لهم فيبلغ من المكر أو الكيد
أقصاه ، وربما كان لا يفهم من كلمة السياسة والدهاء غير هذا المعنى ،
ولا شك أن هذا الخلق كان خير عون للمويلحي على أن يكون أديباً سياسياً .
ذلك أن الأديب رجل يستجيب لعواطفه أولاً ، وأما الفيلسوف فرجل
يستجيب لعقله أولاً ، وما كان المويلحي فيلسوفاً . ولكنه كان أديباً
لا أكثر ولا أقل .

وكان إبراهيم رجلاً كثير القلب ، ومن يدرى لعل لهذا الخلق بعض
العصاة تهافت المويلحي على المضاربات المالية : يربح فيها حيناً ويخسر فيها

أحياناً، حتى أجهزت هذه المضاربات على ثروته و ثروة أسرته ، ومن المحقق أن كان لهذا الخلق أثره كذلك في حياة إبراهيم الصحفية ، فقد رأينا أنه لا يسكاد ينشئ صحيفة من الصحف الهامة حتى يعطلها بعد إصدارها العدد الثاني أو الثالث أو الرابع منها ، ثم يترك العمل بهذه الصحيفة مختاراً لا يجبراً على تركها بأمر من أوامر الحكومة ، وسنرى أن الفرق عظيم جداً من هذه الناحية بين رجل كالمويلحي ورجل كالشيخ علي يوسف .

وانظر إلى جورجى زيدان يصف هذه الناحية من أخلاق المويلحي بقوله « فترى المترجم رحمه الله قد تقلب في أعمال مختلفة ، بين تجارة وخدمة في الحكومة ، وإنشاء المطابع والجرائد ، ونشر الكتب وغيرها وهو دون الثلاثين من العمر ، ولم ينل كل مرامه من واحد منها مع اقتداره وذكائه ، ولعل السبب في ذلك لجأته في استثمار عمله قبل أن ينضج ، وعدم ثباته في خطة واحدة ، لأنه لو ثبت في التجارة مثلاً ولم يرغب عنها في خدمة الحكومة لكانت تجارته من أوسع التجارات ، ولو ثبت في الخدمة ولم يعدل عنها إلى الصحافة والطباعة لكان من أكبر أصحاب المناصب ، ولو ثبت في الصحافة إلى الآن لكانت صحيفته من أكبر الصحف وأهمها ، ولكنه لم يستقر على حال ، والأذكاء الذين لا يثبتون على حال ولا في عمل إنما يكون سبب تقلبهم الرغبة في النجاح السريع ، يريدون الطلوع إلى الأوج دفعة واحدة ، فإذا استبطأوا الوصول إلى قمة النجاح في عمل تركوه وانتقلوا إلى سواه ، فأول ذلك في الأكثر إلى ضياع العمر في بناء القصور بالهوام ، ولو ثبتوا في عمل واحد مهما يكن نوعه لكفاهم مؤنة الشكوى من معاكسات الزمان (١) .. الخ .

على أن «إبراهيم المويلحي» على تقلب من أجله وثباته كان ذا عزيمة قوية لا يجول بخاطره رأى إلا لحن به التنفيذ على الفور ، وليست حياة المويلحي

(١) انظر جورجى زيدان : تراجم مشاهير العراق في القرن التاسع عشر الجزء الثاني

الطبعة الثالثة ص ١٠١ .

في الواقع غير سلسلة من هذه الخواطر التي ترد إلى ذهنه وتنتقل بسرعة البرق إلى حين الفعل . وقد أورد صاحب الصاعقة من أمثلة هذه العزيمة الصادقة كثيراً مما يتصل بعلاقة إبراهيم المويلحي بإسماعيل ، وما يتصل بالحلول التي كان يقترحها ليخرج بها إسماعيل من مأزق مالي أو سياسي .

في الرجل بعد هذا كله ميل إلى ضرب من الاعتزاز بالنفس ، ربما كان ضرباً من الكبر والاستعلاء ، وربما كان ضرباً من سرعة الغضب ووحدة المزاج ، وربما كان ضرباً من الانتقام ، وربما كان ضرباً من الفكاهة المريرة والسخرية الغليظة ، وربما كان مزاجاً من جميع هذه الأشياء ، فما روى من ملحه في شبابه « لآته مر وهو راكب حماره على حسن (بك) مذكور وكان في ذلك الوقت الشيخ حسن وسحاتوته في الحزاوى ، فسلم عليه فلم يقم له ، فغضى في حاجته ، ثم عاد بعد قليل ونادى عليه . فلما جاء طلب إليه أن يريه ما عنده من فناجيل القهوة ، فأتى له بما أراد فصار يقلبها في يده ، وسأله عن ثمن كل صنف إلى أن سأله عن نوع منها فقال له بقرش فرمى به في الأرض فكسر وأخرج من كيسه القرش وأعطاه إياه ثم قال : « إن الذي يقيمه قرش ويقعده قرش لا يجوز له أن يتعالى على الناس فأخبطه ومضى (١) » .

ومما حكاه السيد رشيد رضا من فكاهات المويلحي ما قد يكشف لنا عن طويته قوله (٢) وكان إبراهيم (بك) المويلحي يغيظه من محمد عبده أن يقول في مقالاته المؤنقة « مش بطال » فضرب له المويلحي مثلاً ينم عن غيظه منه قال « لو أن رب العالمين جلس على عرشه يوم القيامة تحف به الملائكة المقربون وعن يمين عرشه الأنبياء المرسلون ومن روائهم جميع البشر ، ويلهم جميع أنواع المخلوقات من الجن والشياطين والبهائم والوحش والطيور ثم قيل للشيخ عبده ما تقول في هذا المنظر لما زاد على قوله « مش بطال » .

(١) جريدة الصاعقة عدد ٥٢ بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩١٦ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ص ٦٩٤ .

والخلاصة أن إبراهيم المويلحي كان رجلاً عصامياً في الأدب ، لم يتخرج من مدرسة ولا من جامعة ، ولا عرف أنه حضر بانتظام على مجموعة من كبار الأساتذة ، وذلك بالطبع فيما خلا العطار الذي أخذ عنه شيئاً من العلم الأزهرى في أثناء الطفولة، وفيما خلا الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى لا بد أن يفترض أن المويلحي حضر عليه بعض الدروس في أثناء الشباب وبعض الكهولة ، وذلك من حيث تكوينه الأدبى والعقلى ، وأما من حيث أخلاقه الشخصية فقد رأيت أن إبراهيم كان رجلاً ذا دعا بقرينة تظهر من ثنايا أحاديثه، ودعابة غليظة تظهر من بعض تصرفاته ومعاملاته ، وكان رجلاً يحب الانتقام، قوى العزيمة حاد المزاج، حاد الذكاء ، واسع الحيلة سريع البديهة، يكاد يسبق ذهنه إلى النتيجة عند بدء المقدمة على حد تعبيره هو في وصف أخلاق المصريين. ثم أن المويلحي كان كما رأينا نهازاً للفرص ، يعرف كيف ينتفع من كل فرصة تمر به ، ويعرف كيف يخرج من كل مأزق يوضع فيه ، ومعنى ذلك أن إبراهيم كان تاجراً في أخلاقه بكل ما تنسع له هذه الكلمة من معنى .

وما كان أشد ما يجب إبراهيم المال ويسعى للحصول عليه ما وسعته الحيل في ذلك ، أحصى الكونت « غيليب طرازى » الجرائد التى تنسب إلى المويلحي وذكر منها جريدة الخلافة فقال أنها صحيفة سياسية أسبوعية دينية صدرت سنة ١٨٧٩ باللغتين العربية والتركية في مدينة « نابلي » ، وقد نشرها إبراهيم (بك) المويلحي لما سافر بصفته كاتباً لإسماعيل (باشا) بعد خلعهم من سرير الخديوية المصرية ، وكان المويلحي يذيع على صفحات الجريدة أن مقام الخلافة عند المسلمين يتسلسل من أصل عربى ، وأنه انتقل بلا حق إلى آل عثمان سلاطين الأتراك ، وكان يقول أن خديوى مصر أولى من سواه بهذه الكرامة الدينية ، لأن مصر كانت مقراً للخلفاء في سائر الزمان ، فاضطرب السلطان عبد الحميد لذلك وخاف من امتداد هذه الفكرة بين الأمة العربية الإسلامية التى يتألف منها القسم الأكبر من سكان السلطنة العثمانية . فأوعز إلى سفيره

في باريس أن يسعى في تعطيل الجريدة المذكورة بالوسائل الفعالة قبل أن تنشر خبرها بين المسلمين، واتفق أن الدكتور لويس صابونجي، كان موجوداً حينئذ في عاصمة الفرنسيين، فأشار على السفير العثماني بأن أفضل وسيلة لبلوغ الغاية المقصودة هي لإغراء المويلحي بالمال فتتبع السفير نصيحته وتوقف المويلحي عن نشر جريدته بعد صدور العدد الأول والثاني (١). وهكذا كان المويلحي يقف حيناً في صف الخديو، وحيناً في صف الباب العالي، مرة يناصر صديقه عباساً وأخرى يعمد إلى الدس عليه لدى السلطان، وهو في أكثر هذه المرات مشغول بالمال وحده قبل كل شيء.

المويلحي ومحمد عبده :

ويحدثنا تاريخ الأستاذ الإمام لمؤلفه الشيخ رشيد رضا أن الخديو عباس احتاج إلى قلم المويلحي في محاربة الشيخ محمد عبده، وانهز لذلك فرصة الفتوى الترنسفالية (٢) فرد الشيخ رشيد رضا على هجمات المهاجمين للشيخ محمد عبده بقوله :

هي الترنسفالية التي هاجمتها السياسة الخديوية بأقلام كتابها الماجورين وشيوخها المداهنين، فانكسرت دولة المال والرتب والتياشين، وغازت دولة العلم والدين، وكان انتصر لكتابها المخلصين . وقد تقدم ذكر هذه المسألة وما قاله لي الشيخ محمد توفيق البكري من أعداد سمو الخديو لحملة من فرسان الكتاب للهجوم على المفتي — يريد محمد عبده — في تنفيذ هذه الفتوى، واحتقاري لهذا التنفيذ، ولم يلبث أن ظهر نسخة قوله وصدق قولي، واحتقاره لهؤلاء الكتاب وكونهم لا يقيم لهم وزن في هذا الموضوع، فقد كتبوا وكتبنا فكنا نحن الغالبين في العلم، وكانوا هم الراجحين في الجهل حتى أن إبراهيم (بك) المويلحي لم يجد ما يرد به على صاحب المنار إلا مثل

(١) ليايب طرازي : تاريخ الصحافة العربية الجزء الثاني ص ٢٦٤ وما بعدها .

(٢) أتى الشيخ محمد عبده بتحليل لحم الميوان الذي يذبحه الترنسفالون ضرباً بالإساءة وقال أعداؤه بل حرام لأنه هو المولودة التي نهى عن أكلها القرآن ، وأحدثت هذه الفتوى ضجة فظيمة في مصر .

ما كتبه في تهيج العامة عليه في حكايته بقول المفسرين في قوله تعالى
« ساريم دار الفاسقين » .

إنها مصر في عهد موسى وأمثاله (١) .

وبما حكاه السيد رشيد رضا من فكاهات المويلحي كذلك، قوله : « وكان
إبراهيم (بك) المويلحي يعيظه من محمد عبده أن يقول في مقالاته المؤثقة
« مش بطلال » فضرب المويلحي مثلاً يرم عن غيظه منه قال :

« يقول السكاتب ، أن الشيخ وضيع الأصل وأن أباه كان صغيراً في
إحدى القرى وأن الشيخ كان غلاماً فقيراً ، لا يملك فقيراً ، وكان يقتات في
الأزهر بقشر الفول والبطيخ ، ويلبس التميميص على اللحم ، وبيت وسط
المجاورين في الصحن ، ثم هو ينتحل الآن لنفسه محتداً نيلاً ، وبيتاً كبيراً ،
ويستز ذلك الأصل المنحط ، والفقر المدقع ، بتغاليه في تعاليه ، وتطاوله
وتباهيه ، وتعاليه عن أصله وتناسيه ، وتباهيه في زهوه وتقائه ، وتصغير
خده للناس وتجافيه ، وتصغير كل ما يراه كبيراً ، وبتحقير كل ما يراه عظيماً :
فلو رأى العرش وحملته ، ورب العزة والملكوت ، وإله الجبروت
والرحموت ، والملائكة وصفوفهم ، والأنبياء ووقوفهم ، والجن وخشوعهم
والجبابرة وخضوعهم ، والمصطفى ولواء الحق في يده ، والشفاعة من بعض
مدده ، والجنة وقصورها ، وولداتها وحورها ، وأزهارها وأثمارها ، وأشجارها
وأطيبارها ، والجحيم وشواظها ، والأمم واطعائها ، والصراط والميزان ،
والشمس والقمر يسجدان ، وسأله سائل عما رأى ، لقال ، وهو مصغر الخد
زهوا ، ومتفكك الأعضاء منها : « مش بطلال » ،

عام الكف أو صفح من الأوردب السافر في مصر :

كانت بين المويلحي وعلي يوسف ملاحاة ومهاترات ، لا تدرى لها سبباً

(١) محمد رشيد رضا -- تاريخ الأستاذ الإمام ص ٦٦٧ .

غير المناسبة الصحفية بينهما ، وحدث أن التقى محمد المويلحي نجل إبراهيم
بصرى من سراة مصر سنة ١٩٥٤ « محمد نشأت » وكان لقاؤهما في حانة « دركوس »
من حانات القاهرة ، وتعدى محمد المويلحي على محمد نشأت وسب أباه ، فما
كان من هذا الآخر إلا أن لطم محمداً على خده ، وذاع نبأ هذه اللطمة في
الأوساط الأدبية في مصر في ذلك الوقت ، وكان للمويلحيين أعداء كثيرون
منهم الشاعر المصري المعروف إسماعيل صبرى (باشا) ، واتخذ الكتاب
والشعراء هذه اللطمة موضوعاً لفكاهتهم وتندرهم ، وكتبوا كثيراً في ذلك .

وأفسحت المؤيد صدرها لهذه الكلمات وسمى هذا العام الذى نشر فيه
هذا الأدب الهجائى وهو عام ١٩٠٢ باسم عام الكف .

واتقم المويلحي بعد ذلك من صاحب المؤيد في حادث زواجه بالسيدة
صفية السادات وقضية الكفاءة التى رفعت عليه سنة ١٩٠٤ ونشر في صحيفة
« مصباح الشرق » كثيراً من الأدب الساخر بهذه المناسبة واتخذ المويلحي
لهذا الأدب الساخر عنوان « عامل كفاء » والجناس واضح بين هذا
العنوان وقول جريدة المؤيد عام الكف ، والمقابلة أو الطباق واضحتان
كذلك بينهما .

وقد نظم الشاعر إسماعيل صبرى فى هذا الموضوع اثنتى عشرة
مقطوعة (١) .

من الأولى :

إذا فتح العداة عليك حرباً وخفت بوادر المتنجزينا
فقل وارفع عقيرة من ينادى فلا تجمد المؤزر والمعينا
أعرفنى يا ابن إبراهيم صدغاً أخوض به غمار الصافيينا
فإن هو قد أعارك ما ترجى رأيتهمسو أمامك هاريننا

(١) انظر ديوان إسماعيل صبرى - نشر أحمد الزين من ٩٤ ١٠٠ .

ومن الثانية : تحت عنوان الأسلحة الجديدة :

قلت لتجسل الصافعين احترز
ولا تمازح إن رأيت ابنه
فقال لي إن كان كفى معي
ومن الثالثة :

يا صريع الأكف صدغك أمسى
أنت في الحان أمان وسلم
ومن الرابعة :

فقال محمد نعم السلاح
وصدغك أن تهر الناقرون
والخامسة بعنوان النصيحة :

يا ابن الألى رسخت أحلامهم وورست
لا تدخل الحان والصناع نائرة
وقل لصدغك يستقبل وفودهمو
والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة :

نشرت كلها بعنوان « المناجاة » وهي محاوراة بين إبراهيم المويلحي
وابنه محمد .

« الأب » :

لي خلال مخله بالمروءات والوفاء
رب هب لي تقيض ما بان منها وما اختفى
يا عمادي وعدتي يوم لا ينفع القفا

(١) طيلسان بن حرب : يضرب به المثل في القدم والبل وسبب ذلك أن ابن الرومي كان
قد مدح ابن حرب فطلع عليه طيلسانا باليا فقال في ذلك الطيلسان شعراً :
يا ابن حرب كدوتني طيلسانا ربي من سجة الزمان وصدى
طال ترداده إلى الرفو حتى لو بشنشاء وحده لتهدي
(٢) يشير إلى أنه وصدغه في غفل عن صاحبه .

« الابن » :

إلهى إني من ذنوبي تائب
فلا تجعل اللهم صدغى صحيفتى
ومن فعلى المقنوت يارب خائف
إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
« الأب » :

هنا وهناك لى أثر حميد
نهشت الناس أعراضاً ومالا
يشرفىنى إذا أنا ما انعمت
ونلت من البرية ما اشتبهت
فما خفت الهوان وما ارغويت
وأهجرها وفي المصباح زيت ؟
وكم صفع الجريم أديم وجهى
أترك لذة الفن اعتباراً
« الابن » :

أنا فرع الألى رفعوا بناء
أريش يراعى بمداد خبث
يرى للنسر فوق ذراه بيت
وأنتى لاح لى هدف رميت
وإن أحد تعرض لى بسوء
وقفت وراء صدغى واختفيت
والعاشر على لسان المويلحى مفتخراً :

أنا والله أصلح للخازى
أمكن صافعى من لطم خدى
وأفعل فعلتى وأتبه تها
وأعطى ذمى من يشترها
والحادية عشرة والثانية عشرة بعنوان استرحام :

الأولى - على لسان المويلحى يسترحم صاحب المؤيد عما ينشره
فى جريدته :

أيها المولى الذى عودنا
إن شهر الصوم قد حل ففز
قد كفانى كل ما قد حل بى
حكمة الرفق بحال البائسين
فيه بالأجر وشكر الشاكرين
فاعف عنى يا أبر القادرين
والأخيرة على لسان صاحب المؤيد يجيبه :

ابن إبراهيم طب ، إنا وأن
لكرام إن غضبنا ردا
قد أذقناك جزاء الظالمين
عن أذى مثلك طبع الكاظمين

إن هذا الشهر شهر يجتئى فيه أمثالك صفح الصالحين
قد محونا آية الكف وها نحن نتلو اليوم آى الراحين
فالزم العرف تعش في ظلمنا في عداد السكاتبين المكرمين
واكتب الخير وقله ترضنا واستقم ترضى إله العالمين

وعندنا أن هذا الشعر أثر من آثار البيئة لمصرية والمزاج المصرى . ونحن نعرف أن المصريين يميلون بطبيعتهم إلى الفكاهة والمزاح . وقد يشغل المزاح عندهم إلى حد التعريض والسخرية الغليظة والإسحاك المرير . ولا حيلة للمصريين في ذلك فهكذا نظروا منذ القدم . وهكذا جبوا على تلك الفنون المختلفة من اللذع ومن السخر ، وما زلنا إلى اليوم نرى أمثلة شتى من الأدب الساخر . وفي ظنى أن الأدب المصرى لن يخلو يوماً ما من هذا الغرض .

على أن نقمة الناس في مصر من المويلحى ربما كان سببها الأول اشتغاله بالصحافة عامة وبفن « الكاريكاتور » في هذه الصحافة خاصة .

ونحن وإن كنا لم نعثر إلى اليوم على أمثلة من هذا « الكاريكاتور » فإننا نعتقد بوجوده موفوراً في « مصباح الشرق » كما حدثنا بذلك أنشيد عبد العزيز البشرى وكما أشار إلى ذلك إسماعيل صبرى وقد سمعته يقول :

أترك لنة الفن اعتباراً وأجرها وفي المصباح زيت

في هذا البيت الأخير تورية مصرية لا تخفى على القارىء ، فلفظ المصباح يحتمل هنا معنيين : معنى المصباح العادى وهو غير المقصود ، ومعنى مصباح الشرق وهو عين المقصود .

منهج المويلحى في الإصلاح :

كان المويلحى من رجال الإصلاح . ولكن ما هى خطته المرسومة لهذا الإصلاح ؟ ربما اتضحت هذه الخطة من الكلام عن صحفه وعن الأفكار التى تناولها في هذه الصحف ، والمنهج الذى وضعه لها .

غير أننا نستطيع أن نقول هنا باختصار أن إبراهيم المويلحي كان يصدر في كتاباته في الكثير الأغلب عن فكرة خاصة وفكرة عامة . أما الفكرة الخاصة فمدارها مصر ، وغايتها الدفاع عنها وعن ولايتها من رجال البيت العلوي ضد الاحتلال الأجنبي ، والذي لا ريب فيه أن إبراهيم كان من أشد الكتاب بغضاً للمستعمرين ، ومن أشدهم في الوقت نفسه حباً وإخلاصاً لإسماعيل وأبناء إسماعيل .

وما كان ضيق عباس بالمويلحي إلا عن وشاية كان سعى بها أعداؤه عند الخديو ، وكان المويلحي يقابل المكر والديسة بأقوى منها . ولولا غرام المويلحي بهذه الدسائس لكان رجلاً محبوباً من الجميع .

وأما الفكرة العامة فمدارها الشرق وغايتها الدفاع عن الإسلام ، ومن ثم كان إبراهيم داعية عظيماً لما نسميه بالجامعة الإسلامية تحت الراية العثمانية . والمويلحي في هذه الفكرة الأخيرة قطعة من العصر الذي عاش فيه وتليذ مخلص لأستاذيه الكبارين : السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده وإن سلك طريقاً غير طريقهما ، وسبح في واد غير واديهما كما ستري مصداق ذلك فيما كتبه المويلحي في كتابه المشهور باسم « ما هنالك » .

تحدث الأستاذ تشارلز آدمس في كتابه « الإسلام والتجديد في مصر » عن تلاميذ محمد عبده فقسمهم شعبتين : شعبة الأزهريين وشعبة الحكوميين . ونظر إلى إبراهيم المويلحي على أنه من تلاميذ الشعبة الأخيرة ، عن اتصالوا بالأزهر الشريف ، ومع ذلك جذبتهم ثقافة الأوربية ، وجعلتهم أهلاً للمناصب الحكومية . ونظر تشارلز آدمس إلى المويلحي كذلك على أنه من شيوخ المحافظين ، أشار إلى الخلاف الذي وقع بينه وبين محمد عبده في فتوى الترنسفال المشهورة^(١) وهو الخلاف الذي خرج بعده المويلحي على الشيخ محمد عبده ، وأدخل السرور بذلك على قلب الخديو عباس الذي أسرع

(١) سبق شرحنا هذه الفتوى .

فضم المويلحي إلى جانبه ، وحارب به عدوه الألد الشيخ محمد عبده (١) .
والأستاذ آدمس رأيه الخاص في المويلحي ، أما نحن فقد رأينا فيه تليذاً
من تلاميذ الإمام ، وسلوكناه معه في عداد المجددين المعتدلين . ولم ننظر في
ذلك إلى الخصومة الشخصية بينهما .

والحق أن المويلحي كان ذاموهبة أدبية ليس إلى إنكارها من سبيل وكان
ذاموهبة صحفية لم تساعده طبيعته وأخلاقه على الانتفاع بها على الوجه
المطلوب . وعندنا أنه لو كان إبراهيم قد أعنى نفسه أو أعفته ظروفه من
حب المال ، وحب العجلة ، وحب الذات لكان لمصر كاتبها الأول ،
وصحفيها الأول ، ورائدها الحق .

وبما تقدم نعلم أن المويلحي اشترك في كتابة الصحف الآتية :

صحيفة الخلافة : أصدرها في نابولي عندما كان في صحبة إسماعيل .

وصحيفة الاتحاد : بدأها في نابولي وأصدر بعض أعدادها في جهات أخرى
من أوروبا ، وصحيفة الأنباء ، وصحيفة عين زيدة ، وقد أصدرهما في إنجلترا
واشترك يومئذ في مجلتي العروة الوثقى وضياء الخائفين بدعوة من السيد
جمال الدين الأفغاني . وتلك مجموعة الصحف التي أصدرها الرجل خارج القطر .
أما الصحف التي هيمن على إصدارها داخل البلاد فأهمها جريدة «مصباح
الشرق» ، وجريدة هزلية يقال لها «سوق العصر» وجريدة ثالثة هزلية
كذلك يقال لها ، أبو زيد ، وإليه كذلك تنسب جريدة رابعة هي جريدة
«المشكلة» التي أصدرها باسمي ولده خليل (بك) المويلحي وصديقه حمدي
(بك) يكن ، ولعلها آخر ما أخرج إبراهيم المويلحي من الصحف ، لأنها
عطلت سنة ١٩٠٥ م . ومات المويلحي الكبير نفسه في السنة التالية .

ألا ما أكثر الصحف التي اشترك فيها إبراهيم ، وما كان أهمها وأشدها
تأثيراً في الجماهير ، ولكننا للأسف حين أردنا أن ننظر بكل هذه الصحف

(١) راجع الإسلام والتجديد في مصر — ترجمة الأستاذ عباس محمود العقاد من ٢٢ قلا من

كتاب تاريخ الأستاذ الإمام للشيخ رشيد رضا الجزء الأول من ٦٦٨ .

لم يتيسر لنا انظفر بغير أعداد قليلة من صحيفة مصباح الشرق . وبمجموعة كثيرة من مقالات له نشرها في غير صحفه ، وهى المقالات التى قلنا أنه نشرها في جريدة المقطم المصرية ، ثم جمع هذه المقالات فيما بعد في كتاب سماه « ما هنالك ، على أنها » لأديب فاضل من المصريين . . وعلى ذلك فنحن مضطرون اضطراراً إلى أن ندرس إبراهيم الصحفى من خلال هذه المقالات القليلة التى أشرنا إليها ، وإن كنا نتهنى على أنفسنا وعلى الدهر أن نظفر بالصحف الأولى لإبراهيم ، حتى يتسنى لنا معرفة التطور الذى خضع له أسلوبه الصحفى إلى أن بلغ هذه المنزلة التى تمثلها لنا هذه المقالات . ومن يدري لعل من الباحثين من يحظى يوماً بهذه الصحف التى نفتقدها الآن . ولعله يومئذ أن ينجح في تصوير هذا التطور الذى كنا نرى إليه .

إبراهيم المويلحى والشعر :

ليس كثيراً فى الواقع ما عثرنا عليه من شعر هذا الرجل ، ولكنه على قلته يدل بوجه عام على مبلغ رفته ، وغزارة عاطفته ، ورقة حاشيته فى حالات الرضى .

على أن هذا الشعر الذى قرأناه للمويلحى لا يرقى فى مجموعه إلى مرتبة اشعر الذى تقرأه لبعض المجيدين الممتازين فى عصره من أمثال إسماعيل صبرى ، وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم وغيرهم . ولذلك لانستطيع أن نسلك المويلحى فى عداد الشعراء . ولكننا مطمئنون كل الاطمئنان — كما سنرى — إلى أنه كان ذا موهبة خاصة فى النثر ارتقى بها إلى درجة الزمامة الحقيقية فى هذا الفن .

ومن شعره ما هو رسمى ، ومنه ما هو إخوانى . ومن الأول قصيدته التى مدح بها الملكة فكتوريا ، ونشرتها الأهرام فى صفحتها الأولى بماء الذهب وهى قوله :

فكتوريا مالكة الممالك طاهرة الصفات كالملائك
منصورة الأعلام في المعارك عدوها وقف على المهالك
ومجدها أدناه فوق النجم

أسطوطها في البحر كالأطواد وهو يمر كالسحاب الغادي
فتصبح الجبال كالوهاد دكا من الأبراق والأرعاد
من سفن مملوءة بالرجم

وجندها في البر كالأسود وغابهم بنادق الحديد
ونصرهم في طالع السعود وهمهم حرية العبيد
وقع جبار شديد الغشم

راياتها مامن كل خائف في لجة البحر وفي التنايف
وسيفها يردع كل خائف على اختلاف الناس والطوائف
وحكمها نص القضاء الحتم

إن الغنى في مشرق ومغرب صورتها الغراء فوق الذهب
مشرقة التاج شروق الكوكب في مجلس الأعيان أو في موكب
فرسانه من الملوك النشم

الملك إن عدوه بالانسان فلنكها يعسد بالبدان
لأنه لم يجتمع في آن للفرس وايونان والرومان
والأرض لارث عادل في الحكم

ستين عاماً حكمت دولتها وشرفت بين الملا أمتها
فأقبلوا ليذكروا نعمتها ويلثموا لعزم سدتها
من عرب في ملكها أو عجم

الإنجليز بأسهم شديد وعزم ما فوقه مزيد
ورأيهم في فعلهم سديد وفضلهم على الورى مديد
وهم مثال للنهى والحزم

من كادهم فكيدته عقيم وألف شاهد له أقيم
والمخلص الود لهم حكيم ذو دربة بدهره عليم
ينال منهم ما اشتى بالسلم

قد أصبحت مصر بهم تختال في ثوب عز قبله أسمال
والناس قد أحيتهم الآمال وكلهم في رغد أمثال
من بعد ما كانوا عبيد الوهم

ما السكاتب البليغ في إنشائه والشاعر المفلق في إطرائه
والأخطب الأفوه في إلقائه والناقل المكر في أنبائه
ببالغين وصفهم في الحلم

مليكة تهنأ الدنيا بها وأمة منصوره من ربهها
موكب عيدها لفخر شعبها منتظم من شرقها لغربها
ووصف عليها ختام انظم

قيل في الباعث على نظم هذه القصيدة ، إن « عباساً الأول ، أمر شاعره
ونديمه الشيخ علي درويش بنظم قصيدة في مدح الملكة فكتوريا سنة ١٨٥١
فلما كان عهد عباس الثاني طلب هذا إلى المويلحي أن ينظم قصيدة في مدح
الملكة تكريماً لها في عيدها الذي احتفل به الانجليز في شهر يونيو
سنة ١٨٩٧ . ورفعت القصيدة إلى جلالتها في ذلك الوقت .

ويخيل إلينا أن إبراهيم كان يطمع في ذلك الحين أن يكون شاعر الأمير
لو أنه وجد السبيل مهداً أمامه لمثل ذلك . فإن له ميولاً واضحة نحو الملكية .
وله دراية دقيقة برجال البلاط ، وله مقدرة خاصة على معايشة الملوك
والسلاطين بوجه عام . وانظر إليه وهو يهنئ الخديو عباساً الثاني بقدمه
إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩٠٢ مصطنعاً في ذلك طريقة العصر في نظم
الشعر على حروف الجمل :

وإني الخديوي بحسب النيل أفراحا	واستبشر الناس لما نجمه لاحا
٦٩٧ ٦٦١ ١٥٠ ١٢١ ٢٩١	٩٦٩ ١٤٢ ٧١ ٩٨ ٤٠
سنة ١٣٢٠	سنة ١٣٢٠
وقابلوا عتبات الحمد زاهرة	فكلمتها شفاه القوم إصاحا
١٤٦ ٨٧٣ ٨٣ ٢١٨	٥٧٦ ٣٨٦ ١٧٧ ١٨١
سنة ١٣٢٠	سنة ١٣٢٠
وذهب عنا ياس كل فارعة	وعننا فضله يمنا وإصلاحا
٧٠٨ ١٢١ ٦٥ ٥٠ ٣٧٦	١٦٧ ٩٤٥ ٤٠١ ١٣٥
سنة ١٣٢٠	سنة ١٣٢٠
والمجد ينصره واقطر يشكره	والملك يذكره بالعدل إن ساحا
٨٤ ٥٥٥ ٣٤٦ ٥٣٥	١٢٧ ٩٣٥ ١٢٥ ٥١ ٧٠
سنة ١٣٢٠	سنة ١٣٢٠

على أن هذا كله شعر رسمي قلما يفصح فيه الشاعر عن عاطفة صادقة أو شعور حقيقي . ولإبراهيم المويلحي شعر من فوع آخر ، هذا هو الشعر الإخرواني الذي يعبر فيه الشاعر عن محبته لأصدقائه وتشوقه إليهم . ومن هذا الأخير تصيدته أنني تشوق فيها إلى صديقه الشيخ محمد عبده ، وكان بالشام وإلى صديقه الشيخ بيرم اتونسي وكان بتونس ، قال :

سقى الله أرض الشام الدنيا	وأخضل قيعانها وانربي
رياض كأن نجوم السماء	خيال لأزهارها في السما
وماء على جانيه الزهور	كسيف على صفحته الدما
وأقداح نخر عليها الحباب	كورد يرف عليه الندى
وساق يمس بكاساته	كورد على خصنه قد زها
وشمس عليها الغمام الرقيق	كديتار تبر علاه الصدا
إلى الله أشكو جوى فرقة	أجدت هموما وهاجت أسي
خليل بلبنان أمسى وخل	بتونس ألقته أيدي النوى

يشقان قلبي شق النواة فشق لهذا وشق لذا
فظوراً أهيم بريح الجنوب وطوراً أهيم بريح الصبا
حلت أخت الفضل أرض الشام فحل السناء بها والمنها
وخلت مصر غفيتها كثل مطلقة عن قلى
فللوجد حر بأحشائها شديد الضرام شديد اللظى
وقد كنت في مصر ريحانة فحيت بها مصر ذاك الحمى
وغبت فلم تغن عنك رجال كثير العديد رزين الحصى
كذلك لم تغن زهر النجوم إذا غاب عنهن بدر الدجى

والقصيدة الأخيرة ذات معان وأخيلة جميلة خلا ذلك البيت الذى شبه فيه الماء على جانبيه الزهور بالسيف على صفحته الدماء .

وكنا نرد لو ظفرتنا بطائفة صالحه من مثل هذا شعر . وإذن لأنصفنا هذا الأديب الكبير فى ميدان انظم كما نجتهد الآن فى إنصافه فى ميدان النشر . ولكن الرجل لم يقم به أحد ولم يجمع آثاره أهد . ومن ثم فنحن معذرون فى الوقوف به إلى هذا الحد .

وفاة المولى :

ومات إبراهيم المولى سنة ١٩٠٦ على أثر علة انتابته ولازمته سنة كاملة . ويقول جورجى زيدان فى وصف إبراهيم المولى :
كان ربع القامة ممتلئ الجسم حسن الملامح ، كما ترى رسمه فى هذه الترجمة وكان حلو الحديث ، لطيف النادرة ، سريع الخاطر حسن الأسلوب ، تابعه فى الإنشاء والصحافة ، وفى الطبقة الأولى من كتاب السياسة رشاقة ومناة أسلوب ، مع ميل إلى النقد والمداعبة . ولا يخلو نقده من لدغ أو قرص لا يراعى فى ذلك صديقاً ولا قريباً ، حتى قيل : لم ينج من قوارص قلبه إلا الذى لم يعرفه . وتولت جريدة (الصاعقة) لصاحبها أحمد فؤاد رثاء المولى بحفاها الافتتاحى فى العدد الذى صدر بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٢٣ هـ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٩٠٦ م وهو مقال طويل جاء فيه :

كان السيد إبراهيم المويلحي رحمة الله عليه أتقى خلق الله قلباً وأصفاً
نية، وأخفهم روحاً، وأرقهم طبعاً، وأحسنهم حديثاً، وأطلقهم لساناً،
وأمتهم حجة. إنه ليحدثك بالحديث فتستعذب الإلقاء، وتستحسن الإيجاز،
ويشرح صدرك لبديع بيانه، وفصيح قرآنه وحسن أسلوبه. حتى لكأنه خلق
من كل الأرواح، وقبض يمينه على أئنة القلوب. ثم قال ومن كالمويلحي
طاب الدنيا وصافح الملوك، وأزعج أصحاب التيجان، وأثكل المنابر،
وأبكى العروش، وعاشر الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مداركهم.
مزايا عرفت فيه من يوم درج ودب إلى يوم درج في كفته. ولولا ما كان
إسماعيل على استبداده بالرأي وإثارة للضلال على المهدي يستضيء بنور فكره
في منقاه، ويستعين بعقله على بلواه، ولا يبرم أمراً دونه، حتى هابه مع ذل
المنفي ملوك الأرض وخشى بأسه قياصرتها.. ولولا المويلحي ما كان إسماعيل
إلا كمن عهدناهم من برنسات نابولي، ولولا جريدة الأنباء ماسعي الخليفة
سعيه في استقدامه إلى الآستانة، ولا كان له ما كان من رفعة الشأن وسمو المكان..
ولولاه ما انتصر جمال الدين على رينان، وما أدراك مارينان، استغفر الله،
بل لو كان في أجله سعة لهار بفضل الفقيه من المؤمنين. وازداد الإسلام
به عزاً على عز. ولولا فضله في نزع ما تسرب إلى ذهن رينان من الأوهام التي
سكنت إليها نفسه، وتمكنت من رأسه ما استضافه (السبوري) نصف
حول في لندن، على ما فعله من تفاني هؤلاء الإنجليز في الشح، بل لولا قوة
تأثيره ما خشيت منه حكومة الجمهورية على بأسها وقوتها فأخرجته من ديارها
خوفاً من أن يهيء في الفرنسيين رجالاً منهم يسلمون تونس عنهم. ولو
قلنا أن هذا الرجل لا يعرف إلا الحق، لا يخدع كبيراً مهما كثر ما عنده،
ولولا دعاية فيه لكان له فوق ما أعطاه الله من مراتب العلاء لم نبعده عما
نعرفه من صفاته ونعبدته في أخلاقه. فقد عادى عبد الحميد وهو بين سمع
سلطته وبصرها. وحوله جنده وأعوانه لما رأى منه انحرافاً عن زواجر

القرآن ، وحارب الضال الزنديق أبا الهدى الصيادى حين أخذ عليه غشه للخليفة وافتتاته بجد الغنى الأغا وأشباهه .

وكانت أقصى أمانيه وغاية ما تصبو إليه نفسه أن يرى للإسلام من القوة والمنعة والشوكة ، واصولة والبأس ما يرهب أولئك الذين استلنوا جانبه ، واستهانوا بأهله، ونظروا إليه نظر الضواري إلى السائمة . وكل ما نقل عنه من حكايات الزينغ في العيقدة ، والغلو في الكفر ، والميل إلى الأذى ، وحس الشر ، فما يدخل في باب الحسد من أعداء العلم . والله حكمة في هؤلاء العلماء لا يدركها عقل الانسان . وما ينقل عنه أن الدول الأوربية لما اتفقت على جعل المالية المصرية تحت مراقبتها ، وبدأت تكيد لإسماعيل في ملكه ، وأحس منها بذلك ذعر واستدعى عبدالسلام (باشا) المويلحى وكان من أعضاء مجلس النواب ، وتقدم إليه أن يجمع النواب ويقصدون القناصل في نزل شبرد، ويسردون عليهم ما تقول إليه حالة مصر من الثورة والفتنة إذا أصرت الدول على رأيها . فكبر على عبد السلام (باشا) جمع النواب على بعد ديارهم وتفرق مساكنهم فقال له إبراهيم (بك) وهو في حضرة الأمير : اجمع ما تقمن الفقهاء والتجار واذهب بهم فقل أنهم نواب الأمة وتكلم أنت فقال له إسماعيل :

وأنت تذهب معه كأنك من النواب وتأخذ معك لطيف (باشا) سليم بجلته العسكرية حتى يقيد هؤلاء البهائم بنظام ، وحتى يصرف عنهم ما يختلط بنفوسهم من الرعب ، إلى غير ذلك مما أعان به أصحاب التيجان . ففكهم من الأصفاد ، وأبقى عليهم ملكهم . ومن أمراء مصر من لا يعرف المويلحى أيام أن أشار على إسماعيل أن يهدد القناصل بالبكرى نفاقوا من ثورة تسيل فيها الأرواح وتحصد النفوس وعدلوا عما عزموا عليه .

إلى آخر ما جاء بهذا المقال الاقتحاحى الطويل الذى كنبه محرر جريدة الصاعقة بهذا الأسلوب الرائع المصنئ ، وصدر فيه عن كل هذا الإخلاص الكبير للمويلحى .

الفصل الثاني

المويلحي وجريدة مصباح الشرق

يجمل بنا قبل أن عرض لهذه الجريدة أن تقدم لها ببعض أقوال الأدباء من رآوها وقرأوها وقالوا أنهم أعجبوا بها ، بل تخرجوا عليها في الأدب والصحافة ، ومن هؤلاء المعجبين بهذه الجريدة الشيخ عبد العزيز البشري ، وهو أديب قاهري ممتاز ، كانت له جولات في الصحافة الأدبية لم نزل — نحن المصريين — نذكرها له بالثناء والتقدير (١) .

قال رحمه الله تعالى في كتاب (المختار) :

من أكثر من ثلاثين سنة خلت ، ولما أزل بعد في أيام الفتوة ، وفي صدر طلب العلم في الأزهر ، صدرت في مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم (مصباح الشرق) في أربع صفحات ، دون صفحات الجرائد التي تصدر الآن مساحة ، ولون ورقها يضرب إلى الحمرة ، ويقوم بتحريرها إبراهيم (بك) المويلحي ، وابنه السيد محمد المويلحي . وكانت عامة الصحف الأسبوعية قد وصلت في ذلك العهد من المهانة والفسولة والإسفاف وتفاهة الموضوعات إلى أبعد الحدود .

لقد كان هذا « مصباح الشرق » شيئاً طريفاً حقاً . لقد كان أبلغ من طريف ، فإنه لأعجوبة حقاً ، لقد كان هذا مصباح الشرق أبلغ من أعجوبة ، لأنه شيء يكاد يتصل بحكم الخواص في تلك الأيام .

(١) تولى الشيخ عبد العزيز البشري بالقاهرة في مارس ١٩٤٢ . وكان من زعماء المدرسة القديمة في أدبنا الحديث ، له أسلوب يرف به ، ولد عرض لتعليقه أستاذنا له حسين في مقدمة كتاب المختار للبشري ، فليرجع إليه من أراد .

بلاغة بليغة ، ولفظ جزل متخير ، وديباجة مشرقة ، وصيغ مؤنقة ، ونسج متلاحم ، وأسلوب ليس ورائه في هذا الذي يدعونه «السهل الممتنع» أدب بارع ، علم وفلسفة ، وبحوث رائعة في سياسة الأمم وفي الأخلاق وعلوم الاجتماع ، منها المبتكر المنشأ ، ومنها المترجم من مختلف اللغى ، في عبارة عربية بليغة ، سلسلة ناصعة واضحة ، لا تستروح منها أى ربح للاستعجام .

وهل رأيت قط ترجمات السابقين في عصر بني العباس ؟

مذهب طريف في النقد — نقد الأشخاص — لا عهد الأدب العربي به من قديم الزمان ، بل لعله لا عهد له به منذ أول الزمان .

لم نكدر تطالع الناس هذه الصحيفة الدقيقة الجرم مرتين أو ثلاثا حتى أصبحت من بعض شغل الخاصة في هذه البلاد . لا يدخل الأصيل في يوم الخميس من كل أسبوع إلا وقد زاعت أبصار ، وتكرمشت جباه ، وتقلصت شفاه ، وتداركت أنفاس ، وجفت قلوب ، هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس ؟ كذلك كان يترقب الخاصة مشرق (المصباح) .

وسرعان ما تخطفه اليد الراجفة فتشقه ، وسرعان ما يشيع البصر كله في مساحة النقد كلها ، لا يستقر على موضوع خاص ، ولا يتحيز في حديث معين بل أنه لينساح على الصحيفة كلها ، انسياحا ليدرك قبل رد الطرف أشك المويلحي اسم صاحبه فيمن شك ، أم أرسله في جملة الطلقاء ؟ حتى إذا اطمان الرجل إلى أنه قد كتبت له السلامة لملته ألقى الصحيفة بين يديه ، وجعل يظامن من نفسه ، ويبسط من خلقه ما انقبض ، ويفرخ من روعه ما تحبس . وإذا كان هذا شأن من لم تصب منهم أقلام المويلحين فاحكم أنت — عصمنا الله وإياك — كيف كانت حال من تنال منهم هذه الأقلام ! على أنه مما ينبغي أن يذكر هنا أن المصباح لم يكن يعرض قط لأغراض من يتولاهم بالنقد ، ولا يتلس إلى مكارهم ، أو يتتبع عوراتهم . بل

لا يتناول من أمورهم إلى ما كانوا يمرضونه هم من ذات أنفسهم ، أو ما يدلون هم عليه بآثارهم وظاهر أعمالهم . فقد كان المصباح أجل من ذلك موضعاً وآنف كرامة . وإنه ليستحدث لوناً طريفاً من النقد لا عهد لأدب مصر به ، بل لا عهد به الأمم العربية جماء .

هذا النوع من النقد يقوم في الجملة على التماس الضعيف من أثر الرجل فيعرضه بالقلم صورة (كاريكاتورية) يزيد في تشويهها ما يتوافق لذهنه الدقيق من ألوان التشبيه وما يحضره من فنون الاستشهاد والتشليل ، ولا يبرح يخط الموضوع في هذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القرية والملابسات الدانية ، تسندها البكثة البارعة ، ويسعفها التندر البديع ، حتى ينتهي إلى ما لا ينتهي إليه أحد من الناقدين .

ولقد كان هذا من (مصباح الشرق) الأصل الثابت لهذا اللون من النقد . أعنى النقد (الكاريكاتورى) في مصر . كما كانت صحيفة المويلحين (أبوزيد) أول ما عرف — فيما أعرف أنا — من التصوير الكاريكاتورى في هذه البلاد .

لم ينته خطب مصباح الشرق إلى هذا الموضوع فحسب ، بل لقد كان على أنه صحيفة لا تظهر في جميع الأسبوع إلا مرة واحدة ، يروى من جلائل الأخبار في الأسباب العامة ما لا تنقله الصحف اليومية على شدة اتصاها لمثل ذلك ، وإذ كاه عدتها الكثيرة في طلبه وتقصيه . فكانت أمهات الصحف اليومية لا تتحرج في كثير من الأحيان من نشر مهام الأخبار ، فقلا عن صحيفة مصباح الشرق الأسبوعية مضافة إليها معزوة لها . وفضل المصباح في هذا السبق العجيب إنما كان لجلالة محل إبراهيم المويلحي عند أولى الأمر كلهم ، وخفة روحه ، ولطف مدخله ، وسعة حيلته ، حتى ليستخرج منهم بهذا ما لا يخرجونه عنه لغيره من رواة الأخبار ، ولا أحب أن أجوز هذا الموضوع من الكلام قبل أن أقول إن المصباح أول من جلا للناس براعة الجاحظ ، وعبقريته ابن الرومى ، بما كان يختاره لهم من بدائع المشور ، وروائع

المنظوم ، قبل أن تقع العيون من آثارهما على كتاب أوديان . وأول من عالج النقد الأدبي لما تنضح به قرائح الشعراء ، وأعنى به ذلك النقد الرفيع العالى الذى جمع بين أساليب النقد فى أذكى عصور العربية ، وبين طرائفه التى اختطها نقدة الغربيين فى هذا الزمان ، وعلى الجملة فلقد فتح المصباح فى الأدب العربى فتحاً جديداً ، وأمسى مصباحاً حقاً يهتدى المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القول أو اجتمعوا لنظم الكلام .

وبهذا أصبح مصباح الشرق أغزر مدرسة لطلب الأدب الرفيع الجزل الطريف فى هذه البلاد .

ونما ينبغى أن يذكر فى هذا المقام أن جماعة الشعراء لقد تعاطمتمهم سطوة المصباح فى باب النقد فحسبوا له كل حساب . وياويل من لا يتحرى من الشعراء البارزين ما لا يبلغه الجهد كله من التدقيق والتجويد والإحسان .

ثم قال البشرى فى أول كلامه عن صديقه وأستاذه محمد (بك) المويلحى ما نصه : « لست أغلو إذا زعمت أننى فى مطلع نشأتى الأدبية كان مصباح الشرق عندى هو المثل الأعلى للبيان العربى . وبهذا كنت شديد الإعجاب على قراءته وتقليب الذهن واللسان فى روائع صيغته ، وطرائف عباراته ، حتى لقد كنت أشعر أننى أترشفها ترشفاً لتدور فى أعراقى ، وتخالطدى ، وتطبع ملكتى على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف . ولكن ما كل ما يتعنى المرء يدركه . ولقد كنت قتي مولعاً بالصناعة . شأن أكثر نابغة المتأدبين فى ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحى فى المصباح حديث عيسى بن هشام زادنى وزاد لذاتى به فتوناً (١) .

وعما قليل سنعرض لهذا الحديث الذى فتن به البشرى ولداته ، وهو

(١) راجع عبد العزيز البهرى : كتاب الخنار الجزء الأول من ٧٢٥ .

« حديث عيسى بن هشام ، كيادة من مواد الجريدة التي نصفها الآن ، وهي جريدة مصباح الشرق . وقد خصصت له فصلا من فصول هذا الجزء هو الفصل الرابع .

ولنبداً الآن بذكر محتويات الجريدة ، وذكر التقسيم الصحفي لها ، وأن الناظر في عدد من أعدادها يجدها تتألف من أربع صفحات فقط ، بالصفحة الأولى منها نجد عنوان الجريدة (مصباح الشرق) وهي جريدة سياسية إخبارية عليية أدبية .

تصدر يوم الخميس من كل أسبوع مؤقثاً ، أنشئت سنة ١٣١٥ هجرية ، لصاحبها ومحررها إبراهيم المويلحي .

وعن يمين الصفحة الأولى من أعلى نجد قيمة الاشتراك وأجرة الإعلان وعن يسارها من أعلى كذلك نجد تنبيهاً من صاحب الجريدة للقراء أن تكون المكاتبات باسمه مباشرة ، وتنبيهاً آخر بأن الرسائل لا ترد لأصحابها نشرت أم لم تنشر . ثم تنبيهاً ثالثاً بأن وكيل الجريدة هو « أمين إمام » ، وتحت هذه العنوانات يرى القارئ تاريخ صدور الجريدة بالتقويمين الهجري والميلادي . وبأقصى الصفحة الأولى من يمين يذكر عدد الجريدة بالرقم ، وبأقصاها من يسار تذكر السنة .

ثم يأتي بعد ذلك المقال الافتتاحي ، وهو مقال كبير في الغالب يملأ الصفحة الأولى بأكملها ، وقد يطغى على جزء من الصفحة الثانية كذلك ، بحيث لا يقل عدد الأهر التي يشغلها هذا المقال عن خمسة أو ستة ، وتلك هي أولى مواد الجريدة .

ثم تأتي بعد ذلك في الصفحة الثانية مادة أخرى من مواد الجريدة ، موضوعها (أخبار دار الخلافة العلية) ، ولا تكاد تبلغ النهرين ، وفيها يقرأ القارئ أخبار السلطان وحاشيته ، وبعض أخبار الأستانة نفسها .

وكذلك تشتمل الصفحة الثانية من صفحات المصباح على مادة ثالثة

هي مادة « الحوادث الداخلية » . وقد تدخل ضمن هذه المادة أشياء تتصل بها ، من نحو قصيدة في تهنئة الخديو ، أو قصيدة في تهنئة أحد الوزراء ، أو قصيدة في تهنئة رجل كبير كالشيخ محمد عبده بمنصب الإفتاء وهكذا .

يلي ذلك مادة رابعة . وهذه المادة خطرهما من الناحية الأدبية الخالصة وفيها يعرض المحرر على قرائه فنونا مختلفة من فنون الأدب ، فحيناً يعرض لهم شيئاً من الأدب العربي القديم كأدب الجاحظ ونحو ذلك . وحيناً يعرض لهم شيئاً من الأدب المصري الحديث ، من إنشائه أو من إنشاء ابنه محمد المويلحي ، وحيناً يعرض للقراء — فيما يقول الشيخ عبدالعزيز البشري — صورة كاريكاتورية لبعض الخاصة من المصريين^(١) ، وحيناً يقدم للقراء بعض الكتب الحديثة ، ويقوم بتعريفها لهم ، كما فعل ذلك بكتاب « سر تقدم الإنجليز » وهو الكتاب الذي ترجمه أحمد فتحي زغلول من الفرنسية إلى العربية . وكان لتأليف هذا الكتاب ثم لترجمته ضجة كبيرة في فرنسا وفي مصر . وهذا مادما المويلحي إلى الإفاضة في وصف هذا الكتاب وحض المصريين على اقتنائه وقراءته^(٢) .

ثم بالصفحة الثالثة من صفحات هذه الجريدة — أو فيما بقي من هذه الصفحة — يرى القارئ مادة من مواد الجريدة ، هي مادة الإعلانات على اختلافها .

وأما الصفحة الرابعة والأخيرة فقد خصصها المحرر للمادة السادسة وهي مادة تلغرافات الأسبوع .

(١) راجعنا نحن تسعة وتسعين عدداً من أعداد الجريدة صدرت في السنتين الأولين من حياتها ، ولم نشر على هذا اللون الأدبي الذي يتحدث عنه الشيخ عبد المرز البشري . فليل ذلك كان في السنوات الأخيرة من حياة هذه الجريدة . وهي السنوات التي لم نشر على عدد من أعدادها بعد .

(٢) راجع مصباح الشرق العدد ٦٥ من السنة الثانية بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٨٩٩ .

هذا ويجب أن يعرف القارئ أن هذا النظام الذي وضعناه ، أو هذا المنهاج الذي قلنا إن (المصباح) قد صار عليه لم يتم للجريدة دفعة واحدة ، بل مضت مدة كافية حتى استقرت الجريدة على هذا الوضع (١) . وآية ذلك أننا قد اطلعنا على الأعداد الأولى من هذه الجريدة فوجدناها خالية أو كالتالية من تلك المواد الأدبية السابقة ، إذ ليس بها من الأبواب غالباً غير ما يأتي :

- (١) المقال الافتتاحي .
- (٢) مقال صغير في الباب العالي .
- (٣) مقال صغير عن سياسة الإنجليز .
- (٤) حوادث داخلية .
- (٥) أخبار السودان .
- (٦) تلغرافات آخر ساعة .
- (٧) تلغرافات الأسبوع .

وقد جرت العادة أن يفصح المحرر عن أغراض الجريدة في عددها الأول ولكن المويلحي لم يفعل شيئاً من ذلك وجاء هذا العدد الأول وبه المقال الافتتاحي وعنوانه هكذا :

(١) ليس في دار الكتب المصرية غير الأعداد التي ظهرت من هذه الجريدة في خلال السنين الأولين فقط . وقد ظهر العدد الأول منها بتاريخ (١٤ من أبريل سنة ١٨٩٨) وتولى ظهور أعداد الصحيفة أسبوعياً بانتظام بعد ذلك حتى آتت الجريدة السنة الأولى من صدورها وكان العدد الواحد والخمسون ختاماً لهذه السنة ، وذلك بتاريخ (١٣ من أبريل سنة ١٨٩٩ ميلادية) .

ثم بدأت السنة الثانية لجريدة فظهر العدد الثمان والخمسون بتاريخ (٢٧ من أبريل سنة ١٨٩٩) واستمر صدورها بعد ذلك أسبوعياً إلى العدد الذي ظهر بتاريخ (٦ من أبريل سنة ١٩٠٠) وهو العدد السابع والأربعون من أعداد المصباح في هذه السنة الثانية وبذلك آتت هذه الجريدة في أثناء السنين الأولين من حياتها إصدار تسعة وتسعين عدداً من أعدادها كاملة ، هي الأعداد التي نسي لنا الاطلاع عليها ، ومنها استقبلنا كل معلوماتنا عن الجريدة ، وعلى أساسها تكونت لنا هذه المسكرة التي نشرها القراء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وإن أحسن شيء أنت قائله قول يقال إذا ما قلته صدقا (١)
ثم قال :

اللهم حجب إلينا الصدق في القول والعمل ، ولا تجعلنا من المفتونين
بآرائنا ، واعصمنا من الخور ، فلا نضيع على أناس أعز ما لديهم : مالهم
ووقتهم : في قراءة اللغو ، واحفظنا أن تمد أعيننا إلى ما في أيدي الناس ،
لنسلبه فيهم بالمفتريات المنمقة ، والآباطيل الملققة ، وتفخيم الألقاب ، والإسهاب
في المديح والإطناب ، ونجنا من القدح بعد المدح ، والمدح بعد القدح ، ابتغاء
وجه اندرم والدينار ، واحقن ماء وجوهنا من تلك السحابة ، سحابة إعادة
الجريدة مراراً لمن يرفضها ويردها ، وطهر صناعة التحرير من أدرانها ، فقد
انحط قدرها في أعين العقلاء . . . واشترك في الآية السكرية قراء الجرائد
وأصحابها ، إلا من عصم الله ، فالقراء «سماعون للكذب» وأصحاب الجرائد
«أكالون للسحت» وقد دخل في زمرة المحررين أميون لا يقرأون الكتاب ،
وأصبحت الجرائد المنتشرة في مصر - إلا ذوات الشأن منها - كالجراد
المنتشر . ولا غرو - فالجراد يأكل المزروعات ، والجرائد تأكل ثمراتها ،
هذا وإن الدهر كالبلخ ؛ يؤدي المعنى الواحد من حوادثه بعبارة مختلفة .

ثم طفق المحرر يسوق أمثلة من الواقع على شره أصحاب الصحف ،
وتحايلهم في ابتزاز المال من أصحاب الجاه والسلطان بحجة في يده رسالة
كلها مطاعن في أحدهم ، وأنه قد جعل له مبلغ من المال على نشر هذه الرسالة
في الجريدة ، ومن ثم يأخذ الرجل ذو الجاه في التفكير حتى يمتحن مخه ،
وتنتقل المسألة عنده إلى طور جدى ، ثم ينفخ صاحب الجريدة مبلغاً من

(١) وهو تحريف البيت للعبور:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أهدته صدقا

المال ، او على تعبير المويلحي يعطيه «جائزة غير جائزة» ، فيأخذها الصحنى ،
وتترك صاحبه في شك من جميع أصحابه وأصدقائه .

وفي النصف الثانى من هذا المقال يناشد الكاتب المحتلين في مصر أن
يسنوا قانوناً للمطبوعات ، ويحرمون فيه على الصحف نشر الأكاذيب التى
من هذا النوع . ثم يرد الكاتب على نفسه في هذه المسألة قائلاً :

« ولكن المحتلين يتعللون بكل تعة ولا يعقلون ، وإن شتتهم أصحاب
الجراند وسيوم ، لأنهم يتحملون مضاضة القول لفائدة العمل ، وهم يقتفون
آثار السياسة الرومانية خطوة خطوة في مستعمراتهم . فلا يتعرضون للناس
في دياناتهم وعاداتهم البتة . ولكنهم لا يريدون أن يكون بينهم خومال جسيم
أو جاه عظيم الخ . »

ثم ساق الكاتب شاهداً على ذلك من التاريخ الرومانى ، وخلاصته أن
القيصر الرومانى (تراجان) فتح مملكة وجعل عليها وائياً ، فعجز ذلك الوالى
عن ضبط أمورها لوجود الكثير من العظاء والوجاه وأصحاب الكلمة
النافذة في هذه المملكة . « فأرسل للقيصر رسولا يسأله عن رأيه فيهم ، فجاء
الرسول إلى قيصر ، وهو في بستانه بجانب شجرة يقص بألة في يده فروعا
العالية ، ليساويها بفروعا الدانية . فقص عليه ما بعث لأجله ، ووقف
ينتظر الجواب . فقال له الإمبراطور : اذهب فقد أعطيتك الجواب بما أفعل . »

قال المويلحي « أما استئصال المال فمناجله كثيرة . ويكفى له الأزبكية
برقصها وقارها . وخمرها وخمارها ... قال لى أحد الأدباء « أن في مصر
خمسة ملايين من الأفدنة يأكلها فدان واحد ؛ وهو محلات الخمر والميسر
وغيرهما بالأزبكية ، فإنه لا يتردد عليها أحد إلا أصيب أخيراً بامتلاء رأسه
من الهم ، وفراغ كيسه من الدرهم . وإنك ترى الذين يستحى منهم بالنهار
يستجيون منك بالليل فيها . »

تلك هي الكلمة التي افتتح بها المولى على عدده الأول من أعداد جريدته وهي كلمة عالية من المنهج أو الخطة أو الطريقة أو الهدف ونحو ذلك ، وإنك لتري المولى على وقد نهج فيها منهج الجاحظ في الكتابة . بدأها بالدعاء لنفسه على طريقة جاحظية ، واستطرد فيها من قول إلى قول ، ومن فكرة إلى فكرة بطريقة جاحظية . ورشحها بالحكايات والنوادر بطريقة جاحظية . وأكبر الظن أنه أفلح يومئذ في تقديم جريدته إلى القراء فرأينا أفئدة منهم تهوى إليها .

وقد فرغنا من عرض المقال الافتتاحي الأول لجريدة المصباح ، كما فرغنا من وصف النظام الصحفي لهذه الجريدة ، ولم يبق لنا إلا أن نأخذ في نقدها من الناحية التي تعيننا في هذا البحث ، وهي ناحية الأسلوب .
و ثم ملاحظات عامة يجمل البدء بها ثم الانتقال منها إلى الملاحظات الخاصة ، فن العامة :

أولاً : أن الصيغة الأدبية هي الغالبة على هذه الصحيفة ، لأنها تشغل من حيزها فراغاً أكثر من الفراغ الذي تشغله الأخبار والتلغرافات والإعلانات في وقت معاً .

ثانياً : طغيان الطريقة الأدبية في الأداء على الطريقة الصحفية ، ونرى مصداق ذلك في عناية المولى على بكتابة العتوانات في مادة الحوادث الداخلية على صورة حكمة أو مثل أو بيت من أشعار العرب ، أو بيت شعر من نظم المجرر ، وهكذا .

فمرة ترى الحوادث الداخلية خيراً عنوانه :

طوى الدهر منذ اليوم ذكرى فشودة ولم يبق منها عندهم غير بارها (١)

(١) هو بيت من نظم المجرر الذي قال تحت هذا العنوان : لما كان كثير من الحوادث التي تقع في مصر لا يكاد يضي عليه بعض الزمن إلا وينطوى في سجل النسيان وأي أحد أرباب الحانات من الأجانب أن سبق لمبالغة فشودة ذكرنا حسناً ، ويخفق لما أمرا جيلاً . فتمنع (حالة) أطلق عليها أسم (بار فعودة) . وهذا كل ما بقي من آثار هذه للسألة .. الخ
ول ذلك من روح التهم البادية في كلام المولى ما فيه . راجع العدد للتقدم ذكره .

ومرة نجد خبراً من الأخبار الداخلية بعنوان :
يادار غيرك البلى ومحاك ياليت شعري ما الذى أبلاك ؟
وكان موضوع الخبر انتقاد وزارة الداخلية في خلوها من الموظفين في
أثناء الصيف (١) .

ومرة ثالثة نجد العنوان :
« ومن الخفير أتاهاوا الإخفار ،
ومرة رابعة نجد العنوان :
« رب ضارة نافعة ،

وفي مرة خامسة نجد العنوان :
إذا فعل الفقى ما عنه ينهى فمن جهتين لاجهة أساءا ... الخ
ثالثاً : ميل المويلحى ميلا ظاهراً إلى السخرية واتهمك واعتماده اعتماداً
كبيراً عليهما في هذه الجريدة . على أن هذه السخرية غالباً ما تكون جادة
في المقال الافتتاحى أو ما يقوم مقامه ، هازلة أو ضاحكة في باب الحوادث
الداخلية أو ما يقوم مقامه ، وهكذا نجد أفسنا دائماً أمام صحفى هو إلى
الأدب أقرب منه إلى الصحافة .
ومن ثم كان إقبال المناشئة المصرية على هذه الصحيفة عظيماً ، كما حدثنا
بذلك الشيخ عبد العزيز البشرى .

• • •

أما أهداف « مصباح الشرق » فلم يشر إليها المويلحى في العدد الأول
من أعدادها كما رأينا . ولكن المطلع على ما بقى من أعداد هذه الجريدة
يستعرض عنوانات المقالات الافتتاحية على عجل ، فيستطيع أن يعرف أن
لصاحبها أهدافاً عامة ، تسل جميعها على أن المويلحى كان من كبار المجددين
المعتدلين في مصر . وتتلخص هذه الأهداف العامة فيما يلى :

(١) ربيع العدد ٦٦ من السنة الثانية .

أولاً: الهدف السياسي العام — ونعني به الدعوة لما كان يسمى يومئذ باسم « الجامعة الإسلامية » ، وإليها كان يدعو زعماء المصريين وقادتهم في ذلك الوقت وكانوا يرون في ذلك عزة الاسلام والمسلمين، وعظم شأنهم في أعين الدول الأوروبية التي لا ريب أنها تخشى ذلك النوع من التكتل الاسلامي العظيم تحت راية واحدة ؛ هي راية الدولة العثمانية .

من أجل هذا كتب المويلحي مقالات كثيرة بعنوانات مختلفة ، وكان ينحل بعض هذه المقالات (عظيماً من عظمة الاسلام في اشرق) . ولكن أسلوب المويلحي فيها لم يكن يخفى على أحد .

وفي هذه المقالات كان المويلحي يريد أن يقنع الرأي الاسلامي العام بشيء واحد فقط ؛ هو « العزة والقوة » . وكان لا يعنى بالعزة هنا عزة العلم والمعرفة ، ولا بالقوة هنا قوة النار والحديد . وانظر إليه حيث يقول :

... فهذا هو القوة للدين ، هذا هو الاصلاح للدولة والذود عن حوض المسلمين ، لا ما يضيغون به الوقت سدى من الأخذ والرد ، والمناقشة والجدل في بيان الإصلاح ، وحفظ الجامعة الاسلامية من إيراد الآراء في كيفية عقد المؤتمرات ، وذكر العلم والتعليم ، والكلام في نشر المدارس والمعارف ، والأخذ بأذيال الغربيين في مدينتهم وأشكال حكومتهم ، وتراكيب جمعياتهم ، اللهم إن كل هذه الأقوال دون الأفعال إن دمننا عليها لتوصلنا إلى ما كان عليه حال القسطنطينية حين دخول الفاتح إليها ، كان العلماء من أهلها لاهين في مجلسهم بالمناقشة والجدل فيما لا تقع فيه ولا فائدة منه ، ورمح الفاتح يقرع الباب ،^(١) .

وفي العدد الثالث والتسعين من السنة الثانية تحت عنوان ، مدينة قرن :

(١) راجع مصباح الفرق : العدد ٩٥ من السنة الثانية — بعنوان : الوطن في الاسلام

قال المويلحي : « فقد تبين من جميع ما تقدم أن سلامة المسلمين ، وحفظ دولتهم الآن في قوة السلاح ، لافي انتشار المعارف الغربية ، وحرية الجرائد واقتفاء آثار الغربيين في مدينتهم الخ ، كأن هذه الموضوعات كانت كل ما يشغل بال الرأي العام إذ ذاك .

وفي سبيل « الجامعة الاسلامية » كان المويلحي يدعو كذلك إلى الاكثاب العام لجميع الأموال اللازمة لتدعيم هذه الفكرة ، وسنرى أنه لم يكتب بالمقالات العامة التي كتبها في الدعوة لهذا الاكثاب ، حتى أخذ يجعل ذلك غرضاً من أغراض انقصته التي بدأ يكتبها وينشرها كذلك على صفحات جريدته « مصباح الشرق » ؛ وهي القصة التي عنوانها « حديث موسى بن عصام ، كما سنرى بعد .

ثانياً : الهدف السياسي الخاص — وهو الدفاع الحار عن مصر والسودان ضد الاحتلال الإنجليزي ، ثم دعوة المصريين إلى الاتحاد والتوفيق التام بين عنصرى الأمة : المسلمين والأقباط ، حتى لا يحدث المصريون في صفوفهم ثغرة ينفذ منها العدو . وهنا لا يكتبنى المويلحي كذلك بكتابة المقالات حتى يجعل هذه الدعوة غرضاً من أغراضه في تلك القصة التي تشير إليها ، وهي « حديث موسى بن عصام » التي سيأتى الكلام عنها .

وما رأيت المويلحي قد ارتفع في أسلوبه قدر ارتفاعه في المقال الذي كتبه بالعدد السادس والخمسين من السنة الثانية من حياة المصباح . وقد جعل عنوانه المقال بيتين من الشعر يظهر أنهما من نظمه ، وهما قوله :

رأينا من الإصلاح في مصر نوعه وسوف نرى سودانها مثل ما نرى
فما هبطت حمر الثياب بيده وكان لدود الأرض قوت من الثرى
ولا شك أنه يكنى هنا عن الانجليز بكلمة « حمر الثياب » ، وفي هذه المقالة كان المويلحي منفعلاً أشد الافعال ، وليس أدل على ذلك — فيما نرى —

من إيراد كلامه في هذا المقال إيراداً موسيقياً دقيقاً ؛ حتى لينخيل إلى القارئ ،
أنه يقرأ شعراً لا نثراً ؛ وعندى أن ذلك لا يتيسر للكاتب إلا في أوقات
اضغاله واشتغال وجدانه .

ثالثها : الهدف الديني — وكان المويلحي يهدف في بعض مقالاته إلى
الإصلاح الديني على النحو الذي دعا إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .
وكان المويلحي يوجه الحديث في هذه المقالات إلى رجال الأزهر ، غير أنه
كان يسلك معهم سبيل السخرية والتهكم ، بخلاف الأستاذ الإمام فقد سلك
معهم سبيل الجد والصرامة ، وهما صفتان من صفاته وطبيعتان من طبيعته .
والفرق بين المويلحي ومحمد عبده في ذلك أن أولها أديب والثاني زعيم ،
ومن ثم كانت السخرية والبلاغة في الأداء بعض وسائل الأول ، وكان الجد
والعلم والاشتغال بتفسير القرآن والحديث ، والدعوة الصريحة إلى الجد في
الإصلاح وسائل الثاني ، وهكذا لا تتصور أحدهما حين يكتب إلا باسمها ،
ولا تتصور الآخر حين يكتب إلا عابساً ، وكان المويلحي لا يرى صلاح الدين
إلا بالرجوع إلى أصله الأول الذي كان عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه .

فتنزع منه تلك البدع ومحدثات الأمور ، إذ الدين على ما نراه مشحون
بما ليس منه ، بما يضحك ويبكي ، من الأقوال المضللة ، والمسائل الخلافية ،
والأحاديث الموضوعية ، والأساطير الملفقة ، ومثل من يعلم علوم الدين قبل
خلوها من هذه الشوائب كمثل الرجل الذي لقن ابنه ستين ألف حديث .
وبعد أن أضع الغلام الزمن في حفظها عن ظهر قلبه قال له أبوه :
اعلم أن ما حفظته الآن من الأحاديث كله موضوع ، ولم ألقنك إياه
إلا لتعلم أن ما عداه هو الصحيح (١) .

(١) انظر مصباح الفرق — العدد ٧٣ — من السنة الثانية — بعنوان رسالة تالفة
طلعت علينا من أفق الفرق لطيف من علماء الاسلام .

وكان المويلحي كذلك يدعو بدعوة الشيخ محمد عبده في وجوب تعليم رجال الأزهر، ووصلهم ببعض العلوم الحديثة، ووصلهم كذلك بأمهات كتب الأدب؛ وهي: الكامل للبرد، ونقد الشعر لقدامة، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت، والعقد الفريد لابن عبد ربه. كتب المويلحي يقول:

«وأطال أهدم وهو حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده - في بيان الفائدة على الأزهر وطلاب علوم الدين من تدريس هذه الكتب التي هي أركان العلوم الأدبية، فرد عليه من يزعم أن مدارستها تعطل من مدارس العلوم الدينية (على أن الدين لا يفهم إلا بها) حتى انتهى بهم الجدل إلى موافقة أربعة منهم على وجوب تدريس تلك الكتب. ولكن الأغلبية قررت أن ممارسة هذه الكتب والارتياض عليها أمر غير واجب، ومستحسن غير لازم، لا يوجب العلماء على الطلاب في التدريس، ولا يأخذونهم به، ولا يحملونهم عليه؛ ولكنهم يبيحون للطلاب أن يحصل ذلك بنفسه إن أراد» (١).

رابعها: الهدف الاجتماعي - وهو ما حدا بالمويلحي إلى النظر في إصلاح المجتمع الشرقي عامة، والمجتمع المصري خاصة. وقد دعا ذلك إلى النظر بعين الاستخفاف المنزوع بالإشفاق إلى العادات القبيحة في الشرق، والعادات القبيحة في مصر، والأخلاق الضعيفة هنا والأخلاق القوية هناك. ومن أجل هذا كتب المويلحي مقالات بعنوان (الشرق والغرب)، وأخرى بعنوان (الشرق وحده) وثالثة بعنوان (مضر وحدها).

وكان المويلحي في جميع ما كتب في هذه الناحية شديد الاعتزاز بمصريته وعثمانيته وشرقيته، شديد السخط في الوقت نفسه على المدنية الغربية. قوى التحذير لقومه بالألا يغتروا بهرج الحضارة الأوربية وهو من هذه

(١) راجع (مصباح الفرق) - العدد ٧٩ - من السنة الثانية - بعنوان مستحسن

غير لازم.

(٢ م - ٦ - آداب المقالة الصحفية - ج ٣).

الناحية يعتبر تليذاً مخلصاً للنديم. والنديم - كما نعلم - هو أول من حارب
التفرنج وسخر منه وندد به . وقرأ عبارة المويصل إذا يقول :

« والمدنية الغربية ليست على شيء من الفضل والكمال ، ولا تقوم - كما
يرعمون - على دطامة الأخلاق الفاضلة وما تشمله من العدل ، والانصاف ،
والإغاثة ، والمساواة ، والرحمة ، والشفقة ، والمحبة الإنسانية والحرية
العامة ، وإن جل ما فيها ، بل كل تزويق ، وتنميق ، وتضليل وتمويه ،
وزخرف ، وبطلان . يحتفى في طياتها ما ركب في طباع الإنسان من النقائص
التي ينطوى تحتها الظلم ، والجور ، والعداء ، والآثرة ، والقسوة ، والطمع ،
والنهم . بل إن تلك المدنية تزيدها حدة ، وتكسيها نمواً ، وتبلغ بها أقصى
معانيها ، فتعممها من الأفراد إلى الجمعيات ؛ حتى تصبح لا أثر فيها للشعور
الشريف ، والاحساس الطاهر ، والعواطف الكريمة الخ ، (١) .

تلك هي أهداف «المصباح» الأربعة . وأستطيع أن أضيف إليها هدفاً
عامساً : هو الهدف الأدبي - ومن أجله أخذت المواد الأدبية تشيع شيئاً
فشيئاً في هذه الجريدة ، حتى جاء وقت وجدنا فيه الغلبة لهذه المواد الأدبية
على غيرها من المواد الأخرى بل من أجل هذا الهدف توخى المحرر
الإجادة في أسلوبه الصحفي قدر استطاعته ، حتى أصبحنا لانكاد نلبس في
جريدته الفرق واضحاً بين الأسلوبين الأدبي والصحفي ، بل رأينا كتابة
المويلحي وقد أصبحت نموذجاً يحتذى ، وطريقة تتبع ، وأثر يقتنى ، كما
أصبح لهذا الأسلوب الجديد ضجة كبيرة في الأوساط المثقفة ، وسلطان كبير
على النابتة .

(١) راجع مصباح الشرق ، العدد ٧٦ من السنة الثانية تحت عنوان (مثال لبرهان)
والعدد ٩٨ من المصباح مقالاً بعنوانه (فتاح الحضارة) .

الفصل الثالث تمودج من المقال

في جريدة مصباح الشرق

كتب المويلى بالعدد (٣٠) من السنة الأولى بتاريخ الخميس ٢٥ جمادى
الثانى سنة ١٣٢٦ الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٨٩٨ مقالا افتتاحياً هذا نصه :

أيها العلناء

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)

الدعوة إلى الدين وبعث البعوث لها من أطراف الأرض إلى أطرافها
أمر واجب في الدين الإسلامى ، فإنه لم ينتشر من بطاح مكة إلى حيطان الصين .
إلى أقصى الغرب ، إلى جاهل الجنوب ، إلى جزائر المحيط إلا بهذه الدعوة
محمولة في صدور رجال تجشموا متاعب الأسفار في زمن كان السفر فيه قطعة
من العذاب ، فلم يمنعهم هذا العذاب من الوصول إلى حدود الهند وغيرها
خطوة خطوة ، يصيبهم الظماً وتهلكهم الخمصة ، وينهكهم النصب وتبرى
تحتهم أبدان الإبل ، وتغور أعين المطايا . قاموا بهذا إمتثالاً لأمر الله بالجهاد
في سبيل الله . والجهاد ليس السيف وحده . والسيف القاضى مخراق لاعب
إذا لم تمض الدعوة حده ، وجهاد النى والعراية ، والجهل والجهالة ، والهوى
والضلالة بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الأكبر ، وهو الجهاد في الله .
قال الله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » .

قال المحققون من المفسرين في تفسير هذه الآية الشريفة : هو أمر
بالتزو ومجاهدة النفس والهوى ؛ وهو الجهاد الأكبر . وعن النبي صلى الله

عليه وسلم أنه رجع من بعض غزواته فقال : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

هذه كانت سيرة السلف رضى الله عنهم ، وهذا كان ديدنهم ، وهذا كان عملهم في نشر الدين الاسلامي ، وإنارة القلوب بنوره ، وهداية النفوس بهديه ، وتطهير الصدور من أدران الضلالة ، وأوضار الخرافة بالأدلة الساطعة ، وإبراهيم القاطعة . ولكن من نكد الدنيا أن خلف من بعضهم خلف انقطعوا عن العمل ، وقعدوا عن الواجب ، وركنوا إلى الراحة ، ووقفوا عند التفاخر والتشامخ بأعمال غيرهم ، حتى اضمحل ذلك التفاخر على طول الزمن بانقطاع العمل . والعمل ببيان إذا لم يستند عمل آخر تهدم وانقض قال سيد من آل بيت النبوة رضى الله عنه :

نبى كما كانت أوائلنا تبنى ونعمل مثل ما عملوا
وكنى بهذا البيت شاهداً على وجوب استمرار العمل بعد ذلك البناء الذى شاده جدم صلى الله عليه وسلم .

وما زلنا على هذا التقاعد والتقاعد ، والتكاسل والتخادل ، حتى ضاعت الفرص ، وانسدت وجوه المساعي ، وأنست النفوس بهذا الخمول ، وألفت القلوب هذا العقود ، وأصبح المسلم لا يستطيع أن يطالب المسلم بتوسيع دائرة الاسلام كما يدعو إليه الواجب الأول ، بل غاية ما يستطيع أن يطالبه به هو أن يعمل على حفظ ما وصلت إليه تلك الدائرة ، فيسعى المسلمون ، وعلماؤهم المسلمين في إحياء السنة ، وإماتة البدعة ، ونفى الضلالة ومحو الخرافات . وقد قال عليه الصلاة والسلام : إذا ظهرت البدعة فعلى العالم أن يظهر عليه ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله .

لا أريد أن أمضى في هذا المقال قبل التعليق على القدر الذى نقلناه منه الآن ، كما نرى القارىء في الفينة بعد الفينة ، ونسوق الملاحظات التى نلاحظها طائفة بعد أخرى .

وأول ما نلاحظه هنا عنوان المقال ، فلم يكتب المولى حتى بأن يكون

هذا العنوان (أيها العلماء) حتى وضع للبقال عنواناً آخر ، هو آية من آيات القرآن ، وتلك طريقة يختص بها المويلحي الذي رأيناه شديد العناية بالعناوين الأدبية الجذابة بقدر المستطاع .

وإذا عرف القارئ أن موضوع المقال هو دعوة الأزهر الشريف في مصر ، ودعوة الحكومة المصرية معه إلى عمل إيجابي في السودان ، يقابل الأعمال الإيجابية الكثيرة التي يقوم بها الانجليز هناك . وهذا العمل الذي يدعو إليه الأزهر والحكومة في السودان إنما هو العناية بنشر الدين الإسلامي في تلك البلاد بعد إذ فشا فيها الجهل ، وانتشرت فيها الخرافات .

أقول عرف القارئ أن الموضوع الرئيسي للمقال هو هذه الدعوة التي وجهها الكاتب للعلماء ، وعرف أن هذا الكلام الذي قرأه حتى الآن لم يعد أن يكون مقدمة لموضوع هذه الدعوة لا أكثر ولا أقل ، وللمويلحي في حقيقة الحال غرام شديد بالمقدمات ، وله ميل عظيم نحو الإطالة فيها ما استطاع إليها سبيلاً . ويرى القارئ مصداق ذلك في جميع المقالات الافتتاحية التي كتبها في جريدته مصباح الشرق .

أما الأسلوب الذي صبغت فيه هذه المقدمة فيستطيع القارئ أن يلمس فيه طائفة من الخصائص الفنية ومنها .

أولاً : حرص الكاتب على جزالة الألفاظ ، كما في قوله يصف جهاد السلف في سبيل نشر الدعوة « محمولة في صدور رجال تجشموا متاعب الأسفار في زمن كان السفر فيه قطعة من العذاب ... يصيبهم الظمأ وتهلكهم الخمصة ، ونهكهم النصب ، وتندري تحتم أبدان الإبل ، وتغور أعين المطايا ... الخ . »

ثانياً : حرص الكاتب كذلك على التوقيع الموسيقي للعبارة حرصاً يضل إلى حد السجع في أوقات قليلة ، وإلى الازدواج في أكثر الأوقات كما في قوله :

« قاموا بهذا امتثالاً لأمر الله بالجهاد في سبيل الله ، والجهاد ليس السيف وحده ، والسيف القاضب مخراق لاعب إذا لم تمض الدعوة حده » .

ثالثاً : حرص الكتاب أيضاً على التوسع في التعبير أو الإسهاب في الأسلوب ، أو بعبارة أخرى التبذير في استخدام المترادف طمعاً في تثبيت المعنى في ذهن السامع ، وتمشياً مع طبيعة المويلحي التي هي أدنى إلى السرف كما أشرنا وسنشير إلى ذلك . وانظر إلى قوله :

« و جهاد النفي والغواية ، والجهل والجهالة ، والهوى والضلالة ، بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الأكبر ، وهو الجهاد في الله » . وفي العبارة السابقة — فضلاً عن الإسهاب — نوع من الجناس بالاشتقاق بين النفي والغواية وبين الجهل والجهالة لا يخفى على القارىء .

رابعاً : ميل الكتاب إلى الاستشهاد بالقرآن مشفوعاً بذلك بتفسير الآية التي استشهد بها . ولا تقل إن موضوع المقال هو الدعوة إلى الجهاد ، فكان على الكتاب أن يستشهد بالقرآن ، فالحقيقة أن المويلحي من أشد الكتاب في عصره حباً في الاستشهاد ، وأكثرهم حرصاً على أن يشفع ذلك بالتفسير الذي يرجع فيه إلى أئمة هذا العلم .

وهذا ما فعله الكاتب أيضاً بالحديث النبوي . أعني أنه كان حرصاً على الإتيان به ، وعلى الخوض في شرحه والتعليق عليه .

تكفي هذه الملاحظات لكي نعود إلى المقال من حيث تركناه قال :

« وهذا السودان فقد توالى عليه الفتن ، وقام فيه (محمد أحمد)^(١) بدعوى كاذبة ألبسها لباس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لي جذب القلوب إليه . فظهر لنا الآن بما كان ينشره على قومه أنه كان يسعى فيهم لإحياء السنة ، وإماتة البدعة ، وهو — وإن كان أخطأ في دعواه ، فإنه

(١) هو محمد أحمد المهدي المعروف في التاريخ .

أصاب في مسعاه ، وقد عثرنا على كثير من هذا القبيل في الأوراق التي كان ينشرها ؛ ومنها الرسالة التي أثبتناها له في آداب الصوم . ولكنه ما كاد يولف القلوب على هذا الطريق حتى قضى نحبه ، وخلفه طاغ ، باغ ، أفك ، سفك ، عامى . أى عريق في الجهالة والضلالة ؛ ذلك (عبد الله التمايشي) فكان أول ما بدأ منه أنه هدم ما بنى محمد أحمد . فدفعه جهله وعداوته للعلم أن أمر بإلقاء جميع ما في أيدي الناس من الكتب في النيسل إلى أفواه التماسيح ، وحرّم أهل السودان قاطبة من الوقوف على واجباتهم الدينية ، والرجوع إليها في كتاب ، ونفى أصحاب محمد أحمد الذين كانوا يرشدون بإرشاده جملة إلى (فشودة) ، فسكك السودانيون على الجهل سنين تراكت عليهم الضلالات ، وتمكنت منهم الخرافات ، وتأصلت فيهم البدع ، ولم يبق فيهم من يأمرهم بمعروف ، وينهاهم عن منكر .

أما الآن وقد فتحت أبواب السودان ، وظهرت هذه الأمة السودانية الإسلامية بمظهر الافتقار إلى تجديد السنة ، وتبديد تلك الخرافات بمرشدين يرشدونها إلى هداها ، ويخلصونها من هراها ، فكان ينبغي أن أول ما نسمعه عقب الفتح أن مجلس العلماء في إدارة الأزهر الذي يجتمع لغير شيء ، قد اجتمع مراراً في اليوم الواحد لاتخاذ جماعة من طلبة العلم ، يرسلهم إلى السودان ، ليرشدوا الناس إلى دينهم قبل أن تلتبس عليهم الوجوه ، ويتخبطهم ما يتخبطهم بعد الفتح ، لا أن نسمع أن (السردار) يدعو قومه إلى اكتتاب يفتح به مدرسة إنجليزية في السودان لإحياء لذكري (غوردون باشا) الذي كان رئيساً عند الإنجليز في الدين ، لما كان لديهم في السياسة رئيساً ، ولا أن نسمع الأخرى ؛ وهي أن حضرة البابا أمر بعد فتح السودان بإرسال رسل من المنشرين اليسوعيين ، وعيّن للسودان وأفريقيا رئيساً لنشر الدين المسيحي . هذا وأهل الأزهر يتناوبون ويتناوبون تحت ظلال مجلس إدارتهم ، لا ينظرون إلى ما يوجب سعادة الدارين ، ولا سعادة الدار الواحدة . فهم يفضلون البقاء على أكل

الخبز البحت ، فإن كان ثم إدام فالفجل ، والجبن ، وقشور الفواكه . وقد رضوا من الدنيا بالنزول إلى ما لا يقدر الدهر أن يسلبه منهم ، فإنه لا يقدر أن يسلب الخبز من أحد في مصر . ومن رضى لنفسه هذه القناعة هانت عليه الأعمال العظيمة ، وقويت نفسه على تحمل المشاق في سبيل الأعمال الصالحة التي يدخرها ليوم الحساب . وهم أجل من رضوا بالزهد في الدنيا والزهدي في الآخرة . فقلوا نقر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .

قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة : دلت الآية على أنه يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشادهم إلى الدين القويم ، والصراط المستقيم ، لأن الآية تدل على أنه تعالى أمرهم بالتفقه في الدين ، لأجل أنهم إذا رجعوا إلى قومهم أذروهم بالدين الحق ، وأولئك يحذرون الجهل والمعصية ، ويرغبون في قبول الدين . فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض كان على المنهج القويم ، والصراط المستقيم . ومن عدل عنه وطلب الدنيا بالدين كان من الأخرسين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وقال الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية بعينها (فلولا نفر) : حين لم يكن غير الكافة ، ولم تكن مصلحة فهلا نفر (من كل فرقة) أي من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفر . (ليتفقهوا في الدين) ليتكفوا الفقاهاة فيه ، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها . (ولينذروا قومهم) وليجعلوا غرضهم ، ومرى همتهم في التفقه إندارهم ، وإرشادهم ، والنصيحة لهم ، لا ما ينتجيه الفقهاء من الأغراض الحسية ، ويؤمونه من المقاصد الركيكة من التصدير والتأسس ، والتبسط في البلاد ، والتشبه بالظلمة في ملايسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وقشوا أدا الضرائر بينهم ، وانقلاب جماليق أحدهم إذا لم يحصره مدرسة لإخسر أو شرفة جشوا بين يديه ،

وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم . فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل « لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، الخ .

ونزيج القارىء مرة أخرى من المقال، لناخذ معه في نقد هذا الجزء الذى نقلناه وهذا الجزء فى الحلقة هو صلب المقال ، أو الفكرة الأساسية التى يريد الكاتب أن يعبر عنها، وينقل إحساسه بها كاملاً إلى القراء . وفيه نجد المويلحى يبسط حالة السودان . وقد افتقر منذ ظهور أئمة عيسى إلى الهداية والمرشدين ، وإلى العلماء والمتفهمين فى الدين ، وانتقل الكاتب من ذلك إلى الموازنة بين ما صنعه الإنجليز — ومعهم البابا — من لرسالهم المبشرين ، وفتحهم المدارس لإحياء لذكرى رجال السياسة والدين ، وما صنعه الأزهر الشريف من نومه العميق ، وجهله المحيى ، وتجاهله أمراً أوجه الدين ، وهو الدعوة إلى الحق فى بلاد ظمأى إلى معرفة الحق . كل ذلك فى أسلوب تظهر فيه الخصائص الفنية التى أشرنا إليه ظهوراً لا مرية فيه .

فن جزالة فى الألفاظ، إلى حرص شديد على الإيقاع، كما فى قوله: وخلفه طاغ باغ، أفاك سفاك، طامى أمى، بعريق فى الجهالة والضلال الخ. إلى استشهاد بالقرآن ، على أن يكون هذا الاستشهاد مشفوعاً بالتفسير . وإن كان التفسير فى هذه الفقرة التى تقدمت من المقال قد طغى طغياناً عظيماً خرجت به المقالة المتقدمة على أن تكون مادة صحفية إلى أن تصبح درساً تفسيرياً .

وليس شك فى أن المويلحى كان فى هذا الاتجاه متأثراً بنشأته الدينية وبأستاذه الأول الذى قلنا أنه اتصل به منذ الطفولة ، وهو الشيخ العطار صاحب الحانوت المجاور لجانوت أبيه .

على أن أكبر ما يلفت نظر الناقد فى العبارة السابقة إنما هو إثارة لرجال الأزهر الشريف ، واعتماده فى هذه الإثارة على السخرية والتهمك ، وبلوغه من هذين ما لا يبلغه كاتب آخر فى عصره ، وحين يعالج موضوعاً كهذا الذى نحن بصلده .

ومن كالمويلحي في لذعه وتهكمه وتفنته في السخرية والتندر ؟
وتنحلّ السخرية عند المويلحي إلى طائفة من العناصر التي لا تخفى على
القارىء الفطن ، ومنها عنصر المفارقة أو الموازنة . وهو في العبارة السابقة
يوازن لنا موازنة واضحة بين صنيع الانجليز في السودان ، وصنيع المصريين
في تلك البلاد ؛ وهي موازنة تثير الضحك من علماء المسلمين ، كما تثير السخط
عليهم من الناس أجمعين .

ومن عناصر السخرية عند المويلحي عنصر الاستقصاء ، وعنصر التعليل ،
وعنصر النتم بما يشبه المدح ، وعنصر العبث بالألفاظ ، وعنصر التسمية
الزائفة لبعض المعاني ، أو هذه العناصر التي يتألف منها ما يسمى عند عامة
المصريين في وقتنا الحاضر (بالتريقة) .

وانظر معي إلى المويلحي كيف يتدرج في السخرية من رجال الأزهر .
فيبدأ أولاً بقوله :

« ... فكان ينبغي أن أول ما نسمعه عقب الفتح أن مجلس العلماء في
إدارة الأزهر الذي يجتمع لغير شيء . . . الخ ، ثم يمضى الكاتب قديماً في
هذه السخرية فيقول :

« هذا — وأهل الأزهر يتناهبون ويتناومون تحت ظلال مجلس إدارتهم .
وانظر إلى قول تحت ظلال مجلس إدارتهم فهو يبعث في الذهن قول النبي
« الجنة تحت ظلال السيوف ، كما تبعث في الذهن تلك الموازنة بين استعمال
(الظلال) هنا (والظلال) هناك :

ويتقدم الكاتب في سخريته قائلاً في وصف رجال الأزهر .
« لا ينظرون إلى ما يوجب سعادة الدارين ، ولا سعادة الدار الواحدة ،
والشاهد في قوله « ولا سعادة الدار الواحدة » ، ثم يقول :
« فهم يفضلون البقاء على أكل الخبز البحت ، فإن كان ثم إدام فالعجل
والجبن وقشور الفواكه . وقد رضوا من الدنيا بالنزول إلى ما لا يقدر

الدهر أن يسلبه منهم ، فإنه لا يقدر أن يسلب الخبز من أحد في مصر .
وفي هذه الجملة الأخيرة وصل المويلحي إلى الدرجة الأخيرة في سلم
السخرية الذي صعد به إلى الأزهر ورجال الأزهر . وهناك من أعلى الدرج
رمى الكاتب هؤلاء بقوله لهم :

« ومن رضى بنفسه بهذه القناعة هانت عليه الأعمال العظيمة ، وقويت
نفسه على تحمل المشاق في سبيل الأعمال الصالحة التي يدخرها ليوم
الحساب . وهم أجل من أن يرضوا بالزهدين : الزهد في الدنيا والزهد
في الآخرة . »

وفي هذه العبارات الأخيرة تتضح العناصر الباقية من عناصر السخرية
عند المويلحي ، وهي عنصر الذم بما يشبه المدح ، وعنصر التسمية الزائفة
لبعض المعاني . ومما ورد من هذه المعاني في العبارة المتقدمة معنى القناعة
ومعنى الزهد ، ومعنى قوة النفس على تحمل المشاق ، ومعنى الأعمال الصالحة .
وكل هذه الألفاظ إنما يراد بها في نفس المويلحي معنى الذلة والخنوع ، ومعنى
الفقر والضعف ، ومعنى الجبن والخور ، والتعاقد عن أداء الواجب .

ثم انظر إلى المويلحي ينتقل فجأة وعلى غير انتظار من هذا الضحك
إلى الهدى ، والسخرية المريرة إلى الجد الجاد ، وإلى القول الحق ، وإلى الحجية
الدامنة ، وهي القرآن الكريم ، فيصب في آذان رجال الأزهر قوله تعالى :
« فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم
إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون . »

صب الكاتب ألقاظ هذه الآية الكريمة صباً في آذان رجال الأزهر ،
ثم وقف قليلاً ليدكر هؤلاء أقوال المفسرين على اختلافهم في تفسير هذه
الآية الكريمة . وهنا يأتي الكاتب لهم بتفسير الزمخشري .
وهكذا يتلاعب الكاتب بقول رجال الأزهر وعواطفهم ومشاعرهم
ويبلغ من ذلك كل ما أراد .

وأخيراً يدنو الكاتب من غائمة المقال ، حيث يرسم لرجال الأزهر طريق السير في هذه الغاية فيقول لهم :

هذا ما يكلف الله به طلبة العلم ؛ ويفرضه عليهم ، ويأمرهم به ، وينهاهم عن مخالفته ، وهذا حال السودان على ما شرحناه ، فما التعلّة التي يقابلون بها الناس في الدنيا ، ويلقون بها الله في الآخرة ؟

فإن قيل إن رقة القروى الأزهرى الرواقى تمنعه من تجشم الأسفار ، ومضارعة الأهل والأوطان ، قلنا لمجلس الإدارة في الأزهر إن لديك جماعة من طلبة العلم السودانيين ، لا تعوقهم رقة الحضارة عن الرجوع إلى أوطانهم التي طالما خفوا إليها، ولا يتعذرون عليك اتدابهم بهذا المييل الخيد ، لتحرز لك ولهم وللسلمين شرف الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

أما إذا تقاعد أهل العلم ، وتقاعس أهل الفقه ، وتكاسل أهل الفضل من العلماء وأئمة الدين ، وحملة الكتاب في الأزهر الشريف عن هذا العمل الواجب ؛ وسمعنا بعد ذلك بنجاح دعاة الأديان الأخرى في مساعيهم وأعمالهم مع السودانيين ، فيكون الإثم والجرم والذنب أطواقا في عنق كل من يتصدد في المجالس ويدعى الفقه والعلم والإرشاد والهداية ، ويبسط اليد للتقيل ، والذيل للتبريك .

والكاتب في هذه العبارات السابقة أكثر هدوءاً واتزاناً ، وأدنى إلى الروية والتريث ، وأميل إلى التبسط في القول ، والإطالة في الأسلوب ؛ كما في قوله «أما إذا تقاعد أهل العلم ، وتقاعس أهل الفقه ، وتكاسل أهل الفضل الخ» . وكما في قوله « فيكون الإثم والجرم والذنب أطواقا في عنق كل من يتصدر في المجالس ، ويدعى الفقه والعلم والإرشاد والهداية . »

الأتري أيها القارىء أن الإثم هو الجرم هو الذنب ، ولكن الذى حمل الكاتب على الإتيان بهذه الألفاظ الثلاثة أمران . أولهما رغبته في

الإتيان بهذا التشبيه للكلام بالأطواق . وثانيهما ميل الكاتب إلى التبذير في الالفاظ تبذيراً لا يذكرنا إلا بميله المعروف إلى التبذير في المال .

وأخيراً بعد الأسطر الكثيرة ، والعبارات الطويلة والصور المتلاحقة يحتم الكاتب مقاله بهذه العبارة « وقد بسطنا القول ، وأوضحنا الكلام ، وبيننا مقدمات الأعمال . ولا شك أن من له مسكة من العقل يصل إلى معرفة نتائجها التي تأتي بأعظم المصائب على الإسلام ، وأنتكي النواب على الدين الحنيف » .

والآن — وقد فرغنا من عرض هذا المقال — يجمل بنا أن نلقى عليه نظرة أخرى من أعلى ، نقف بها على الخصائص العامة التي تميزه فهل كان هذا المقال صحفياً ؟ أم هما معاً ؟ .

لقد صح عندي بعد قراءة هذا المقال أنه إلى الخطبة أدنى منه إلى المقالة كما صح عندي — مع ذلك — أنه يشتمل من عناصر المقالة الصحفية على عنصرين هامين ؛ ينبغي أن نشير إليهما إنصافاً للويلحي الصحفي ، واعترافاً باستعداده العظيم لمهنة الصحافة ونجاحه فيها رغم تغلب الأسلوب الأدبي عليه وهذان العنصر الصحفيان هما :

أولاً : عنصر السخرية ، وقد سبق لنا القول في الجزأين السابقين من أجزاء هذا الكتاب إن المقال الصحفي يجب ألا يخلو — عادة — من هذا العنصر ، مادام الكاتب الصحفي في معرض النقد والتوجيه ، بحيث إذا خلا المقال الصحفي في هذه الحالة من السخرية الخفيفة أصبح لا غناء فيه .

ثانياً : الهدوء ، ونعني به اعتدال الكاتب الصحفي في إظهار عواطفه للقراء . وقد سبق لنا القول كذلك إن هنا فرقا — من هذه الناحية — بين الصحفي والخطيب . والآخر صاحب الحق في إثارة الجماهير في تحريك مشاعرهم عن طريق الغضب أو الثورة . والأول — وهو الصحفي — لا يليق به أن يتخذ لنفسه موقف الخطيب في إقناع الجماهير بل عليه أن

يعتمد في كل ذلك على قدرته في الإتيان بطائفة من اللغات النحوية حيناً ،
واللغات الشعورية حيناً ، بحيث يتمثل القراء رجلاً هادئاً رزيناً ، لا تفارق
فه ابتسامة رقيقة ولكنها قائمة .

ولا يعجب القارئ من هذه التفرقة التي نحدثها دائماً بين لغة الأدب
المخالص ولغة الصحافة الخالصة ، فأزلنا حريصين على إيجاد هذه التفرقة ،
ونمازلنا فننظر إلى الأدب المخالص على أنه له أسلوباً خاصاً وغاية حيوية
خاصة ، وأن للصحافة الخالصة أسلوبها وغايتها وأهدافها ، ووسائلها اللغوية
التي تختص بها .

ويرى القارئ في جريدة (مصباح الشرق) مادة أخرى من المواد
الأدبية التي أشرنا إليها من قبل ، وأكبر الظن أنها بقلم إبراهيم المويلحي نفسه ،
وإن كان لم يوقع باسمه تحتها . ولكننا نعرف أنه صاحب الجريدة ومحررها
في ذلك الوقت هو الذي كان يكتب جميع موادها بنفسه ، وقلنا يستعين
في ذلك بغيره .

ولإبأس هنا من أن نقول للقارئ هذه المادة وله بعد قراءتها أن يلاحظ
عليها ما يشاء من الملاحظات . وهذه هي المادة التي نشير إليها متقولين من
نفس العدد الذي نقلنا منه المقالة الافتتاحية السابقة :

الغضب

« فإن قال قائل إن للغضب حلاوة ، وإن في مقابلة الشر بالشر لذة
أنكرنا ذلك عليه كل الإنكار وقلنا له : إذا كان في مقابلة الخير بالخير لذة
وإرتياح ، وكان وجه الجميل جميلاً ، فإن العكس في مقابلة الشر بالشر .
والسكرام من يخجل من الانهزام في ميدان الخير ، كما يخجل من الانتصار
في ميدان الشر .

أما الانتقام فهو مما يترفع العاقل عنه ، وإن كان يتناول معنى العدالة ، وهو لا يختلف عن بادرة الغضب إلا بمضى الزمن في التربص له . ومهما خف الانتقام ولطف فإنه لا يفترق عن الإساءة والإضرار إلا بالتماس العذر لفاعله .

لطم أحد الناس حكياً من الحكماء في طريقه على غير عمد فلما رجع يعتذر إليه من اللطمة قال له الحكيم : فيم الاعتذار ؟ ما أذكر أنك لطمتني ؛ وذلك لأنه رأى بحكمته أن تناسى الإساءة ، والتغافل عنها أجل في النفس من ذكرها ، وأفضل من الانتقام لها ، وأرق من العفو عنها .

ورب قائل يقول : أما وجد الحكيم في نفسه حرجاً ومضناً من وقوع تلك اللطمة عليه ؟ فيقول : إنه لم يجد إلا ارتياحاً وانسراحاً ، لأن النفس الكبيرة يزدهيها أن تحقر الإساءة ومن صدرت عنه ، وألذ ما في باب الانتقام للمتقمم ؛ وأسكى ما فيه للمتقمم منه أن تحكم على المعتدى عليك بأنه ليس أهلاً بأن يستفرك الغضب عليه .

وكم من متقمم لأمر صغير جره الانتقام إلى أمور عظيمة ، وأضرار بليغة . فلنترفع ، ولننتكرم ، ولنفعل ما يفعله ملك الضواري إذا رن في أذنه صوت الأكاب الغضف لم تطرف نحوها عينه ، ولم تتحرك منها نفسه . فإن قلت : إن الانتقام يوجب الاحترام ، قلنا : إنك إذا أردت أن تستعمل الانتقام كالدواء فلا حاجة إلى إضافة الغضب إليه ، ولا ضرورة لأن ترى فيه تلذذاً وتشفيماً ، ولكن اعتبره فعلاً نافماً .

ويجب على العاقل الحكيم أن يحتمل الإساءة من الأقوياء بالصبر ، لا بل بالبشاشة والارتياح ، لأنهم إذا شعروا بسوء قولها ، وسوء وقعها ، والتأثر منها ، زادوا عليها وضاعفوها . وأكبر عيب فيمن أسكرم الدهر بالمناصب والمعالى أنهم يزيدون على إساءتهم الحقد على من أساموا إليهم . ولا محل للحقد بعد الإساءة وقد قيل لرجل اكنهل وشاخ في خدمة الملوك

«كيف بلغت هذه السن ؛ وهو شاذ نادر في قصور الملوك ؟» فقال : «بلغته بقبول الإساءة والشكر عليها .»
وقد يوجد الإنسان في حال يكون إظهار التأثر فيه من الإساءة أشد خطراً منها .

ويحكى أن الباغي الطاغى ثالث قياصرة الرومان اشماز من تكلف شاب في زيه وزينته وهيته وشارته ، وكان ابن كبير من كهراء الرومانيين ، فأمر بسجنه ، فجاء أبوه يلتسن العفو عنه فقال القيصر : قد قتلتته . وأمر في الحال بقتله . ثم أراد أن يخفف عن الأب من مصيبتة ، فدناها إلى مائدته في ذلك اليوم ، فحضر الرجل وليس على وجهه أثر من الحزن والغضب ، فناوله القيصر بيده قدحاً من الخمر بعد أن وكل به من يراقبه ، وكانما هو في هذه الحالة يناوله في الكأس دم ابنه . فشرب الشيخ انقدح إلى آخر نقطة فيها . ثم أمر القيصر بتضميخه وتعطيره وتوجيهه بالزهور ، وهو ما كان يفعل في مجالس أنسهم وسرورهم ، فتقبل الرجل كل ذلك بالبشاشة وأخذ يجلسه على مائدة الملك مع تسعة وتسعين شخصاً ، وظل في يوم موت ابنه على شيخوخته وتقوسه يتغالى معهم في طهيم ولعبهم ، كأنما جاءت البشرية بمولود يرثه ويحفظ ذكره .

بشرى الغنى أبي الثبات تابعت بـبشراؤه بالفارس المولود
وكانى بك تقول : ما سبب هذه المذلة والمسكنة والحيلة والدناءة ؟ فأقول
لك : كان للرجل ابن ثان ، يريد أن يحفظ حياته من هذه اليد المطلقة في الظلم . وإنما كان الرجل ليتأخر عن مصادمة ذلك الطاغية لولا كان ما يخشاه متعلقاً بنفسه وحدها . ولكن المحبة الطبيعية الأبوية قد تغلبت على كل تأثر واقعمال . ولولا كنهانه ما يغنى في صدره من الحزن ، وإظهاره ما تكلفه في حضرة الملك من البشاشة والتلاهي ؛ حتى أعجب به الملك لكان الإبن الثاني لحق بالإبن الأول .

والعقل يرشدنا أن نمتنع عن الغضب على ما هو مساو لنا في المنزلة ،
وعلى من هو فوقنا في القدر ، وعلى من هو دوننا في الدرجة ، فإن الانتصار
في مصارعتك من هو مساو لك في هذا الميدان مشكوك فيه . ومصارعتك
من هو فوقك جنون . ومصارعتك من هو دونك جبن ودناءة .

* * *

ولا يكتب هذا المقال غير رجل عرك الأيام والرجال ، وبلا الكثير
من أمور السياسة ودهاتها ، بل لا يكتب هذا المقال رجل فيه سذاجة الأطفال
أو في أعماق نفسه سخط شديد على الحياة والأحياء من نوع هذا السخط
الساذج الذي عبر عنه المتنبي في قوله :

ومن عرف الأيام معرقى بها وبالناس روى رحمه غير راحم
فليس بحر حوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجارى عليهم بآثم

بل الحق أن هذا المقال لا يصدر أيضاً إلا عن كاتب من كتاب الملوك؛
عرف أخلاقهم ، ومارس جبروتهم ، وانتفع بصحبتهم بقدر ما أودى بها ،
وصدق الكاتب الإسلامى القديم عبد الله بن المقفع حيث قال :

« إن صاحب الملك كراكب الأسد ، يهابه الناس ، وهو لمركبه أهيب .»

وتدع هذه المادة الأدبية لنعرض على القارىء مادة أدبية أخرى من
مواد « مصباح الشرق » ، ولعل هذه الأخيرة من مواد هذه الجريدة أقرب
المواد جميعها إلى الأدب بمعناه الصحيح . فقهيها تعرض لنا الجريدة نموذجاً
جديداً كل الجدة هو « القصة » ولطرافة هذه المادة من ناحية وأهميتها من
ناحية ثانية فقد خصصناها بفصل من فصول هذا الكتاب هو الفصل التالى :

الفصل الرابع

القصة في جريدة «مصباح الشرق»

في كتاب غير هذا الكتاب ألقيت على نفسي وعلى القارىء هذا السؤال:
هل كانت القصة الاجتماعية في مصر حدثاً أدبياً أو صحفياً ليست لها
مقدمات؟ أو كانت هذه القصة الاجتماعية أمراً له مقدمات! ثم حاولت
الإجابة عنه بعد ذلك فيما يلي:

منذ ظهرت الصحف الشعبية في مصر وهي منبر عام لرجال الإصلاح
من أمثال محمد عبده وعبد الله النديم والمويلحي الكبير والمويلحي الصغير،
والسيد على يوسف ولطفي السيد، ومصطفى كامل ومن إليهم، وقد سعى كل
واحد من هؤلاء أن يضع يده على الداء، أو على طائفة الأدواء التي كان يشكو
منها المجتمع المصري إذ ذاك، حتى أصبح «الإصلاح» حديث العام والخاص،
بل أصبح «الإصلاح» مادة من أهم مواد الصحيفة التي ترجو لنفسها البقاء.
عاب المصلحون على مواطنيهم في الصحف المصرية أموراً شتى: منها
تهاقهم على محاكاة الأوروبيين فيما لا يتفق والعادات الشرقية والتقاليد الدينية.
ومنها ميلهم إلى تصديق البدع والخرافات بما أتلّف دينهم، ووران على قلوبهم،
وجعل على أبصارهم غشاوة.

ومنها سكوت بعضهم عن التدخل الأجنبي الذي استفحل شره في بلادهم،
وكاد يفقد قوميّتهم وشخصيتهم، كما أفقد حريتهم واستقلالهم، ومنها
البؤس الاقتصادي الذي قسم البلاد قسمين أو طبقتين متباعدين: طبقة
الفقراء الذين لاحظ لهم من مال أو ثروة، وطبقة الأغنياء الذين لهم كل
المال والثروة، ومنها الجهل الذي حرم سواد الأمة العلم، وكان من أيسر
مظاهره أن بقيت المرأة المصرية حبيسة دارها، مقهوره على أمرها،

لا تعرف من شأن الحياة الاجتماعية خارج الدار أكثر مما يعرفه الصبي .
عاب المصلحون على المصريين كل ذلك . وصوروا لهم الحكومة المصرية
عاجزة كل العجز عن إصلاح القضاء ، والتعليم ، والأمن ، والصحة . كما
صوروا لهم حالة الموظف المصرى وقد استبد بقلبه اليأس ، وغلب عليه
الشعور بالذل ، ومد يده إلى الرشوة لصغر راتبه الشهرى ، وبنى حياته على
(المحسوية) لأنها الطريق الوحيد إلى الترقى !

وجاءت كتابات النديم ، ومحمد عبده ، وبشارة تقلا ، وعلى يوسف ،
وغيرهم مشخصة هذا الداء القاتل ، منادية بطلب الإصلاح العاجل ، مرغبة
جميع المصريين فى الأخذ بأسباب التقدم الصحيح حتى لا تبقى مصر متخلفة
عن الدول الأخرى .

ثم إن الكتاب الكبار من أشرنا إليهم أفادوا من نقد الأجناب للمصريين
فى كتبهم التى كتبوها عن مصر ، كما أفادوا من تقارير الوكالة البريطانية التى
اعتادت أن تسكتبها عن المصريين فى كل سنة . ونظر الصحفيون إلى هذه
الأقوال والتقارير نظرة عاقل حكيم على أنها مرآة لأخلاقنا ، وجمعنا ،
وعقرونا . وكثيراً ما تعرف الشعوب تقائصها على يد أعدائها ، كما قال ذلك
صاحب الأهرام فى مقال له (١) .

وعلى هذا فتحن حين نبحث عن المقدمات الأدبية والتاريخية لظهور
القصة المصرية بهذه الصبغة الاجتماعية فلا مفر لنا من القول بأن :
(أولى المقدمات) هى ظهور الصحافة المصرية . فقد كانت هذه الصحافة
فى ذاتها نشاطاً فكرياً مهد لظهور القصة المصرية . وهذا هو السبب فى أن
القصص المصرى اتجه فى أول أمره اتجاهها اجتماعياً - كما قلنا . ولعل أول دليل
يمكن أن نسوقه على ذلك هو ظهور القصة المعروفة فى الأدب المصرى
بمحدث عيسى بن هشام ، للمويلحى . وهى قصة بالمعنى الصحيح الذى
اتفق عليه النقاد .

ومن أجل هذا استحدثت طويلاً عنها—ولكن بعد الفراغ من الحديث عن المقدمات التي سبقتها . وهي المقدمات التي تحدثنا الآن عن واحدة منها . أما (الثانية من هذه المقدمات) فهي جهود الكتاب الأدباء من غير المنقطعين للصحافة، ورغبة منهم في إشعار المصريين بتلك العيوب، وبثأرواح الاستياء والكرهية لهذه العيوب، وخلقاً الرغبة الصادقة في التخلص منها في أقرب وقت مستطاع .

ومن هؤلاء الكتاب الأدباء على سبيل المثال : محمد فريد وجدى . وذلك في كتابه « تطبيق الديانة الإسلامية على النوااميس المدنية » . وهو الكتاب الذي أعيد طبعه فيما بعد بعنوان « المدنية الإسلامية » . وفيه يتحدث الكاتب عن فكرة الأوربيين عن الإسلام، ويقدم الدليل على خطأ هذه الفكرة، لأنهم بنوها على علمهم بالبدع والخرافات التي حملت حملاً على الإسلام، وجهلهم بالإسلام نفسه على حقيقته .

وهكذا جاء هذا الجهد من جانب الأدباء غير الصحفيين في سبيل الدفاع عن الدين مؤيداً للجهد الذي بذله الصحفيون في هذا السبيل . فهذا « قاسم أمين » لفت إليه أنظار المصريين بكتاب له عنوانه (المصريون) رد فيه على (دوق داركور) الذي تعرض لنم الدين الإسلامي .

ثم عاد قاسم أمين فلفت إليه أنظار المصريين بكتابه العظيم الذي دافع فيه عن المرأة المصرية، وعنوانه « تحرير المرأة » وأحدث كتابه ضجة كبيرة في مصر، وانقسم المصريون بسببه شيعاً في ذلك الوقت .

وأما (ثالثة المقدمات) التي مهدت لظهور القصة الاجتماعية فهي ظهور طبقة المترجمين إلى جانب الأدباء والصحفيين، ومن هؤلاء على سبيل التمثيل (أحمد فتحي زغلول) — وقد ترجم كتاباً مشهوراً للكاتبة الفرنسية (آدمون ديمولاتد) بعنوان : « بم تقرم أفضلية الإنجليز السكسونيين » ترجمة فتحي زغلول عام ١٨٩٩ أعنى في نفس السنة التي نشر فيها كتاب

قاسم أمين ونشر فتحى زغلول ترجمته فصولاً وعلى هيئة مقالات ظهرت تباعاً فى صحيفة المزيد ، وذلك على نحو ما نشر قاسم أمين كتابه (تحرير المرأة) .

ونظر المصريون إلى الكتاب الذى ترجمه فتحى زغلول على أنه يمسمهم ، ويصور حالهم ، ويصف أدواءهم . وقد جعل المترجم عنوان الكتاب الذى ترجمه هكذا «سر تقدم الانجليز السكسونيين» . وكتب فتحى زغلول لهذه الترجمة مقدمة كانت أشهر من الكتاب نفسه ، وأعظم منه تأثيراً فى نفوس المصريين خاصة . جاء فيها قوله :

«نحن ضعاف أمام الغرب : ضعاف فى الزراعة ، ضعاف فى الصناعة ، ضعاف فى التجارة ، ضعاف فى العلم ، ضعاف فى العزيمة ، ضعاف فى الألفة والمودة ، ضعاف فى النخوة والشعور الملى (يريد الدينى) ، ضعاف فى الجامعة القومية ، ضعاف فى الخيرات ، ضعاف فى طلب الحقوق وأداء الواجبات ، ضعاف فى حفظ ما ترك الآباء ، ضعاف فى التحصيل ، ضعاف حتى أصبحنا نرجو كل شىء من الحكومة ، إلخ .

ثم ختم كلامه بقوله :

ودواؤنا فى التربية ، وسلامتنا فى نشر العلوم والمعارف .
وهكذا كانت الترجمة طريقاً من الطرق المؤدية إلى ظهور اقصة التى تعنى عناية خاصة بالمجتمع .

(ورابعة المقدمات) التى أدت إلى ظهور القصة الاجتماعية هى التقارير التى صدرت عن الوكالة البريطانية . ونخص بالذكر منها تقارير اللورد كرومر — ذلك الرجل الذى عاش فى مصر وحكمها حكماً فعلياً زهاء خمس وعشرين سنة استطاع فى أثناءها أن يدرس المجتمع المصرى من جميع الوجوه ، وأن يضع يده على الدمل الذى يشكو منه المصريون على اختلافهم — وهذا الدمل هو الجهل . وعلى الرغم مما اشتملت عليه هذه

التقارير من التهم البعيدة عن العدل ، والمنافية للحق ، وعلى الرغم من التعصب السياسى والتعصب الدينى الذى بدأ من جانب اللورد فى كل وقت ، فان هذه التقارير حركت همم المصريين ، وحفزتهم إلى العمل على دحض هذه التهم بطريق الكتب حيناً - كما يفعل الأدباء المؤلفون ، أو طريق المقالات الصحفية أحياناً - كما فعل كتاب الصحف محترفين وغير محترفين .

تلك إذن هى المقدمات الأربع التى سبقت ظهور القصة المصرية. وورسنت لها الطريق الذى سارت فيه ، والصبغة التى اصطبغت بها ، وهى الصبغة الاجتماعية .

وزيد قبل أن نعرض (لحديث عيسى بن هشام) للويلحى - وهى أولى القصص المصرية الاجتماعية - أن نسوق دليلاً على اتجاه التأليف المصرى فى ذلك الوقت ناحية العناية بالمجتمع . وهذا الدليل الجديد هو كتاب «حاضر المصريين» وسر تأخرهم ، ألفه أديب مصرى يقال له «محمد عمر» . وظاهر من عنوان كتابه هذا أنه مطابق كل المطابقة لعنوان الكتاب الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو «سر تقدم الإنجليز السكسونيين» وذلك الكتاب الذى ترجمه أحمد فتحى زغول - كما قلنا - والذى لاشك فيه أن (محمد عمر) قرأ الكتاب الأخير قراءة جيدة ، وأنه كان يفكر فيه تفكيراً جيداً ، وذلك عندما شرع يؤلف كتابه هذا .

ظهر كتاب «حاضر المصريين» وسر تأخرهم ، عام ١٩٠٢ فى نحو ثلاثمائة صفحة ، صور فيها الكاتب وجوه الضعف الذى يشكو منه المجتمع المصرى . والعجيب أن الذى كتب مقدمة الكتاب هو ذلك الأديب المشهور والعالم القانونى الكبير أحمد فتحى زغول .

والقارىء للكتاب الذى ألفه محمد عمر يرى أنه عمد فيه إلى تقسيم المجتمع

المصرى إلى طبقات ثلاث : الطبقة الغنية ، والطبقة المتوسطة ، والطبقة الفقيرة
وذهب إلى أن لكل واحدة منها عيوباً تختص بها ، وراح يذكري ما يراه علاجاً
حاسباً لكل عيب منها على حدة .

* * *

والقصة قديمة في الأدب العربي كانت تحيا بحياته وتموت بموته ، وحين
جد الأدب العربي فترة من الزمان جمدت معه القصة بل زالت من الميدان
الأدبي ، ثم بعثت بعثاً جديداً مع النهضة المصرية الحديثة ، وشاء القدر
أن يكون هذا البعث على يد المولحيين : الكبير والصغير ، وكانا يعملان
معاً في هذه الجريدة الأدبية العظيمة التي تتحدث عنها وهي جريدة
« مصباح الشرق »

وقد استطاعت هذه الجريدة أن تقدم لقرائها قصتين كبيرتين من أروع
القصص العربية الحديثة من حيث الموضوع ، أما القصة الأولى « حديث
عيسى بن هشام » لمؤلفها محمد المولحي وأما القصة الثانية « حديث موسى
ابن عصام » لابنه إبراهيم .

وإن التاريخ الأدبي لينظر إلى هاتين القصتين على أنهما يمثلان الطور
الأول من الأطور التي خضعت لها القصة المصرية الحديثة ، كما ينظر إلى
المولحيين على أنهما رائدان كبيران من رواد النهضة الحديثة في ميدان عظيم
من ميادينها وهو ميدان « القصة » .

وقد ظهر حديث عيسى بن هشام على صفحات مصباح الشرق قبل
ظهور حديث موسى بن عصام على صفحات هذه الجريدة بسنة على الأقل ،
ومن أجل ذلك ظان كثير من القراء في عصر المولحي أن حديث « عيسى
ابن هشام » لا يمكن أن يكون من تأليف « محمد » ولا بد أن يكون من تأليف
« إبراهيم » . وروح لهذا الرأي أحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة ، ومازالت
أسمع من بعض المعمرين إلى يومنا هذا أنهم أميل إلى هذا الرأي .

ولكني حين قرأت بنفسى حديث عيسى بن هشام ، ثم قرأت بنفسى ما بقى لنا من حديث موسى بن عمام ، تبيّنت فروقا كثيرة بين الحديثين ، ونفيت أن يكونا معا لإبراهيم دون ولده محمد ، ولا يتسع المجال هنا لعرض هذين الحديثين أو لعرض بعضهما ، ومن ثم نكتفى بعرض جزء فقط من حديث موسى بن عمام لإبراهيم المويلحى ، ونشفح ذلك بنقد لهذا الجزء وحده أولا ، ثم بالموازنة بينه وبين حديث « عيسى بن هشام » من حيث الأسلوب ومن حيث الفكرة .

وكثيراً ما يقرأ القارىء فى جريدة مصباح الشرق ، وتحت عنوان « الحوادث الداخلية » ، قول المحرر على سبيل الإعلان : « جاء موسى بن عمام يحدث الناس بتلبيحه ولا يغيب عنهم عيسى بن هشام بتصريحه » ، وربما كان ذلك أول ما يلاحظه القارىء أى أن حديث عيسى بن هشام قائم على التصريح لأنه قد ظاهر للجمهور المصرى لاموارية فيه ولا خفاء ، ولا رمز فيه ولا تعمية ، أما حديث « موسى بن عمام » فنقد للنفس الإنسانية على أساس الرمز ، والتلبيح والكناية ، والتعريض ، ونحو ذلك . فهما إذن متفقان فى الغاية ومختلفان فى الوسيلة ، وهذا أول فرق من الفروق التى يلاحظها القارىء و ثم فروق أخرى سنعرض لها كذلك ، ولكن بعد أن نعرض على القارىء قطعة من حديث « موسى بن عمام » ثم قطعة من حديث « عيسى بن هشام » لتسهيل الموازنة بينهما . ونحن نعلم أن كتاب المويلحى الصغير مشهور منشور على الناس سهل تناوله بينهم فى أيامنا هذه . أما حديث المويلحى الكبير فلم تبق لنا منه إلا قطع قليلة ، لا يعرفها الناس فى الوقت الحاضر ، وربما لم يسمع بها منهم إلا قليلون . ومن أولى هذه القطع ما كتب لإبراهيم بعنوان « مرآة العالم » ، أو حديث موسى بن عمام (١)

(١) انظر جريدة مصباح الشرق العدد ٦٠ من السنة الثانية جابج ٧٧ يونيو سنة ١٨٩٩

مرآة العالم (١)

حديث موسى بن عصام

حديث موسى بن عصام قال :

نشأت وما انحنت منى الأضلاع على أشد من حب الاطلاع ، فكنت
أستقطر الأخبار من أفواه الناس ، وأستقريء الآثار من كل الأجناس ،
وأستطلع الأنباء ، وأستقصي الأشياء ، وأستبطن الأحوال ، وأستظهر ضمائر
الرجال . فإتركت من أترابي . ولا غادرت من أصحابي من تخطتني سيرته ،
أو تخفى علي سريره . وما سمعت بشيء إلا علمته ، ولا عدت على أثر
إلا ترسمته :

وعلمت حتى ما أسائل واحدا عن علم واحدة لكي أزدادها
وما زادني شغفي ، وضاعف من كافي ، لمتابعة الارتحال . ومزاولة الانتقال ،
حبا في الاطلاع ، على كل البقاع قوله تعالى « قل سيروا في الأرض » .
فاتخذ الأمر بالرغبة ، فخلت لي الغربية ، والسير في الأرض يجعل العمر أعماراً ،
ويعد في الأيام فيجعلها أدهاراً ، وإذا غبت عن بلدك شهراً ثم عدت إليه
أدركت اتساعاً في ذلك الظرف لا متلائمه بما مررت عليه . والأرض للبر
دار . ومن المعجز ألا يعرف امرء داره ، وأن ينزوي في زاوية منها فيجعلها
مستكنه وقراره . وأهلها أهله فإن نأى عنهم بجازبه ، فقد عاق في
مقاطعة أقاربه :

إنما الأرض والفضاء كتاب فاقراوه ونقبوا في الكتاب
وبهذا التنقيب فتح أولو الهمم والأقدار ، خزائن الطبيعة وكنوز الآثار
والحياة نسيج ساذج توشيه الأسفار ، والفمر حليفة ملساء تنقشها الأخطار ،

(١) اظر جريدة مصباح الفرق العدد ٦٦٠ - السنة الثانية بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٨٩٩

والمرء كالدينار منفعتة في تداوله واغترابه، وضياعه في اكتنازه واحتجابه.
فاستخرت الله وعليه توكلت ، وأخذت أهقي ورحلت . فسرت عامة
الليلة وسراة اليوم . حتى انتهيت إلى سوق تعرض فيه الركائب للسوم
فاشتريت ظهراً أركبه ، واستأجرت دليلاً أصحبه ، وجعلت أجوب القفر
بعد القفر ، ينشرني حره ، ويطوئني قره ، وأركب البحر بعد البحر ، يتوارى
عني بره ، ويتراعى لي شره . أخوض الغمرة بعد الغمرة ، ولا أقوم من
العثرة إلا إلى العثرة :

ذرعت الفلا شرقاً وغرباً لحاجتي وصيَّرت أخفاف الماطى ذراعه
فلا بر إلا قد طويت بساطه ولا بحر إلا قد نشرت شراعه
وبينا نسير في عرض اليم ، ونخوض عباب ذلك الخضم ، إذا بالأعاصير
قد هبت من رقادها ، وصيرت الأمواج من أجنادها ، فحسى بينهما وبين
السفينة وطيس الهيجاء ، ولم ينفع استئماننا بالراية البيضاء .

وبلنظن الأمواج يرى عبابه بحر جرة الأذى^(١) للعبير فالعبير^(٢)
مطعمة حيتانه ، ما يغبها^(٣) ما كل زاد من غريق ومن كسر
إذا اعتنقت^(٤) فيه الجنوب تكفأت جواريه أو قامت مع الريح لا تجرى

فشتت القلوب في الصدور ، وانفتحت بين الأمواج القبور ، واشتغل
كل بنفسه ، ينظر بعينه إلى رهسه ، وانقطعت خيوط الآمال ، بمقراض
الآجال ، وحانت ساعة ساوى الموت فيها بين العباد ، ولم يعبا باختلافهم
في ساعة الميلاد .

وحدقنا في وجه الموت تحديق النسر في عين الشمس . ووقفنا وقفة
المقتول بين السيف والرأس . وقد تغلبت جيوش العرافة وقضى الأمر ،
وانكفأت السفينة فالتقمها البحر ، وإذا بيد قدفتي إلى جزيرة قهراء ،

(١) الأذى هو اللوح (٢) والعبير هو الشاطئ (٣) ما يغبها أي لا ينقطع عنها
(٤) اعتنقت تعابكت . والآيات الشاعر العباسي مسلم بن الوليد

ليس بها يابسة ولا خضراء وبعد أن سكن رَوْحِي حمدت الله على النجاة، واقتنعت من رحمتي بسلامة الحياة ، ثم مشيت ولا أدري أين أسير ، وقد متع (١) النهار واشتد الهجير، فرأيت شيئاً قد مله الدهر ومل من الدهر، فأصبحت الأرض وترأ لقوس ذلك الظهر ، ينبعث نور الهداية من أسرته ، وتلوح سبيل التقوى على جبهته. وبعد أن سلمت ورد السلام، قال : ماخطبك يا ابن عصام . لقد كتب الله لك السلامة ، ونجاك من الغرق وأدرتك العناية . قال موسى بن عصام : فاستروحت منه ربح الولاية حين ناداني بإسمي ، وعلم علي . واستبشرت بتقريب البعيد . وتيسر ما أريد .

وقلت : مولاي — إن الله جلّت قدرته قد عليك من لدنه علماً ، وكشف لك من حجب أسراره حجاباً . وأمدك من قدرته ما سخر لك به الكائنات ، وأظهرك بسره من عوامض الممكنات . وجعل لك من فضله نصيباً من التصرف في الكون . فلا يستعصى عليك شيء . ولا يعجزك أمر ، ولي إليك حاجة ، وأنت بقضائها حقيق . فقد علمت ما كشف لك من أمري أن حب الاطلاع هو الذي فصلني عن أهلي . وأخرجني من بيتي . وأبعدني عن وطني . وكفني مشاق الأسفار . واحتمال الأخطار . وجوب الفقار ، وتقطع البحار وشراي الليل وسير النهار، وحاجتي إليك أن تفصلني عن جو الأرض إلى جو السماء . فأرى هذه الكرة في حركتها حول الشمس وعلى نفسها وأرى من عليها في أحوالهم وأعمالهم لا تعظ وأعظ . وأستيقظ وأوقظ . وأذكر المساء بإساءته . والمحسن بإحسانه، فتكون سفينة الغرق بك سفينة النجاة . وأكون قد اجتنبت بك من تعب الحياة راحة الحياة .

(الشيخ) — واغوثاه — لقد طلبت عظيمًا وسألت أمراً خطيراً . وهبني بلغت بك طلبتك : وأمكنتك من الإشراف على هذه الأرض تنظر ارتعاشها في الفضاء ، وتقلبها بين الظلمة والضياء . فكيف لي أن أشد منك فتقوى

(١) متع النهار كتحمتوما ارتفع ليل الزوال والضحى وبلغ آخر ظمجه وهو عند الضحى الأكبر .

على رؤية هذا المنظر المدهش . والمشهد المزهل . وأنى لذلك أن يقوى على مشاهدة جرم الأرض وهي ترتدى في انقضاء فتقطع في اثنائية الواحدة سبعة فراسخ . وتري الجبال تحبسها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء ... » .

واعلم أن الصانع الحكيم جلت قدرته « أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ثم جعل لکم السمع والأبصار والأفئدة ، ليتدرج الإنسان في مشاهدة هذا العالم المدهش ؛ فيقوى على رؤيته بالترقى ؛ ولو خرج الإنسان من بطن أمه وهو مدرك ؛ ثم رأى الشمس في طلوعها لمات فجأة ، وكذلك الإنسان إذا انفصل عن وجه الأرض ورأى مالم يتدرج إلى رؤيته ، من عجيب صنع الله وعظيم قدرته ، قضى دهشة . وعلى أنك لو سالت من هذا لما أغنى عنك انتظار شيئاً لسرعة دورتها ، فاعدل إلى أقرب من هذا إمكاناً وأبعد منه خطراً . واطلب لنفسك طريقاً وسطاً لا تضل فيه ولا تخشى (موسى بن عصام) .

ليس لي خيرة فاختر ، فنك الإرشاد ، وعليك العمل ، فأخذ يدي فرأيت نفسي معه على مكان عال ، وسألني : ماذا ترى ؟ قات : لا أرى شيئاً . فسح يده على عيني فأبصرت ، وعلى أذني فسمعت ، وعلى صدري فشف لي كل شيء . وقال : انظر « فبصرک اليوم حديد » .

فنظرت ويا هول ما نظرت ! نظرت قوماً حائنين بزوال عليه ثوب كطيف الشمس يلمع لمعان الآل (١) . وقد قبض كل واحد منهم على شعاع من ذلك الطيف ، فراقى منظره ، فسألت الشيخ فقال : هذا هو الأمل . ثم أعدت النظر فإذا أنا أرى شخصاً ضخماً عظيم القامة ، تتبعه الناس من جميع الطبقات ، وهم متكاتفون على لثم جذائه ، وأس طرف من ردائه ، فسألت الشيخ من هذا العظيم ؟ فقال هذا هو الباطل .

(١) الآل السراب .

ثم تحولت بنظري فإذا أنا أرى شخصاً ضئيلاً منزوياً تنحامي طريقه
الناس ، وتتحاشى النظر إليه ، وهو حاسر الرأس ، عارى الجسد ، لا تسمَل
ولا طمتر (١) .

فسألت الشيخ : من هذا المسكين ؟ فقال هذا هو الحق .
(الشيخ) : انظر إلى هذين الشخصين من زبانية الدنيا يعذبان الناس
أشد العذاب .

قال موسى بن عمام : فنظرت فوجدت أحدهما آخذاً بخناق الفقراء ،
والآخر ممسكاً بأطواق الأغنياء والكبراء .
وكلاهما يمزق في فريسته ، وشد ما يمزق !

فقلت في نفسي : ما أبشع هذا الوجود ، لراحة فيه لغنى ولا لفقير
ولا سَلَمٌ فيه لعظيم ولا لحقير . ثم التفت فسألتتهما .
(الشيخ) هذان هما الألم والسأم . فلا يفتأ الفقير يَألم ، والغنى يسأم ،
هذا لحاجاته ، وهذا لفراغه . فإن زاد أحدهما نقص الآخر .

يجنى تزايد هذا من تناقص ذا واليوم إن ظال غال (٢) الليل بالقصر
فالفقير يكد ويجهد في تحصيل حاجاته ، فيؤله الكد والجهد ، ولا سلطان
للسأم عليه إلا إذا زايه ذلك الكد والجهد . والغنى بما يجده من حاجاته
حاضراً يسمه الفراغ فيكاد يقتل نفسه ، إن لم يكن لهذا الفراغ شاغل من
العلم . وقد اخترع الناس أنواع الألعاب من نرد وشطرنج وغيرهما ليشتغل
ذلك الفراغ . بتقلب الإرادة .

وإن السأم ليورد كثيراً من الأغنياء مورد الانتحار ، فتجد أحدهم
يهرب من قصره إلى المدينة ، ثم يعقب راجعاً إلى قصره ، ثم يفر إلى بستانه ،

(١) السمل الخلق من الثياب والطير بالكسر التوب الخلق .

(٢) قاله : أخذ منه من حيث لا يدري .

ثم يذهب لزيارة صاحبه، فلا يلبث معه إلا ريثما يراه، ثم ينقلب إلى ضيعته، ثم يرجع إلى قصره، فيضرب جواره ويشتم طواهيه على غير ذنب إلا للسأم الذي يهرب منه وهو في صدره اهـ .

• • •

ثم في العدد الذي يلي ذلك، وهو العدد الواحد والستون من أعداد الجريدة يرى الكاتب يمضي في قصته على هذا النحو من الحوار البليغ بين موسى بن عصام والشيخ :

الشيخ : دع عنك هذا الأصفر الرنان ، وإن رنّ وران ، وإن أصبح كالأقوال ، وأمسى كالأفوان . وارجع البصر ثم ارجع البصر ، إلى هذه العظمت وهذه العبر ، وتأمل فيها تأمل المنجم في اصطرلابه ، والمدقق في حسابه . وخلق بمن في هذا الموقف أن يرى عجائب هذا الوري ، فقد دفعت بك على صرح الحكمة ومنار الاعتبار ، وكشفت عنك غطاءك ، فلكك اليوم بصائر وأبصار .

قال موسى بن عصام : جلّت بنظري فرأيت رهطاً يقرعون باب غني ، قد أوصده قبل دخول العشي الخ .

ثم مضى المويلحي في إيراد حادثة أخرى لرجل غني شديد البخل ، وقد دخل عليه رهط من الزائرين يلتمسون منه أن يكتب لهم مبلغاً من المال على سبيل التبرع ، ليستعينوا به في مشروع من مشروعات البر . وطفقوا يفتلون عليه ليظفروا منه بهذا المال ولكن بدون جدوى . وخرج الزائرون من بيته محقرين ساخطين ، وهم يرددون قول الشاعر :

لو عبر البحرَ بأمواله في ليلة مظلمة باردة
وكفه ملوءة خردلا ما سقطت من كفه واحدة

أما البخيل فقد خلا إلى نفسه ، وأخذ يناجي ديناره قائلاً : ارجع إلى صرّك لتحفظ فيها وتخزن ، فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن .

وفي هذه العبارة الأخيرة من التضمين ما لا يخفى على قارئه . ثم تخيل الكاتب مناظرة دارت بين هذا الغني البخيل وبين رجل حكيم قال لصاحبه البخيل :

« ولذلك فأنا أغنى منك ومن كل غنى لأنني تخلصت من عقاب الإرادة ، فأصبحت لا أريد ، وعبارة : لا أريد : تزيد على : ملك كل شيء ، ا هـ .

* * *

ثم في الجزء الثالث من هذا الحديث ، وهو ما نشر بالعدد الثاني والستين يجد القارئ موضوعاً ثالثاً من الموضوعات التي عالجها المولى محي ، هو موضوع النفاق والملق والرياء ، وفيه يتهم الكاتب تهكماً مرأياً بالحكم الثنائي في السودان : قال موسى بن عصام « فليحت رايتين تخفقان على أطلال أم درمان ، فقلت للشيخ :

موسى بن عصام : ألتشرك يا مولاي دولتان في الحكم على بلد واحد ؟ وهل يجتمع في غمد سيفان ؟ ويطلع في أفق قران ؟

(الشيخ) : نعم فقد اشتركت الحكومتان في الحرب فاشتركتا في الحكم .

(موسى بن عصام) وأين جيشهما المحارب ؟

(الشيخ) : انظر إلى هذه الجموع .

قال موسى بن عصام : فنظرت فرأيت قوماً من السمر يعملون في الأرض ، وآخرين في الجسور ، وغيرهم في قطع الصخور ، وسواهم في بناء القصور . ومنهم الحاملون لقضبان الحديد ، ومنهم الغواصون لبناء القناطر . . . وقد عدت خمسين منهم يتناوبون في حمل مريض من عامة الجنود الأحمر يقطعون به عشرين ميلاً . ورأيت قوماً من البيض يتفياون ظلل النعيم ، ويأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان . . . الخ

فأما أولئك السمر الذين يعملون الأعمال ، ويرفعون الأثقال ،

وينقلون الجبال ، في وهج الهجير ، فوق حصى الرمضاء وشوك القناد فهم
المصريون أصحاب الراية الثانية ، وهم المحكومون وذلك نصيبهم ، والمسخرون
وتلك عاداتهم .

وهكذا يمضى المويلحي في سخرية متصلة بالإنجليز وبالمصريين على السواء ،
بل هكذا يمضى المويلحي في موازنة مؤلمة ، ومفارقة محزنة بين هؤلاء
وهؤلاء : وليس كالمويلحي وجل يحسن الإتيان بهذه الموازنات ، ولا أديب
يحسن العرض لهذه المفارقات ، بحيث يخرج القارىء من هذا كله بصورة
دقيقة لكل طرف من طرفي هذه الموازنة أو المقايضة .

والعجيب أننا رأينا (مصباح الشرق) تسكت بعد ذلك سكوتاً تاماً عن
(حديث موسى بن عصام) ولا تقدم للقراء جزءاً جديداً من هذه القصة
التي نحاها المؤلف آخر الأمر - ناحية النقد اللاذغ والتهكم المر بهذه الحقبة
السوداء في تاريخ مصر الحديث ، ونفى بها حقبة الاحتلال الإنجليزي
والحكم الثنائي في السودان .

فهل يجوز لنا أن نفهم من هذا أن المويلحي حيل بينه وبين هذا الحديث
بقوة من المحتل لا قبل له بها ، أو بحيلة من تلك الحيل التي جازت عليه في
الماضي ، ومن أجلها كان يعطل جريدة كجريدة (الخلافة) وأخرى كجريدة
(الاتحاد) وثالثة كجريدة (الأنباء) وهكذا ؟

وأعود إلى القصة نفسها أو حديث موسى بن عصام نفسه لأعلق عليه
من الناحيتين الأدبية والتاريخية فأقول :

لست أدى أولاً أكانت هذه القصة متأثرة من حيث الفكرة بالقصص
القرآني ، أم بالقصص العربي غير القرآني ، أم بالقصص الشعبي الذي منه
قصة السندباد البحري أم بكل هذه الأشياء مجتمعة ؟ أم كانت الفكرة من
وحي خاطره فقط ، لأنها فكرة بسيطة في ذاتها ترد لكل ذهن يجب صاحبه
أن يكتب قصة من هذا النوع .

أما القصة في أسلوبها فعندى أن الكاتب متأثر فيه بأسلوب المقامة العربية لا محالة . فالعناية في هذه القصة بالسجع من جهة ، والاهتمام فيها بالأسلوب أكثر من الاهتمام بالموضوع من جهة ثانية . كل أولئك من خصائص المقامة المعروفة في الأدب العربي .

وكننا قد أشرنا في الجزأين السابقين من أجزاء هذا الكتاب إلى تأثير الأدب المصري في أولى مراحل المقامة العربية في أسلوبها . وكان من الطبيعي أن يخف هذا التأثير بالتدرج ، حتى إذا كانت المرحلة التي من رجاها المويلحي الكبير والمويلحي الصغير لم يصبح لأسلوب المقامة العربية هذا السلطان العظيم على الأساليب . غير أن كل لون على حدته من ألوان الأدب يظهر أنه كان يخضع أولاً لتأثير المقامة العربية ، ثم يستقل بشخصيته بعد ذلك . وقد رأينا الصحافة المصرية تمر بدور التقليد والاحتذاء ، ثم تدخل في دور الإصالة والابتكار . وكذلك شأن القصة المصرية ، كان لا بد لها من أن تمر بهذه الأدوار . فإذا صح أن المويلحين الصغير والكبير هما رائداً القصة المصرية الحديثة في مصر ، فمعنى ذلك أنه لا بد من أن يخضعوا أولاً السلطان المقامة من حيث الأسلوب ، ثم يخلفهما في ميدان القصة خلف يتحرر من هذه الأساليب ، وذلك ما قد حدث للقصة في مصر .

والآن علينا أن نردع هذا الاستطراد ، وأن نلخص الملاحظات التي نلاحظها على هذه القطعة الأدبية السابقة فيما يلي :

أولاً — شيوع السجع الذي يصل أحياناً إلى أن يكون سجعاً مجنماً كما في قوله :

نشأت وما نلحنت مني الأضلاع على أشد من حب الاطلاع ، فكنت
أستقطر الأخبار من أفواه الناس ، وأستقرى الآثار من كل الأجناس ،
وأستطلع الأنباء ، وأستقصى الأشياء ، ... الخ .

ثانياً — الاحتفال بالتشبيه والعناية بالصورة إلى درجة كبيرة والأمثلة على هذه العناية كثيرة منها قوله :
فرأيت شبحاً قدمه الدهر ومل من الدهر ، فأصبحت الأرض وترأ
لقوم ذلك الظهر .
والحق أنني لم أجد نظيراً لهذه العناية بالصورة إلا عند رجل
كالقاضي الفاضل .

ثالثاً — صوغ بعض الجمل على طريقة صوغ الحكم كما في قوله « والحياة
نسيج ساذج توشيه الأسفار ، والعمر صحيفة ملساء تنقشها الأخطار . والمرء
كالدينار منفعته في تداوله واغترابه ، وضياعه في اكتنازه واحتجابه » .
رابعاً — استخدام ألفاظ القرآن فضلاً عن الاستشهاد به .

أما الاستشهاد فن قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة .. » الخ وقوله
تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمماتكم لا تعلمون شيئاً ... » الخ .

وأما ألفاظ القرآن فكثيرة ، ومنها قوله : « إن الله جلت قدرته قد علمك
من لدنه علماً الخ . وقوله : « اطلب لنفسك طريقاً وسطاً لا تضل فيه ولا تخشى .
وقوله : « فسح يده على عيني .. » وقال انظر فبصرك اليوم حديد ، وقوله :
« وقد تغلبت جيوش العواصف وقضى الأمر . » وقوله : « وهذه وجوههم
مصفرة وأقنعتهم هواء ... » الخ .

خامساً — وهي الأهم — اعتماد الكاتب على تشخيص المعاني المجردة
بطريقة لم يالفها الأدب العربي من قبل إلا في أوقات قليلة نادرة ، وقد يسمى
بعض الأدباء هذه الطريقة رمزاً . وقد يسمونه تشخيصاً . والرمز والتشخيص
كلاهما من طرق الأداء بالجملة التي لا يقوى عليها غير الأدباء الموهوبين
القادرين على رسم الصورة ، ومراعاة الجوارحيط بها أو الإطار الذي ترسم فيه .
وانظر إلى المولى حين يصور الأمل فيقول :

« فنظرت وريا هول ما نظرت — نظرت قوما حافين بزوال عليه ثوب
كطيف الشمس ، يلعب لمعان الآل ، وقد قبض كل واحد منهم على شعاع من
ذلك الطيف ، فراقى منظره ، فسألت الشيخ فقال : هذا هو الأمل !

ثم صور الكاتب الباطل بنفس هذه الطريقة حيث قال :
ثم أعدت النظر فإذا أنا أرى شخصاً ضخماً عظيم الفاقة يتبعه الناس من
جميع الطبقات ، وهم متكاتفون على لثم حذائه ، وليس طرف من رذاته .
فسألت الشيخ : من هذا العظيم ؟
فقال : هذا هو الباطل ، .

ثم صور الكاتب الحق بنفس الطريقة السابقة أيضاً فقال :
ثم تحولت بنظري فإذا أنا أرى شخصاً ضئيلاً منزوياً تتحاضى طريقه
الناس ، وتتحاضى النظر إليه ، وهو حاسر الرأس ، عارى الجسد ، لاسمل
ولا طمر . فسألت الشيخ من هذا المسكين ؟ فقال : هذا هو الحق .

وبنفس هذه الطريقة أيضاً صور لنا الكاتب معنى الألم ومعنى السأم ،
وحض الأول بالفقراء ، وألصق الثاني بالأغنياء ، وتكشفت له الدنيا عن
حقيقتها في معاملة الأحياء . وصاح الرجل في نفسه : ما أبشع هذا الوجود
الذي لا راحة فيه لغنى ولا لفقر . الخ .

الحق أن قارىء هذه القصة ينتقل فيها من لنة إلى لنة ، ومن فائدة إلى
فائدة ، ولا ينفك يجب إيجاباً مستمراً بكتابتها ، وينظر إليه أيضاً على
أنه فتح على الكتاب باباً كان موصداً عليهم أزماناً طويلة ، وهذا الباب
الموصد هو القصة .

وإلى القارىء - قطعة من (حديث عيسى بن هشام) لمحمد المولى
رأينا أن تبتها في هذا الفصل لتسهل الموازنة بينها وبين القطعة التي نقلناها

من (حديث موسى بن خصام) . ولعل القارىء - بعد أن يغوص إلى روح هذه القطعة التي تنقلها ويمنع النظر في أسلوبها أن يوافقنا على الرأي الذي ذهبنا إليه من أن المويلجى الكبير هو صاحب (موسى بن خصام) وأن المويلجى الصغير هو صاحب (عيسى بن هشام) وأنه لا محل للمنازعة في ذلك.

وكما توخينا أن ننقل للقارىء أول جزء من أجزاء القصة التي كتبها الوالد أو الأستاذ فكذلك تتوخى أن ننقل له أول جزء من أجزاء القصة التي كتبها الابن أو التلميذ ، وهي كما يلي :

المعجزة

حدثنا عيسى بن هشام قال : رأيت في المنام كأنى في صحراء الإمام ، أمشى بين القبور والرجام ، ليلة زهراء قرأه ، يستر بياضها نجوم الخضراء ، فيكاد في سنا فورها ينظم الدر ثاقبه ، ويرقب الدر راقبه ، وكنت أحدث نفسي بين تلك القبور ، وفوق هاتيك الصخور ، بغرور الإنسان وكبره ، وشموخه بمجده ونفوره ، وإغراقه في دعواه ، وإسراجه في هواه ، واستعطافه لنفسه ، ونسيانه لرمسه . فقد شمخ المغرور بأفنه حتى رام أن يثقب به الفلك ، استكباراً لما جمع ، واستعلاء بما ملك فأرغمه الموت ، فسد بذلك الأنف شقاً في لحده ، بعد أن وارى تحت صفائح صحائف عزه ومجده ، وما زلت أسير وأتفكر ، وأجول وأتدبر ، حتى تذكرت في خطاى فوق رمال الصحراء قول الشاعر الحكيم أبى العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بناء وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد
سر إن استطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

فقرعت سن الهندم ، وخففت وطء القدم . وأن في دهباء أولئك
الأموات ، وغمار تلك الرمم والرفات ، لباهم طالما خول العاشق قبلته
لقبلتها ، وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها . قد امتزجت بغباء الغبراء ،
واختلطت ثناياها بالحصى والحصباء . وتذكرت أن تلك الحدود التي كان يغار
منها الورد فيسكى بدموع الندى ، ويشتمل الفؤاد منها بنار الجوى ، ويقف
الحلل منها موقف الخليل من النيران ، أو ابن ماء السماء في شقائق النعمان ،
ويتفرق فيها ماء الحياة وماء الشباب ، قد طوى الدهر حسنها على الكتاب ،
وصار بحكم القضاء أديماً لوجه القضاء . وأن تلك العيون التي صادت بأهدائها
الملوك الصيد ، فكانوا رعاة الأمم رعايا الغيد ، وسحرت يابلن هاروت
وماروت ، وأوقعت موقف الاستكانة رب الجلال والجبروت ، يلتمس
— والتاج فوق يمينه ، وعرق الحياء فوق جبينه — من خلال لحظاتها قبولاً ،
كسائل يمد لالتماس الإحسان كشكولاً ، قد أمست تراباً تحت الرمس ، كأن
لم تغن بالأمس .

وأن ذلك الفاحم الأثيت من الشعر ، الخاطف بيريقة سواد القلب
والبصر ، قد حصدته من منابته يد الزمن ، ففسج الأجل منه ثوب الكفن ،
وأن تلك النهود التي كأنها حقائق من الجين ، تزينت بحب من المرجان ،
أو كرات من جليد انبثق فيها زهر من الرمان ، قد أصبحت كالمخللة على
الصدر ، تحمل الزاد لدود القبر .

كم صائن عن قبلة خده سلطت الأرض على حده
وحامل ثقل الثرى جيده وكان يشكو الضحف من عقده
وأن تلك الرفات والعظام ، من بقايا الملوك العظام ، الذين كانوا
يستغفرون الأرض داراً ، ويحاولون عند النجوم جواراً . وتلك الضلوع
التي انحنى على البطش والحلم ، والشفاة التي طالما لفظت أمر الحرب والسلام ،
وتلك الأنامل التي كانت تبرى القلم للكتاب ، وتبرى بالسيف الرقاب ،

وتلك الوجوه والرموس ، التي استعبدت الأبدان والنفوس ، ووصفت
تارة بالبدور وتارة بالشموس ، قد تساوى الرئيس فيها بالمرءوس فلا تفرق
اليوم ولا تميز ؟ بين الدليل منها والعزير :

هو الموت مثر عنده مثل مقتر وقاصد نهج مثل آخر فاكب
ودرع الفتى في حكمه درع غادة وأبيات كسرى من بيوت العناكب
ترجل في غبراء والخطب فارس وما زال في الأهلين أشرف راكب
وما النعش إلا كالسفينة راميا بغرقاه في بحر الردى المتراكب

وبينا أنا في هذه المواعظ والعبير ، وتلك الخواطر والفكر ، أتأمل في
عجائب الحدثان ، وأعجب من تقلب الأزمان ، مستغرقا في بدائع المقصور ،
مستهديا للبحث في أسرار البعث والنشور ، إذ برجة عنيفة من خلقي ،
كادت تقضى بحتي ، فالتفت التفاتة الخائف المذخور ، فرأيت قبراً انشق
من بين تلك القبور ، وقد خرج منه رجل طويل القامة ، عظيم الهامة ،
عليه بها المهابة والجلالة ، ورواه اشرف والنبالة ، فصعقت من هول الوهل
والوجل ، ضعقة مومى يوم دك الجبل . ولما أفقت من غشيتي ، واتهيت
من دهشتي ، أخذت أسرع في مشيتي ، فسمعته يناديني ، وأبصرته يدانيني .
فوقفت أمثالاً لأمره ، واتقاء لشمره ، ثم دار الحديث بيننا وجرى ، على نحو
ما تسمع وترى . بالتركية تارة وبالعربية أخرى :

(الدفين) : ما اسمك أيها الرجل وما عملك وما الذي جاء بك ؟

فقلت في نفسي . حقا إن الرجل لقريب العهد بسؤال المسكين ، فهو
يسأل غلي أسلوبهما . فاللهم أنقذني من الضيق ، وأوسع لي في الطريق . لأنخلص
من مناقشة الحساب ، وأكتفي شر هذا العذاب ، ثم التفت إليه فأجبت .

(عيسى بن هشام) : اسمي عيسى بن هشام ، وعملى صناعة الأقلام .

وجئت هنا لأعتبر زيارة المقابر ؛ فهي عندي أوعظ من خطب المنابر .

(الدفين) : وأين دواتك — يامعلم عيسى — ودفترك ؟ .

(عيسى بن هشام) : أنا لست من كتاب الحساب والديوان ، ولكنني من كتاب الإنشاء والبيان .

(الدفين) : لا بأس بك فاذهب أيها الكاتب المنشئ فاطلب لي ثيابي ، وليأتوني بفرسي (دحمان) .

(عيسى بن هشام) : وأين ياسيدي يتكفاني لأعرفه ؟

(الدفين) مشمئزاً — قل بالله من أي الأقطار أنت ؟ فإنه يظهر لي أنك لست من أهل مصر . إذ ليس في القطر كله من أحد يجهل بيت (أحمد باشا المنيكلي) ناظر الجهادية المصرية !!

(عيسى بن هشام) أعلم أيها الباشا أنني رجل من صميم أهل مصر ، ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها ، بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها . فإذا تفضلت وأوضحت لي شارع بيتكم ، وزقاقه ورقه انطلقت إليه وأتيتك بما تطلبه .

(الباشا) مغضباً — ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعتك دخلاً . فتي كان للبيوت أرقام تعرف بها ؟ وهل هي (أفادات أحكام) ؟ أو (عسا كرنظام) ؟ والاولى أن تناولينى رداءك أستتر به ، وتصاحبني حتى أصل بيتي .. الخ . وقارىء هذه القصة يشهد أولاً بأن بينها وبين القصص القرآني . ومنه قصة أهل الكهف — شها من ناحية الفكرة . كما يشهد بأن بينها وبين المقامة العربية شهاً قوياً من ناحية الأسلوب .

ثم إن قارىء هذه القصة إذ يأخذ في قراءة (حديث عيسى بن هشام) ليجد بينه وبين (حديث موسى بن عصام) من أوجه الشبه ما قد يجعل على

الظن بأن مؤلف الحديثين واحد : وقد سمعت بنفسى بعض الشيوخ في وقتنا هذا يذهبون إلى هذا الرأي ، ويظنون في المويلحي الكبير أنه صاحب الحديثين ، وأنه ليس لولده محمد من فضل في هذه القصة غير التوقيع .
غير أنه على الرغم من وجوه الشبه بين الحديثين فإن النوق يشهد كذلك باختلافهما اختلافاً يقوى عندى الظن بأن أحد الحديثين لإبراهيم ، وأن الآخر لولده محمد .

وإليك بعض وجوه الاختلاف :

أولاً — تتلاحق الصور البيانية تلاحقاً كبيراً ، وعلى مدى فسيح في حديث تلاحقاً (عيسى بن هشام) بينما تقل إلى حد الاعتدال في حديث (موسى بن عصام) وهذا اختلاف بينهما من حيث السك .

ثانياً — ليس الفرق بين هذه الصور البيانية في الحديثين فرقا فقط من حيث السك ، بل هو فرق من حيث السكيف في نفس الوقت . ومن ثم جاءت صور المويلحي الصغير على تلاحقها وأكثرتها صارخة إن صح هذا التعبير . وجاءت صور المويلحي الكبير أدنى إلى الوقار والهدوء . وإذا جاز أن نعبر عن ذلك بطريق الألوان والأصباغ قلنا أن المويلحي الصغير كان يجب منها اللون الزاهى البراق ، في حين أن أباه كان يؤثر عليه اللون الهادى قليل المعان .

ونستطيع أن نلخص هذه الملاحظة التي نلاحظها على أسلوب هذين الرجلين بقولنا أن أسلوب أحدهما — وهو المويلحي الصغير — يمتاز بالجمال وأن أسلوب الثاني — وهو المويلحي الكبير — يمتاز بالجلال .

والنقاد المحدثون يعرفون كيف يفرقون تفرقة واضحة بين هاتين النصفتين من صفات الأسلوب . ونستطيع نحن — على أساس هذه التفرقة أيضاً — أن نفرق بين هذين الكاتبين .

ثالثاً — على أن بينهما فرقا آخر من حيث الأداء. فقد نصحى إبراهيم منجى التشخيص المادى للبعان المجردة. ونجح نجاحاً كبيراً في هذا التشخيص وكان ذلك عنصراً من عناصر (الجلال) في الأسلوب الذى كتب به هذا الحديث.

أما ولده محمد فلم يسلك هذه السبيل من سبل التعبير، بل حصر همه في تأليف الصور البيانية التي أشرنا إليها على النحو الذى أشرنا إليه. فكان صنيعة هذا صنيع رجل فنان يتعشق الجمال، ويمجى وزاء الزينة اللفظية جرى كتاب المقامات وراء هذه الأشياء. حتى لكأنها الغاية الأولى والأخيرة من كتابة القصة.

والكاتبان الكبيران يشتركان بعد في أكثر الخصائص الأدبية التي أشرنا إليها، ومنها الاستشهاد بالأشعار، والتضمين من القرآن، والسجع، والطباق، والترادف الصوتى للعبارة، أو التقسيم الموسيقى للألفاظ، مع المبالغة الواضحة من جانب الكاتبين معاً في تلك الحاصل.

ومهما يكن الأمر فإن قارىء الحديثين أو اقتصين يشعر شعوراً واضحاً بأن (حديث موسى بن عصام) من إنشاء كاتب طال عهده بصناعة الكتابة، كما طال عهده بمعرفة الناس والأيام، وأن (حديث عيسى بن هشام) من إنشاء كاتب حديث العهد بالكتابة بالقياس إلى الكاتب الأول. وأكبر الظن أنهما كان يشتركان — إلى حد ما — في هذا النتاج الأدبى الممتاز، وأن أحدهما كان يقف من الآخر موقف التلميذ من الأستاذ.

خامساً — وآخر ما يقال في الموازنة بين هذين الكاتبين هو نزوع أحدهما — وهو المويلحى الكبير — في قصته منزع الفلسفة ومحاولة الخوض إلى أعماق النفس البشرية دائماً، ونزوع الثانى — وهو المويلحى الصغير — في قصته منزع الناقد للمجتمع. أى أن الفرق بينهما كالفرق بين رجل

يشرف على الحياة من أعلى الجبل، ورجل يضطرب في الحياة نفسها ، ويخالط
الناس أنفسهم عند السفح. وهكذا كان إبراهيم مخلقاً في السماء ، بينما كان ابنه
محمد ماشياً على الأرض .

كم كنا نود من أعماق نفوسنا أن نجد إبراهيم قد أمّ أمته ، وأخرجها
كتاباً يقرؤه الناس في عصره وبعد عصره .

ولمنا للأسف كل الأسف حين لم نجد إبراهيم قد مضى في كتابة قصته .
ونظر التاريخ الأدبي إلى كتابه « حديث عيسى بن هشام » على أنه أول قصة
مصرية في تاريخ الأدب المصري الحديث ، كما نظر إلى مؤلفه محمد المويلحي
على أنه رائد من رواد النهضة الأدبية إلى هذا اللون الطريف من ألوان
الأدب وهو القصص .

* * *

وهكذا ظهرت القصة المؤلفة أول ما ظهرت في مصر الحديثة على صفحات
« مصباح الشرق » . أما القصة المترجمة فقد سبقتها إلى الظهور على صفحات
« جريدة وادى النيل » . والعجيب أن تلك القصة المترجمة كانت متأثرة في
أسلوبها بالمقامة العربية كما ذكرنا ذلك في الجزء الأول من أجزاء هذا
الكتاب وبقى أسلوب المقامة يحتذى في القصة المصرية على يد ذينك
الكاتبين الكبيرين .

ثم لم يدل الحال على ذلك إلا ريثما ولى كتابة القصة المصرية قريعيلاً جديد
من الأدباء الذين تأثروا من جديد أيضاً بأوروبا . فطفقوا يكتبون القصة
بأسلوب مطلق من قيود السجع ، ومن قيود الزينة ، ومن قيود الماضى
التقديم للأدب العربي .

الفصل الخامس

إبراهيم المويلحي

في مقالات « ما هناك »

كان السلطان عبد الحميد كلما سمع بعالم أو أديب أو فيلسوف أو سياسي ذاع صيته وطارت شهرته في آفاق مملكته يحرص على أن يدعو إليه هذا الرجل ليعيش على مقربة منه ومسمع بعاصمة الخلافة. وهنالك كان عبد الحميد يوفر له أسباب العيش الرغيد في قصر من قصور هذه المدينة الكبيرة، حيث يعيش هذا الكاتب أو العالم أو السياسي أو الأديب في قصر من ذهب، كهذا الذي حبس فيه السلطان يوماً ما السيد جمال الدين الأفغاني مرة، والسيد النديم مرة أخرى، ثم السيد إبراهيم المويلحي آخر الأمر.

وسافر المويلحي إلى الأستانة بدعوة من السلطان . وبعد تردد قصير لم يدم إلا ريثما ضمأنه ابنه علي حسن نية السلطان ، بادر إبراهيم المويلحي إلى الذهاب إلى الأستانة ، وإذ ذلك حظى بمقابلة السلطان الذي غمره بطفه وإكرامه منذ اللحظة الأولى من قدومه. وكان خليقاً بإبراهيم أن ينعم بهذه الحياة الجديدة التي فتحت له أبوابها في عاصمة الخلافة ، ولكن الزمن الذي يعكر الصفو على الناس لم يشأ أن يتيح لإبراهيم هذه الحياة الهادئة الناعمة . وكيف تهدأ الحياة في هذه المدينة التي تموج بالكائدين والدساسين، وأصحاب الشهوات والمطامع الرفيعة والخسيسة ؟ بل كيف تهدأ الحياة في هذه المدينة التي يدرك المقيم فيها بعد زمن قصير أن كل إنسان فيها عين على بقية الناس، وأذن صاغية لأصواتهم وحركاتهم وهمساتهم ونجواهم؛ ولعل فيها شيئاً يصح أن يعلم به السلطان .

هنالك - في الأستاذة - فتح المويلحي عينه على حياة غريبة كل الغرابة. ومع أنه كان لهذا الأديب عهد بحياة الملوك ، وكانت له معرفة بأخلاقهم وأخلاق حاشيتهم ومن يلوذ بهم فإن نظره وقع في الأستاذة على حياة أشد تعقيداً وأكثر ظلاماً وأدنى إلى الرياء والتفاني ، وأقرب إلى الفخامة الكاذبة والفخامة الباطلة من الحياة التي رآها في مصر . هنالك رأى ملكاً يقوم على الجهل ، وسلطاناً يقوم على النعر ، وحكومة لا عمل لها إلا الدس أو الكيد ، وشعباً غارقاً في نومه وجهالته ، تاركاً أمر دينه وديناه لرجل لا يعرف من الدين والدنيا غير نفسه وما يجب لها من الرعاية والصون . بل هنالك رأى دون توشك أن تنتفض لا يكاد يسكها عماد من علم ، أو رباط من عدل ، تلك هي الدولة العثمانية في شيخوختها وقرب نهايتها ، أي في الوقت الذي كانت فيه آيلة إلى سقوط ، مائلة إلى انحدار ، هاوية إلى حضيض الشيخوخة تمثل (الرجل المريض) ، وقد أخذته ساعات الاحتضار ، والناس من حوله ينتظرون أن يلفظ النفس الأخير ليخلى بينهم وبين ما ترك من مال وثروة .

شهد إبراهيم المويلحي الدولة العثمانية وهي في هذه الحال من الضعف والهرم والفساد والانحلال . وكان من حظ التاريخ أن يشهد المويلحي هذه الدولة وهي بهذه الحال اتى ذكرنا . وذلك لأن التاريخ يعنى أولاً بتسجيل الأحداث الكبار . وأي حدث أكبر من حادث انهيار الدولة العثمانية أو جنوحها إلى الانهيار . . بل كان من حظ الأدب نفسه أن وجد إبراهيم المويلحي في الأستاذة في تلك الفترة من حياة الخلافة . وذلك أن الأدب فن التعبير والجمال . وأي كاتب كان أقوى إذ ذاك من إبراهيم في الإنشاء ، وأقدر منه على تصوير هذه الدولة وهي في طريقها إلى الغناء؟ غير أن إبراهيم إنما كان يصف في مقالاته الدولة تورجاً لها وصفاً لا مبالغة فيه من جهة ، ولا مقصد من ورائه غير النصيحة للمسلمين في مصر وتركيا ليتداركوا الأمر قبل فواته ويقوموا من بناء الدولة ما أوشك أن يتفرض على بناته ، من جهة ثانية .

ولقد كتب إبراهيم المويلحي بعد هذه المقالات وهو في الأستانة . وكان يبعث بها سراً إلى جريدة المقطم بمصر لنشرها هناك . واستمر إبراهيم في نشر هذه المقالات حتى علم بها رجال السلطان فخفوا عن فورهم للقبض عليه ، ولكنه نجا منهم بحيلة عجيبة أشرنا من قبل إليها في ترجمة حياته ، وإذا ذلك عاد السلطان فحرب إليه إبراهيم وغمره بفيضه ونعمه .

ولم تطل مدة إقامة المويلحي في الأستانة أكثر من عشر سنوات ، اضطرب بعدها إلى العودة إلى مصر تاركاً وراءه تلك المدينة العاصفة أو البحر الهائج ، بحر السياسة المضطرب في مدينة الخلافة^(١) . والعجب حقاً من أن ينجو رجل كإبراهيم المويلحي من تلك العواصف الهوج ويستطيع أن يصل بسفينته إلى بر السلامة .

وفي مصر عاد المويلحي إلى كتابة ما بقى من هذه المقالات التي وصف فيها القصر السلطاني ، وكشف للناس عن خفايا الحياة التي يجيهاها السلطان ورجاله في ذلك القصر . بل عن تلك المآسي التي يمثلها التاريخ على مسرح (بلنذ) ، ثم بدا للمويلحي بعد ذلك أن يجمع هذه المقالات في كتاب سماه « ما هنالك » ونشره غفلاً من الإمضاء . ولكن السلطان ما كاد يعلم بأمر هذا الكتاب حتى أمر بنسخه أن يجمع ، ويبعث بها إليه . فجمع المويلحي بنفسه هذه النسخ وأرسلها إلى السلطان . وبذلك أمن على نفسه بطش ذلك الجبار غير أن بعض نسخ من هذا الكتاب كانت قد تسربت إلى بعض أصدقاء المؤلف ولعل منها هذه النسخة التي بأيدينا الآن^(٢) .

(١) زعم الثائرون لأنفسهم أنهم استعملوا لقب الخلافة منذ اجتمعوا على اللالك وأخذوا منهم مصر سنة ١٥٣٧ م . والتاريخ يحدث أن مؤلف اللالك تناول الخلافة السياسية من بغداد إلى القاهرة .

(٢) وهي النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٨٥ ، أدب .

ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة وثلاث عشرة مقالة ، وكلية ختامية
ذكر فيها الغرض الذي من أجله كتب هذه المقالات :

أما المقدمة فعنوانها « الدين والنصيحة » ، وفي أولها يذكر الكاتب « أن
منا من يتظاهر بأن تنبيه الدولة إلى ما هي عليه من سوء الحال مروق
وضلال . وليته سمع ذلك يكتفى من هداة بالإمساك عن التنبيه بل يتطرف
إلى تحسين القبيح وتزيين السوء وإطراء النميم إلى مثل ذلك بما يزيد الدولة
تورطا في المزالق وتوغلا في الخلل وتخطا في الفساد وشططا عن السداد
ويتبجح بأن هذا هو الحب والإخلاص والولاء . فباليت شعري ما عسى
أن يكون البغض والنش والتليس لديه بعد هذا . وقد لا يبلغ العدو من
عدوه بالحرب والقتال ما يبلغ منه بهذا التوريط والتضليل . »

وتأتي بعد ذلك (المقالة الأولى) وعنوانها « أحوال السلطنة العثمانية »
وفيها يصف الكاتب بعض الظروف التي اعتلى فيها عبد الحميد عرش السلطنة
ثم يقول :

« وكان من سوء حظ العثمانيين أن طاف حول العرش الحميدي زمرة
مختلفة الأجناس والأفواع من نزاع الآفاق . ولما تمكنوا بحيلتهم ودهائهم
من الثقة بهم والركون إليهم رأوا أن أغراضهم لا تنال ، ومراكمهم لا تحفظ ،
وراحتهم لا تنوم ، إلا بإشغال جلالته بمضاعفة إيجاس الخيفة من كل شيء
واختلاس أوقاته التي تحتاج إليها مصالح الدولة فتدرجوا إلى ما ابتغوا -
والتدرج قاتل الإفراط - حتى وصلوا إلى ما لا تصدق ناقله إلا قاسمك الإيمان
المغلظة عليه . . . ولما رأى الناشئون أن الرتب والوظائف لا تنال إلا
بالتجسس وإظهار الجبن أخذوا يتسابقون حتى وصلوا إلى غايات يمجها
السمع وينفر منها الطبع ويكي لها العثماني الحر ، بل ربما اقتتل من البسكاء
إلى الضحك طرفة . »

وتأتى بعد ذلك (المقالة الثانية) وعنوانها «المابين» (١) وفيها يبدأ المويلحى فى وصف قصر السلطان ويقول: «وفى السراى دوائر منها دائرة الجيب الهمايونى . ودائرة الباشكاتب ودائرة المابنجية ، ودائرة الباش أغا . وكان بها دائرة مخصوصة لرئيس الخفيات (أى الجواسيس) ولكن لما عم التجسس بطل ذلك الاختصاص» وانتقل الكاتب إلى الكلام عن أهل السراى ، مبدءاً لذلك ببعض الكلمات التى آثرت عن الأوربيين فى وصف «رجل البلاط» Courtisan (ليس فى جميع اللغات كلمة تجمع بمفردها من الرذائل ما يجمعه كلمة «كورتيزان» أى أهل البلاط والبطانة والحاشية) ونحو (إن للكورتيزان ثلاث خواص من خواص المرمر فهو ثقيل بارود أملس كغطاء القبر فلا يدعمه الملوك فى الحياة ولا فى الممات) . ثم أخذ المويلحى يصف الدائرة الأولى من دوائر المابين وهى «دائرة الجيب الهمايونى» وانتهى بذلك المقال .

وفى المقالة الثالثة وعنوانها (دائرة الباشكاتب فى المابين) مضى المويلحى فى وصفه لهذه الدائرة وقال «وعلى الباشكاتب ترد جميع الأوراق الرسمية من الباب العالى ومن المشيخة الإسلامية ومن سائر النظارات وسائر الولايات وتصدر عنه إلى الباب العالى وجميع الجهات وهو يعث بمخلصاتها لتوضع على المكتبة السلطانية فيتلقى عنها الإيرادات بتبليغ المابنجية أو من يأمره جلالة السلطان بالتبليغ من الذين فى الحضرة الشاهانية . والباشكاتب يعث بالإرادات السنوية بامضائه فى أوراق صغيرة إلى الصدر الأعظم أو إلى من تخصصهم من الوكلاء والوزراء» ثم قال المويلحى .

(١) يقول المويلحى فى تفسير كلمة المابين :

هذه الكلمة تطلق فى اللغة التركية على الحجرة التى لها بابان باب إلى جهة الحرم وباب إلى المدم لم يختص بالسراى السلطانية ، ونفذ السراى لا يطلق فى الأستانة إلا على بيت السلطنة بخلاف ما نراه فى مصر انظر «ما عتاك» من ٢٤ .

واغوثاه . لقد كانت ورقة من هذه الأوراق تنشر اقانون الاساسى
وتجمع مجلس المبعوثان وتدفع عن الدولة غوائل التدخل الاجنبى وترفع
شان العثمانيين . ولكن واحسرتاه يصدر اليوم عشرات منها فى النهار لتفتيش
بيت زيد او استنطاق عمرو او ابعاد خالد او سجن بكر . . . الخ . .

ثم فى (المقالة الرابعة) وعنوانها « دائرة المايننجية فى المايين » يادرس
الكاتب الى قوله : « وما سار رضى به الليل وحيداً فى غابة التفتت اشجارها ،
وتكاثفت ظلالها ، وتجاوبت رياحها ، وعزفت جناها ، وزارت أسودها ،
وترامت على أقدامه أفاعيها وسودها ؛ لا يهتدى لطريق يسلكه ، ولا يجد
موتاً وحياً يهلكه بأخوف من يطأ هذه الدائرة لشرم المطلق فى الناس ،
وخيرهم المقيد لأنفسهم . بوقوفهم على باب فيه النعم والنقم ، والعز والذل ،
والحرية والاستعباد ، والشورى والاستبداد ، والسعادة والشقاء ، والحياة
والفناء لدى خليفة عظم وسلطان كبير :

له لحظات فى حفاى سريره إذا كرها فيها عقاب وفائل

الى أن يقول : « وهم ستة وسابعهم رئيسهم الحاج على (بك) ، .
وأشار المويلحى فى ثنايا الحديث عن هؤلاء الامناء أو المايننجية ، الى
أن أمرهم قد اختلط فى أذهان الناس بالمشايخ الذين كانوا يتنازعون هؤلاء
الامناء سلطانهم فى قصر الخلافة : « وكان أحدهم — وهو راغب (بك) —
يونانى الأصل وله وظيفة أخرى غير المايننجية ، وهى استنطاق المأمورين
كما أن من وظائف الشيخ أبى الهدى (الصيادى) استنطاق العلباء ، وهما
يتعاوران ملاءة الفخر فى الوقوف على الأسرار السلطانية . ثم يعمد
المويلحى الى السخرية بهذا الشيخ فيقول (إلا أن الشيخ أبا الهدى ترفع عن
كسب المال لطلب المجد المؤئل كما قال رصيفه أمرؤ القيس :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكننا أسعى لمجد مؤئل وقد يدرك المجد المؤئل أمثال

وراعب (بك) قد سبق الجميع في شهرة الاستنطاق على ثور «فالاريس» (١) كما أن الشيخ أبا الهدى وضع الجميع في تنور ابن الزيات (٢) بمهارته وتدقيقه . ثم تأتي (المقالة الخامسة) وعنوانها ، دائرة الباشي أغا أو قزلباغ (٣) في المايين ، وفيها يتحدث الكاتب عما آلت إليه حالة الدولة العثمانية من الضعف والهزال ويصور انسلاخ الممالك العثمانية عن حجم السلطنة جزءاً بعد جزء بقوله - (لو قام من القبر راشد (باشا) الصدر الأعظم وصاحباه علي (باشا) وفزاد (باشا) وسألوا رجلاً في طريقهم عما جرى على الدولة بعدهم وقال لهم : قد انفصلت رومانيا ، واستقل الصرب ، وزال الجبل الأسود ، وذهب الروم إلى الشرق ، وانفصلت البلغار ، وضاعت قبرص ، وبانت تونس ، وانسلخت بوسنة وهرسك ، وانقطعت باطوم ، وخرجت قارص وأردهان ، وانحلت تساليا ، ووقعت زيلع ، وطاحت مصوع ، وترك السودان ، وهذه مصر في أيدي الإنكليز - هذا قسم ضاع واتهى فيه النزاع - وسورية ترصدها فرنسا ، وطرابلس الغرب ترمقها إيطاليا ، ومقدونية تشير إليها البلغار ، وقوصوه ترقبها الصرب ، ويانيا وكريدمونستر وساموس تكاد تخطفها اليونان ، وولايات أرمينيا تطلب الاستقلال أو الإصلاح - هذا القسم في النزاع - والبصرة وبغداد تشيح أهلها بسعي حكومة إيران ، واليمن في العصيان ، والمسلمون في خوف على الحجاز ، ولم

(١) فالاريس طاغية حكم في سفلية بل الميلاد بنحو ستائة سنة ويضرب به المثل في الظلم والنسوة حتى لقبه شيبرون بطاغية الطغاة ورجته رميته بالأحجار فقتله كقماً لصره وتخلصاً من نسوته . ويرى أن سائماً ماهرأ اسمه بارلس صنع ثوراً له من نحاس يحمي بالنار ويعذب الناس في جوفهم حتى يموتوا وهو يطرب بسباع أنبيهم فكان أول من جرب الثور فيه بارلس نفسه .
(٢) ابن الزيات وزير النعم روى أنه اتخذ في أيام وزارته ثوراً من حديد وأطراف ساميره مدودة إلى الداخل وهي قائمة مثل رؤوس للسأل . وكان يعذب فيه المسادين وأرباب الدواوين الطلويين بالأموال . فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العاقبة بمدخل السامير في جسمه فيجدون لذلك أشد الألم . انظر « ما هناك » ص ٤١ .
(٣) توزلباغ لفظ تركي معناه أفا المرحم .

يبقى لإحلب وأدرنة وأزمير وبروسة خالصة لجلالة السلطان ، وسفن الدولة قد أكلها الصدأ في قرن الذهب بعناية حسن (باشا) وأسراره العميقة ، وسفن الإنكليز على شواطئ البلاد العثمانية ، والناس يشتكون من اغتصاب المأمورين لأراضيهم ، وإدخالها في الأراضي السنية والجفالك السلطانية ، ولا ميزانية للمالية ، ولا نظام للعدلية ، ولا شغل في الباب العالي يحسن السكوت عليه ، وصار مجلس الوكلاء بعدكم تتلاكم فيه الوزراء ، والعساكر في الولايات قد عجز القلم عند وصفهم ووصف أسماهم وأطوارهم البالية ، وسلم القلم الأمر في وصفهم إلى الفوتوغرافيا .

وأصبح الناس فوضى لا سراً لهم ولا سراً إذا جهالهم سادوا
وقالوا له بعد أن اغرورقت عيونهم بالدمع — هذه كفة الخسران
فهل في كفة الربح شيء يذكر ؟

فإذا قال لهم بنام سبعين تكية وتصليح عشرين مسجداً وزيارة إمبراطور
ألمانيا للأستانة وإحياء اسم الخلافة بعد أن كانت مهملة لا يتقلب بها سلاطين
آل عثمان ، وزيادة الألقاب المقدسة ومضاعفة عدد النياشين لقالوا : سلنا
بأن هذه محسنات لا تنكر ولكن لا يوزن الجندل بالخردل ، ولعادوا
مهرولين إلى قبورهم ينشدون :

يا ويلنا أفنا لنا من صارخ إلا بشعر ضاع أو دين عفا
فمدينة من بعد أخرى تستبي وطريقة في إثر أخرى تعتنق
ها مصر قد أودت وأودى أهلها إلا قليلا والحجاز على شفا
... إلخ .

ثم أخذ الكاتب يصف أخلاق الباش أغا وغروره وجهله وحماقته
وماجره على الدولة من خسران . وساق لذلك طائفة من الأمثلة منها قوله :
(أتريد أيها القارىء أن تعلم كيف ذهبت تونس من الدولة ؟ أرادت
الدولة أن تقبض على مدحت (باشا) وهو وال على أزمير فهرب إلى قنصل
فرنسا فطلبته الدولة فتوقفت فرنسا في تسليمه .

وانتهت المسألة بين الدولتين بعد المحادثات على أن فرنسا تسلبه بالشمال
وتستلم تونس باليمين . وتم الأمر واشترت الدولة رجلا واحداً بمملكة انا
فما أغلى قيمة الرجال عندها انا

ويمضى الكاتب في سخريته بهذا الباش أغانا إلى أن يقول (وما زال بهرام
له النظر الأعلى في طوالح النفوس ، والحكم المبرم عليها بالسعود والنحوس ،
ولامعقب لحكمه ، وبأمر ولأراد لأمره ، ويشمخ بأفقه على الفحول أصحاب
السيف والعلم والكتاب والقلم ويكبر على عترة الرسول وأولاد البتول فيمد
رجله في وجوه كرمها الله — لتقبيلها — ولا يردعه رادع الإيمان ولا يزعه
وازع القرآن أن يقف عند حده مع أهل بيت نزل الكتاب عليهم وفهم) .

وبما جاء في هذا الفصل قوله في معرض التهم بالسلطان في اختياره
الحجاز الذي هو قبلة المسلمين منفي للمجرمين والسفاكين :

(يستغيث القلم أن يكتب هذا الفصل وهو أن العادة جرت من زمن
قريب أن المجرمين والقاتلين والمتهمين ينفون إلى الحرمين الشريفين فيبعث
بهم تبا تبا وفرادى مغضوباً عليهم من بيت السلطان إلى بيت الرحمن) .

ثم تأتي (المقالة السادسة) وعنوانها « دائرة الياوران في المابين » وفيها
يذكر الكاتب أن هذه الدائرة تتألف من ثلاثة أقسام ياور — وياور — وياور أكرم
— وياور نفري — وسرياور (أي رئيس الياوران) . فالياوران الأكارم
يليفون على عشرين كلهم من أعظم المشيرين . والياوران مائة وعشرون —
والياوران انفخريون فوق مائة وثلاثين ورتبهم مختلفة من رتبة الملازم إلى
رتبة المشير) .

قال المؤلف (ولم يجتمع على باب سلطان من السلاطين . ولا ملك من
الملوك المتقدمين والمتأخرين ما اجتمع اليوم منهم على اناب الرفيع والنسبة
السنية ، كما أنه لم يبلغ بعظمة دولة وقوة سلطنة وجلال إمبراطورية وسعة

مملكة في عهدنا أن يكون في قوادها عشرة من المنشيرين - وللدولة العثمانية
المجد الأثيل بأن لها قوادها ستين مشيراً . . . أما الدولة البريطانية فليس
في وسعها ولا في سعتها لإلتعيين ستة مشيرين أحدهم ولي عهد المملكة والآخر
عها والأربعة الباقون اشتهروا في حروبها .

وقد سخر المويلحي من كبار رجال الدولة العلية في نظرهم إلى رتبة
الياور الأكرم في المناين على أنها فوق كل المراتب قدراً ؛ لا لشيء إلا أنها
تدل على معنى الخدمة الخصوصية لذات جلالة السلطان - ثم قال (من هذا
 وغيره يظهر أن هؤلاء الأفاضل اعتبروا أن السلطنة والدولة والخلافة
والأمة والإسلام والمسلمين أشياء خلقها البارى عز وجل لخدمة الذات
السلطانية - لا أن جلالة السلطان الذى رفته الله إلى مقام الخلافة هو
المستول المكلف أن يحفظها بنفسه . ونحن نزه إيمان جلالة السلطان أن
يصغى إلى زخرفهم فإن الأمر في القيام بشأن الخلافة عند الله عظيم) .

ثم تآى بعد ذلك (انقالة السابعة) وعنوانها (الجواسيس - ولعلها
من أم ما حجا في هذا الكتاب من مقالات ، وانظر إلى السكاتب القدير كيف
بدأها بقوله :

ويهجى الإنسان لذاته ، ويرفض راحة حياته لطلب العلم . ويضرب في
الأرض ويجمع مى قوته لنوال الإثراء ، وينازل الأبطال ، ويصارع
الاهوال لبوغ العلياء . حتى إذا مضى العمر إلا الأقل قيل له : طالب علم
أو غنى ، أو عظيم القدر .

أما إنسان الأستاذة فله طريق إلى العلياء مختصر . ينال الإثراء ، والعلياء
وشهرة العلم في يوم واحد . وليس عليه فى الوصول إلى مطلبه إلا أن يكتب
تقريراً ملفقاً يتهم فيه الأبرياء الأمانة ، والصادقين الغافلين ، فتنهال عليه
الدنانير ، ويطلع فى صدره قر الوسام بازغا وتخطبه الدولة بالفضيلة
والسعادة . .

ثم انظر كيف يصف الكاتب تهافت السلطان على الجواسيس وافتقاره إليهم، وثقته فيهم، وتقربه منهم بقوله على لسان يوسف (باشا) رضا الصديق له:
« إن جلالة السلطان قد تعود أن يسمع من جواسيسه كل يوم خبراً مقلقاً على نفسه، فإذا مر يوم لم يأت فيه ما يقلق خاطره على نفسه بقيام فتنة وتشكيل جمعية ظن أنه قد وقع ما يخشاه، وما أتاه خبره، فيبق متكدراً حتى يكتب له الجواسيس بشيء من هذا القبيل، فيشتغل بتحقيقه. فإذا ظهر له كذبه كغيره من الأخبار السابقة سرى عنه واستراح خاطره... وقال جلالته يوماً لأحد المقربين إلى السدة السلطانية شاكياً من كثرة الأشغال لديه: إنه وصل لمقامه الأسنى ثلاثة تقارير في مسافة تقض وضوته، وانظر إلى المويلحي معقّباً على هذا بقوله:

ماذا يبقى من الزمن بعد ذلك للدولة وتشيدها، والشريعة وتأيدها والجنود وترتيبها، والأحكام وتقويمها، والمالية وتنظيمها، والمعارف وتعميمها، وعلاقات الدول وتوثيقها، والسياسة وتنسيقها، والسفن وتعميرها والمنافع العامة وتكثيرها. لا يبقى من الزمن إلا ما يكفي لسماع تقارير السادة المشايخ، ودس بعضهم على بعض، ليأخذ زيد مكان عمرو، ونزال بكر منزلة خالد.

بل انظر إلى المويلحي كيف يسخر أيضاً من أولئك المشايخ الذين استولوا على عقل السلطان، ويا طول ما سخر هذا الكاتب منهم في مقالاته من أولها إلى آخرها:

ولو اشتغل الأساتذة الجهابذة في إقامة الحجّة على الأوربيين في هذه الأيام بأن دين الإسلام ليس كما يزعمون بعيداً عن التمدن والإصلاح، بل هو عدل وإنصاف، وحكمة وهدى، لكان ذلك أولى بقوم تكتتب بالألقاب أحدهم في ثلاثة أسطر، فلا يصل القارئ للاسم إلا بعد صفوف من الألقاب.

ثم انساق الكاتب بمهارة متفرقة وأساليب أخاذ في سوق الأمثلة المتعددة من سعايات الجواسيس ، وعناية السلطان بأمر هذه السعايات التي يلفقونها والمؤامرات التي يتخيلونها ، والأخبار التي يزيفونها للناس ، حتى لقد أصبح الأب جاسوساً على ولده ، وأصبح الولد جاسوساً على أبيه ، وخيل أن الدولة كلها لم تسخر إلا لهذه الغاية وحدها ، وإن رجال الدولة لا يأخذون روايتهم إلا لهذا العمل .

ويطول بنا القول لو أردنا أن ننقل طرفاً بسيطاً مما ساقه الكاتب من أمر أولئك الجواسيس ، ويكاد لا يصدقنا القارىء أو يصدق المؤلف إذا أتينا له بأمثلة قليلة من ذلك .

وانظر إلى هذا الكاتب — بعد إذ سرد الكثير من حكايات الجواسيس — كيف يعلق عليها بقوله في طهجة خطافية واضحة :

« يا كساد العلم ، ورواج الجهل ، ويا شقاء الحق ، وسعادة الباطل ، ويا خيبة الصادق ، ونجاح المنافق . ويا بكاء الأمين ، وضحك الخائن ، أصبحت دار السلطنة التي كانت عريناً للأسود خلايا تطل فيها زناير الجواسيس وأصبح العالم من شر الجهلاء يوجع على قواعد العلم يكتبها في تأليفه ، وأصبح الجاسوس يظلم العلماء يمضى مرحاً ويختال تكبراً الخ . »

ثم تأتي بعد ذلك (المقالة الثامنة) ، وعنوانها :

عيد الجلوس السلطان ، وفيها يقول :

« في مثل هذا اليوم من سنة ١٨٧٦ جلس على سرير السلطنة وعرش الخلافة جلالة السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني يارثه الشرعي عن آبائه وأجداده غياث الأمم ، وغيوث الديم . أعاد الله هذا اليوم الجليل على الأمة العثمانية وعليه بالعادة والإقبال ، والعز والإجلال الخ . »

وأكبر انظن أن الكاتب إنما كتب هذه المقالة وهو بالاستانة ، وبعث بها يومئذ إلى محرر جريدة « الحقائق » وقد تعرف به — كما قلنا — في مدينة

الخلافة ، وأظهر له استعدادة لوصف المواقب السلطانية بهذه الصحيفة .
وأكبر الظن أيضاً أن النويلحى تناول هذه المقالات التي كتبتها بالأسنانة
بالتهديب وبالتنقيح ، والحذف والإضافة ، وذلك بعد عودته إلى القاهرة ،
واشتغاله بجمع هذه المقالات في كتابه « ما هنالك » . يدلنا على ذلك ما قرؤوه
في ثنايا هذه المقالات التي وصفت بها أعياد السلطان من عبارات الحزن
على مصير الدولة العلية . وإظهار الآسى على ماضع من أملاكها في أوروبا
وآسيا ، ثم تاريخ هذه المأساة الكبيرة التي فقدت فيها الخلافة هذه الأملاك ،
ثم تدرجه من ذلك إلى ذكر الإصلاحات التي طالب بها مدحت (باشا) ، ثم نفى
هذا الرجل إلى أوروبا ، ثم دخول تركيا في حرب مع روسيا ، ثم استيلاء
المشايخ على ذهن السلطان وقلبه في أثناء هذه الحرب ، ولزهاهم إياه — بطريق
الدجل والخداع — أنه سيأمر إمبراطور روسيا ، وأنهم يبشرونه بذلك ،
كل ذلك (ومجلس المبعوثان) لا يدعى للاجتماع إلا حين تريد السراى أن
تحمله وزر خطأ من الأخطاء أو عاقبة سيئة من العواقب . ١

د ولما عظم الخطب ، وفدح الأمر ، وقرب الروس من دار السلطنة ،
طلبت الدولة من الدول الوسط لصددهم ، فلم يجبن ، إلا اتجملترا ، فإتها لبت
الدعوة ، وأرسلت أسطوطها في الحال إلى الدردنيل .

لست أدري ماذا أراد الكاتب بهذا المقال ؟ هل أراد به وصف عيد
الجلوس السلطاني ، أم رثاء الدولة التي ختم فيها مقاله بهذا البيت من الشعر :

أعرضوا عن مدائح وتهان فلما رأى أولى بنا والتعازى ١

ثم أتت (المقالة التاسعة) وعنوانها الجواسيس ، وفيها عاد الكاتب مرة
أخرى إلى وصف الجاسوسية في البلاد ، وأتى بطائفة من نوادرها هناك .
وانظر إلى الكاتب كيف بدأ مقاله التاسع بقوله :

« ومن نوادر الوقائع أن رجلاً من طرابلس الشام اسمه (عبد الحميد)
حضر إلى الأستانة ليحصل على وظيفة من وظائف العدلية في بلاد الدولة ،

وكان لمنيف (باشا) معرفة به بقاء إليه لعرض العبودية (على اصطلاح أهل الأستانة) فقال له (الباشا) :

متى جئت وفي أى مكان نزلت؟ قال الرجل : جئت اليوم ونزلت في يلدز . قال له (الباشا) : كيف ذلك؟ وقد ظن أنه نزل في السراى السلطانية،

قال : فى نزل بقرب السركجى اسمه يلدز .

فوقف منيف (باشا) على رجله وقال له :

قم ولا تجلس هنا حتى تنتقل من هذا النزول إلى آخر .

فوقف الرجل مبهوراً لا يدرى سبب هذا الأمر الحتم .

فقال له (الباشا) :

أنسيت أن اسمك عبد الحميد ، واسم هذا النزول يلدز؟ فأى قارعة من قوارع الدهر ، وأى بائقة من بوائق الزمان تريد أن تنصب على رأسك ورأسنا؟ .

فكاد الرجل يصق من هذا الاتفاق الذى لم يرزق التحرز منه ، وخرج يشتم أباه وأمه .

ولما وصل إلى النزول وجد نفراً من البوليس ينتظرونه ؛ ولو كان هذا الإرساد والإسراع فى مصالح الجمهور لسبقنا غيرنا بمراحل ! فأخذوه إلى الاستنطاق ، وما نخلص من مضيق الخناق حتى خف عقله وجيبه معاً . وبقى فى الأستانة مدة بركة هذا الاتفاق لا ينال وظيفة ولا يجد مساعداً .

أرأيت أيها القارىء سخرية أبلغ ، أو تهكماً أشد ، أو ازدراء أنكى من كل ذلك؟ وهذه حكاية من عشرات الحكايات التى أوردتها المولىحى فى كتابه . ولعلها أخفها سخرية ، وأقلها مرارة ، وأدناها إلى الرفق بالسلطان ورجال السلطان .

ومن ثم فنحن نترك هذه الحكايات على كره منا ، ونصل بالقارىء إلى (المقالة العاشرة) . وعنوانها : جلال الخلافة وجمال السلطنة . وانظر إلى

روح التندر السائدة على كتابة الرجل . وقد شاء أن يهد لوصف المواكب السلطانية بقوله في بداية هذه المقالة العاشرة :

« إن الممالك تختلف في تشييد عظمتها اختلافاً كبيراً ، فمنها ما تختار له الحديد الذي قال الله تعالى فيه « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . ومنها ما تختار الذهب ، له ترى فيه طريقاً مختصراً لبلوغ الغاية .

ولما كانت السلطنة العثمانية قد فاقت جميع الدول الأوروبية في الآبهة والفخار بأعظم مقتنيات الزينة رأينا أن نبين مظاهر الجلال ، ومواسم الاحتفال ، ومواكب الآبهة واحداً واحداً ... الخ .

وبعد أن فرغ الكاتب من وصف بعض هذه المواكب قال « وهنا نذكر حكاية . مر على الأستانة من أقصى المغرب رجل من العامة ، فيه خشونة البادية . ولما رأى الموكب السلطاني ، ووقوف آلاف من العساكر المسلمين لا يصلون في وقت الصلاة سأل أحد مشايخ الحضرة السلطانية بجملة لاتليق بأدب الخطاب مع قاضي عسكر (روم ايلي) بقوله :

يا شيخ الأستانة أيجوز في الشريعة أن يقف عشرة آلاف من المسلمين حول المسجد الجامع ، وقد سمعوا أذان الجمعة ، وشهدوا الناس يصلونها ، ولا يجسر أحد منهم أن يصلها للحكم القاهر عليهم ، سبحانه الله يا شيخ الأستانة . قد أصبح حكم العبد فوق حكم الرب . قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكر الله كثيراً لعلمكم تفلحون » ، وقال الضابط للعساكر : قفوا هنا ولا تصلوا . فأطاع العبد ، وعصى العبدان الرب .

أتريدون نصراً من الله بعد هذا والله يقول : « إن تنصروا الله يتصركم ويثبت أقدامكم » ، وإن خذلنا لدليل عصياننا . إن الله لم يبح للمسلمين ترك الصلاة في حال من الأحوال . وقد عرفنا الله كيف نهض صلاة الخوف .

قال تعالى يخاطب الرسول « وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا » (الآية) وإن الأئمة نواب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل عصر ، قوام بما كان يقوم به ... الخ ، فقال له شيخ الأستانة :

هذه سياسة فيها إرهاب العدو . ألا ترى الأجانب قد احمرت وجوههم عند رؤية هذا الموكب السلطاني ؟ .. وتغير وجه شيخ الأستانة وقال للفقير المغربي : إن بقيت في الأستانة إلى الغد يا فضولي أكلتلك الأسماك ... ثم أحاطت بالرجل مكاييد الجواسيس ، وحفت به دسائسهم ، فطلب النجاة من دار الخلافة ، وخرج مع البازي عليه سواد .

ثم أتت المقالة (الحادية عشرة) وعنوانها «تقليد المناصب العثمانية» ، وفيها يصف الكاتب كيف يرقى المناصب العالية في الدولة بطريق الرشوة والخضوع والمذلة والرياء والتلق لمن في دار السلطنة من الكبراء وأصحاب الكلمة « فيدخلون وعيابهم مملوءة بالمال ، ورووسهم بالأمال ، فيطوفون على بيوت الكبراء والوزراء والكتاب والحجاب ، ويقدمون الهدايا والتحف للناظر والوكيل والكتاب والحاجب والنديم والصاحب ويباشرون وظيفة الوقوف صباح مساء فيصطفون صفوف القائمين للصلاة على أبواب النظارات ، فيركعون لإشارة بالكف ، أو نظرة بالطرف فمن يمر عليهم من ولاة الأمور ... الخ » .

ويقيم أولئك المأمورون في الأستانة سنوات على هذه الحال ، حتى إذا ظفروا بما أرادوا خرجوا من الأستانة وقد وقعوا على القصد الحقيقي من السلطنة والدولة والخلافة والإمامة والجيش والمعقل والحصون والرتب والنياشين ، وهو حفظ ذات مولانا السلطان حفظه الله ، وجعل الأمة والدولة فداء .

هذا حال المأمورين ، وهذه نياتهم وعزائمهم ... أما الولاية فكثيراً

ما يعزلون وينقلون من ولاياتهم بذنب أنهم محبوبون من الأهالي كما حصل لعثمان (باشا) والى الحجاز .. إلخ .

ثم أخذ الكاتب يسوق الأمثلة الكثيرة على تفاق دوى المناصب، وتنافسهم في الرذائل ، وتهالكهم على الرشى كل ذلك والشعب منظر على نفسه، مغلوب على أمره ، ومن ورائه (قلم المطبوعات) الذى يمحو من الجرائد لفظه . حرقة . ملة أمة . خطبة . سيف . قوة . سلاح . جمهورية . مجلس نواب . مجلس ملة . مجلس أمة . ولى عهد . جمعية . تجمع . اجتماع ، وما اشتق منه . وتأتى بعد ذلك المقالة (الثانية عشرة) وعنوانها : الدعاوى فى الأستانة وانظر كيف بدأ الكاتب هذه المقالة بقوله : « قدّم على الوليد رجل من عبس ، ضرير محطوم الوجه ، فسأله عن سبب ذلك فقال : بت ليلة فى بطن واد ، ولا أعلم فى الأرض عبسياً يزيد ماله على مالى ، فطرقنا سبيل ، فذهب بما كان لى من أهل . ومال وولد . إلا صيباً وبعيراً . فند البعير والصبي معى ، فوضعتهم واتبع البعير ، فما جاوزت ابني قلبلاً إلا ورأس الذئب فى بطنه يفرسه فتركتهم واتبع البعير . فرمى رحمة حطم بها وجهى . وأذهب عيني . فأصبحت لا ذا مال . ولا ولد ولا ذا بصر . فقال الوليد بن عبد الملك أدخلوا بها إلى عروة بن الزبير وكان قد أصابه بلاء متتابع — ليعلم أن فى الناس من هو أعظم بلاء منه . وصاحب دعوى فى الأستانة أعظم والله بلاء . وأكبر مصيبة منهما . ؟

ولقد كان يجب على الآباء والأمهات أن يدخلوا فى جمل الدعاء لأبنائهم ألا يحكم الله عليهم بدعوى فى الأستانة ، فإن الدعوى فيها قاصمة الظهر ، لإبطاء الحكم . وإهمال المصل فيها ، أو لمصيبة الحفظ لأوراقها . وربما ورت الابن دعوى أليه وجده ، إلخ ثم اتبع الكاتب ذلك بإيراد الشواهد العديدة على صدق دعواه .

وأخيراً يصل المولى يحيى فى كتابه « ما هنالك » إلى (المقالة الثالثة عشرة)

وهي الأخيرة في هذا الكتاب . بل هي المقصودة بالكتاب كله من أوله إلى آخره ، والحديث فيها عن المشايخ، وهنا تبلغ السخرية نهايتها . ويصل التهم إلى منتهاه . ويحيل إلى القارىء أن الكاتب الفرنسى (فولتير) لم يبلغ في سخريته برجال الدين في فرنسا بعض ما بلغه المويلحى من ذلك في تركيا على أن ازدراء هذا الكاتب القدير لينصب انصباباً على السلطان عبد الحميد ، وهو ذلك المخوق العجيب الذى قضى العمر كله في الوسوس والهواجس ، وأوضاع من حياة الدولة العثمانية ثلاثين سنة كاملة في الجرى وراء ذلك الدعوى الزرى ، بل ذلك الدجال المحتال ونعنى به (أبا الهدى الصيادى) وأشباهه من أهل الدجل والدخل . وهم — فيما ذكر المويلحى — أربعة :

السيد أبو الهدى الحلبي، والسيد أحمد أسعد المدنى، والسيد فضل (باشا) المكي ، والشيخ محمد ظافر المغربى . وما وضع عربى مهما كان حسبه ونسبه منذ تأسست السلطنة العثمانية حيث تطأ الآن أقدامهم .

وظفق الكاتب بعد ذلك يوضح الأسباب التى من أجلها قرب السلطان إليه أولئك الأربعة . «فن الناس من يقول : إن هذا القرب وهذه الزلى ميل جلالة السلطان إلى استطلاع المغيبات منهم ، لأن لهم مزاعم واسعة ، ودعاوى عريضة في هذا الباب . ومنهم من يقول : إن سبب قربهم لهذا الحد من مقام الخلافة هو ما رتبوه في فكر جلالة السلطان . بمقدمات قدعوها من أن سكون الأمة العربية وحركتها في أيديهم فإذا شاء واقامت وإن شاءوا سكنت . ومن قدماء الأتراك جماعة يقولون إن الدولة لما ذهب من ما لكها ما ذهب في الحرب الروسية . وصارت الأمة العربية أعظم قسم تحكم عليه من أجناس رعيها جنحت إلى تجديد اسم الخلافة . فاختارت أولئك المشايخ رؤساء وسادات . . الخ .»

ثم مضى الكاتب يعرض هؤلاء المشايخ الأربعة للقارىء واحداً واحداً، ثم ذكر ما يقول بعضهم في بعض . وما يقول خصومهم عليهم . وما يقول

أحباؤهم لهم ، وما ينسبونه إلى أنفسهم وآبائهم وأجدادهم من الكرامات
وخرارق العادات .

وبدا (بالشيخ أبي المهدي) — وقد ذكرنا نحن من قبل رأى السيدة
الألمانية التي قالت أنه كان متسولا في حلب — فقال أنه وقد على الأستانة
في آخر حكم السلطان عبد العزيز في زى أهل الطريق . وكان حسن الصوت ،
فصيح اللسان ، صبيح الوجه ، ذكى القلب . ثم رجع الشيخ إلى حلب تقيماً
للإشراف بها . ثم عاد إلى الأستانة بعد جلوس السلطان عبد الحميد على
عرش السلطنة بشهرين فقط .

• في ذلك الوقت رأى جلالة السلطان رؤيا فقصها على أحد الباشوات .
وكان من أصحاب الشيخ . فقال لجلالة السلطان : إنى أعرف شيئاً واسع
المنفعة ، له جانب مع الله ، ولو أمر جلالة مولانا أن تقص عليه الرؤيا
لوجدنا عنده تفسيراً لها مطابقاً للواقع . فأمر جلالة السلطان بإحضاره ،
ولما قص عليه الرؤيا فسرهما تفسيراً أعجب به جلالة السلطان ، فأحسن
إليه . وبعد ذلك بأيام صعد الشيخ إلى المايين وقال : قد رأيت النبي صلى الله
عليه وسلم ليلة أمس في الرؤيا فأمرنى أن أبلغ عنه جلالة الخليفة كلاماً ، وأمرنى
أن يكون ذلك منى إليه من غير واسطة . فاهتزت السراى السلطانية لهذا
الخبر ، واستعظمو الأمر ، واستشعروا بالفتح . وكانت الدولة تستعد
لقبول إعلان الحرب الروسية ، وزاد جلالة السلطان في عيونهم قدراً
للاتصال بالحضرة النبوية ، ووجد جلالته في ذلك الوقت المقعم بالمشاكل
والاضطرابات بهذا الخبر مفرجاً لكربه ، وحافظاً لنفسه . ففرح وأمر
الشيخ أبا الهدى أن يبلغه بالواسطة ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ،
فامتنع وقال : إنما أمرت أن أبلغه ذلك مشافهة ، ولا يكون أحد يبتسأ .
فقبل له : إن جلالة مولانا السلطان لا يعرف اللغة العربية ، وأنت لا تعرف
التركية ، فكيف يمكن أن تخاطبه بلا واسطة ؟ فأصر على ذلك ، وذهب

من السراى ، وقد اشتدت الرغبة فى معرفة ما قاله (صلى الله عليه وسلم)
وفى الغد أرسلوا بطلبه ، ولما حضر قالوا : إن جائة ملاولانا السلطان أمر
أن يكون المترجم (بهرام أبا) فأبى وقال لا أفعل إلا ما أمرنى به النبى
صلى الله عليه وسلم وتركهم ، فخاروا فى الأمر كثيراً ، وبعد يومين جعد
الشيخ ووجهه مشرق بالبشر وقال : قد جئت لا ببلغ جلالة مولانا السلطان
بنفسى من غير واسطة ، فأنا الآن أتكلم باللغة التركية وشرع يكلمهم بها
يلبان فصيح . فسأله : كيف ذلك ؟ فقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم
جاءنى فى الرؤيا وتفل فى فى ، فتكلمت باللغة التركية كما ترون ، وقد انحل
المشكل . فلما سمع جلالة السلطان بهذا أمر أن يبحثوا إن كان الشيخ يعرف
التركية من قبل ، فجاءوا بشهود . منهم حافظ (باشا) - من نظارة الضبطية -
وغيره يشهدون أن الشيخ لم يكن يعرف كلمة تركية قبل ذلك اليوم . فدخل
على جلالة السلطان ، وأبلغه الرسالة النبوية ، ولا يعلم أحد ما هى ؟ ومن
ذلك الوقت نال حظوة لدى جلالة مولانا السلطان لم ينلها أحد من قبله . .
أما (الشيخ أحمد أسعد المدنى) فهو تركى الأصل ، قد هاجر أحد
أجداده إلى المدينة المنورة واستوطن بها ، وكان من الذين يطوفون على
الأمراء فى البلاد للنيابة عن له حصة منهم للفراسة النبوية . فيقوم مقامه
فى خدمة الروضة الشريفة ، فوفد السيد أحمد أسعد إلى الأستانة مراراً .
وكان له منزلة لدى جلالة السلطان عبد العزيز من أجل ذلك . ولما تولى
السلطان عبد الحميد نال السيد أسعد لديه حظوة الخادم الصادق ، وهو من
الذين يدخلون على جلالة السلطان بلا استئذان . وإذ قيل « فى السراى
سيد افندى ، فإياه يفتنون » .

« وقد طعن أعداؤه فى اتسابه إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فاحتار
فى أمره ، ولم يقو على معارضتهم ، فتداركه السيد أبو الهدى وأخذ بيده .
فأخرجهم من تلك الوعدة بأن وهب له نسبة رفاعية ، وجعله عمه فى النسب

فمحت. هذه الهمة الصيادية ما كان بينهما من الموجدة القديمة ، وعرف السيد أسعد لابن أخيه هذه المأثرة التي حفظ بها شرفه بين زجال المايين ، لدى جلالة السلطان ، فاتفقا واتحدا وشدًا من قاعدة التفريق في السراى وهما في الحرب القائمة بين المشايخ صف يقابل صف السيد فاضل (باشا) والشيخ ظافر . .

« وهو الذى أرسله جلالة السلطان إلى سفير انكلترا في مأمورية سياسية . ولما قابل السفير خاف على نفسه أن يدخل في أمر لا يستطيع أن يخطو فيه خطوة ، فأخذ يسعل سعالا مسترسلا للتخلص ، حتى أشفق عليه السفير ، وزده باللطف والاحتفاء والتأسف على ما قد جاءه من المرض ا . .

وأما (الشيخ فضل باشا المسكى) فهو شهير النسب بالعلوى ، وقد اختاره أهل ظفار أميراً عليهم فتولى أمرهم ، ولما أراد أن يعاملهم بالاستبداد قاموا عليه ، وأعطاهم الإنجليز على إخراجهم من ظفار ، فجاء إلى الأستانة يستصرخ الدولة لإعطائه قوة حرية يدخل بها ظفار . وكان قدومه في زمن السلطان عبد العزيز ، فلم تصغ الدولة إلى طلبه ... ولما جلس السلطان عبد الحميد على التخت العثماني أحسن عليه برتبة الوزارة ، فأحضر أولاده من مكة واستقر في الأستانة ... وكان المشايخ يقبلون يده لشيخوخته وشهرة نسبه وحسبه ... وهو عاى ولكنته من المؤلفين وله كتب عديدة منسوبة إليه ، وهى مشحونة بكرامات أبيه وأجداده ... وهو يبشر جلالة السلطان بسلطنته الهند ، ويا سلام أهل أمريكا ! وإذا وردت عليه رساتل من بعض أصحابه في الهند ، بنى عليها تحقيق الأمل فيما بشر به ، وعرضها على جلالة السلطان . فاذا سمع السيد أبو الهدى أنه قدم له مكتوباً جاء له من الهند أبطل مفعوله . .

وأما (الشيخ محمد ظافر المدنى المغربى) فهو من جهة طرابلس الغرب ، وقد سكن المدينة المنورة ، فانسب إليها . وله طريقة انتزعها من الطريقة .

الشاذلية ، وهو يدعو إليها .. وهو رجل متواضع لين الأخلاق ، معترف
بعاميته ، متظاهر بالخنول . وسبب اتصاله بجلالة السلطان أن أخاه الشيخ حمزة
كان في الأستانة ، وكان يتردد على بعض الحشم في سراى جلالة السلطان
في زمن المرحوم السلطان عبد العزيز ، فدار حديثهم مع الشيخ حمزة على
الدين لهم علم بظهر الغيب ، ومعرفة باكتشاف المستقبل ، فقال : إن أخى
الشيخ محمد ظافر له اليد الطولى والقدم الراسخة في هذه الأشياء . ولما اتصل
الخبر بجلالة السلطان أمره أن يدعو أخاه من المدينة إلى الأستانة . فحضر
إليها ويثر جلالة السلطان أنه يجلس على تخت السلطنة في سنة ثلاث وتسعين
هجرية . ولم يكن جلالتة يصدق هذا الخبر لقرب الميعاد ووجود السلطان
مراد قبله في نظام السلطنة . ولما صدق قوله ، وجلس جلالة السلطان على
التخت العثماني في تلك السنة عظم قدر الشيخ لهذا الاتفاق العجيب .

« ولما رأى الشيخ ظافر أن الاعتقاد فيه قد رسخ في السراى توسع في
الامر . فن ذلك أنه كان جالسا في الحضرة السلطانية مع السيد أسعد والسيد
أبي الهدى ، وفي أثناء الحديث قام من فوره وقال بهيئة الخشوع والخضوع
على الخالي وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! » .

فسأله جلالة السلطان بعد أن قام وقام السيدان لهذه التحية العجيبة .
فقال : إن الخضر عليه السلام قدم وسلم علينا ، فرددت عليه السلام .
ولما خرج وبخه صاحبه ، وتوعده إن عاد إلى مثل ذلك . فقال لها : اعذرائي
فقد أخذني الحال ... وقد أدخل جلالة السلطان في طريقته وأعطاه عهداً .

ثم أورد الكاتب بعد ذلك مطاعن هؤلاء المشايخ بعضهم في بعض : وعند
ذكره للسيد أبي الهدى الصيادى وما قيل فيه من مطاعن بدأ ذلك بقوله :

« وكان أحد حكام فرنسا يقول في كل دعوى تعرض عليه « ابجثوا عن
المرأة فكاثروا إذا ابجثوا وجدوا أصل الدعوى امرأة كما قال . كذلك يقول
أعداء السيد أبي الهدى في كل ضلح بالدولة العثمانية ؛ أو لحق بأحد
رعاياها « ابجثوا عن الشيخ » .

فإذا بحث الباحثون ، ونقب الناقبون وجدوا أن خدم كل مصيبة ،
وسنخ كل بلية ، وأساس كل فادحة هو من الشيخ المشار إليه . حتى قال
بعضهم : إنه للسلطان كالشيطان للرحمن .

• ويقولون إنه دخل على جلالة السلطان بتفسير الرؤيا والتنجيم ، ولما
فرغت كتابته من السهام التي أصمى بها قلب الدين ، خرج إلى الساحة الواسعة
— ساحة الدسائس والفتن — فإذا كان يقدم لجلالة السلطان مائة تقرير في
اليوم ، فأكثرها بإيجانه وإغرائه ، وقد لعب كل الأدوار في تعظيم نفسه أمام
السلطان ، فقال إن تلاميذه بلغوا عشرة ملايين من الرفاعية ، وقال إن بلاد
العرب في قبضته ، وإن الأولياء في خدمته ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم
في معونته . وإن الله سبحانه في نصرته ، وإن الأقدار في طاعته .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نسرمد مع الكاتب مطاعن الناس في
أبي الهدى . فلنكتف بهذا القدر ، وفي استطاعة القارئ أن يعود إلى
الكتاب نفسه ويشفي به غلته .

• • •

لقد تكاتفت للقارئ تلخيص كتاب كامل من كتب المربليجي ، هو عبارة
من هذه المقالات الثلاث عشرة ؛ لا شيء إلا لأنها قطعة كاملة من أدب
المربليجي وصحافته من جهة ، ولأنها كتبت كلها في موضوع واحد فقط ،
هو نقد الحياة الواقعة في الآستانة من جهة ثانية ، فإذا أضيف إلى ذلك أن
الكتاب نفسه نادر الوجود في هذه الآونة ، عرفت الأسباب التي من أجلها
تجشمنا مشقة التلخيص السريع لهذا الكتاب العجيب ، بل هذه المهزلة
المضحكة ، والمأساة المبكية التي مثلها التاريخ على مسرح (يلحد) في فترة
من الزمن .

• • •

إذا كانت المقالة الصحفية أنواعا ثلاثة : منها العرضي وفيها يعرض

(م ١٠ - أمب المقالة الصحفية ج ٣)

الكاتب فكرة له على جمهور القراء ، ومنها النقدي وفيها ينتقد الكاتب فكرة أو موضوعا ما ، ومنها النزالي وفيها ينازل الكاتب الصحفي خصما له في الرأي فأى نوع من هذه الثلاثة يمكن أن نعتبر مقالات (ما هناك ؟) . لا شك أنها من النوع الثاني ، وإن جنح فيها الكاتب إلى التجريح والإيذاء قصد الإصلاح . فإين ذلك كله من تلك الفصول التي كان يكتبها رجل كأديب إسحق أو محمد عبده أو عبد الله التنديم وفيها يدعو كل واحد منهم إلى الإصلاح ، ويوجه الدعوة إلى السلطان ورجال الدولة انعلية - ولكن في رفق كبير وحذر شديد وأدب جم في أكثر الأحيان - وذلك بالطبع فيما خلا المقالات القليلة التي كتبها - أديب إسحق في شتم رياض - ولما نحيل القارئ إلى الفصل الذي كتبه هذا الكاتب بعنوان : الإصلاح ،^(١) ثم يجد حديثا من هذا الضرب ، وإلى الفصول التي كتبها محمد عبده في العروة الوثقى ، ففيها مقالات نقدية من نوع آخر وهكذا .

الحق أن شخصية السلطان عبد الحميد ، أو شخصية آخر طاغية من أكبر الطغاة الشرقيين طوى من الشخصيات التي جذبت اهتمام الكثيرين من الأدباء والمؤرخين ، فمؤرخ يصف حال الدولة التركية الشلاء التي كان يتربع على عرشها هذا السلطان الكبير ، وآخر يصف الأحوال السياسية التي كانت تحيط به - وأديب يبلذ له أن يصف لنا القصور التي عاش فيها ذلك الحاكم المستبد . وآخر يجب أن يكشف لنا عن نفسية ذلك الجبار الذي قل أن يوجد له ولآبائه نظراء في التاريخ .

وقد تولت هذا الجانب النفسى من حياة عبد الحميد ؛ باحثة ألمانية ؛ هي الدكتورة « ألما وتلن » ، في كتاب لها ترجم إلى اللغة العربية بعنوان (عبد الحميد ظل الله على الأرض) وهو كتاب تعرضت فيه الباحثة النفسية

عبد الحميد فوصفتها وصفاً دقيقاً ، وكشفت لنا عما اشتملت عليه هذه النفس العميقة المضطربة من ظلمات ، وعما كان يجري في أعماقها من تيارات ، وعما كانت تدور فيها من حروب طاحنة ودامية !
والفضل لهذا الكتاب أولاً في أنه أمدنا بفتحاً لشخصية عبد الحميد نفتح به كل ما استغلق من جوانبها . وفيه - أي في هذا الكتاب - أن الخوف والذكاء يختلطان اختلاطاً قوياً في ذهن هذا الرجل . والحق أن كل ما صدر من عبد الحميد كان يدل دلالة صريحة على حدة ذكائه من جهة وعلى شدة خوفه في نفس الوقت من جهة أخرى . ولكن ما مصدر هذا الخوف الذي اعترى السلطان ؟

هنا تأخذ هذه السيرة في شرح طائفة من العقد النفسية المظلمة التي تكونت لعبد الحميد ، وسيت له كل هذا الطلع الذي أصيب في حياته كلها ، ولا تعبو هذه العقد النفسية أربعاً (١) :

أولها : طفولة قاسية كان يعاينها عبد الحميد مع أمه التي حملت به ،
والثانية : سقوط ثلاثة من سلاطين آل عثمان على مرأى منه وسمعه ،
والثالثة : توليه العرش على شكل معتصب له من أخيه السلطان مراد ،
والرابعة : ورقة تحايل مدحت (باشا) حتى كتب عبد الحميد توقيعها عليها ،
وفيها أن عبد الحميد يتعهد بترك العرش في اللحظة التي يتم فيها شفاء أخيه مراد الذي أفضى عن الملك بسبب نوبة عصبية شديدة ، زلزلت عقله وأتلفت صحته .

فأما الطفولة القاسية فقد أتت من أن عبد الحميد ولد في الثاني والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٤٢ من أم شركسية ولم يشأ أبوه السلطان عبد الحميد

(١) إننا نسمي هذه الأحداث التي صهرت بالسلطان عقداً نفسية من باب التجوز في القول ، ونحن نعلم أن هذه الحوادث تسبب عقداً نفسية من أحداث إن منطقتي اللاشعور ونسبها صاحبها ولكن عبد الحميد لم يلق هذه الأحداث التي أتت على حياته تأمير العقد النفسية .

أن يعترف به إلا في اليوم الثامن من ولادته ، وفي طول هذه المدة بقي والده يجهد ذاكرته في تذكر الأم التي حملت به من بين عدد كبير من الجوارى يربو في القصر على ثلاثمائة . وفي أثناء هذه المدة أيضاً كثرت الشائعات بين الحريم حول السيدة حاجي أم عبد الحميد أنها حملت به لامن السلطان ولسكن من أب أرمني . وهكذا أحيط ميلاد هذا الطفل بالشكوك التي أفضت مضجع أمه وحرمتها الراحة وزادت عن أجفانها النوم . غير أن هذه الأم المسكينة صبرت على الإيذاء حتى نما الغلام وكبر ، فألقت إليه بسرهما ، وغذته بلبان البغض لأتراها من الحريم ، والحقد على والده الذي تملكاً في الاعتراف به ، ولم يشأ أن يبدى لوادته بعد ذلك أى نوع من العطف . (وهكذا بينما كان الأطفال الآخرون في القصر يتعلمون حروف الهجاء كان عبد الحميد الطفل يتعلم حبك الدسائس والرياء والمداهنة — سلاح أولئك الذين قضت عليهم الطبيعة والظروف بأن يكونوا ضعفاء) (١) . وماتت هذه الأم في السادسة والعشرين من عمرها ، وكان عبد الحميد في السابعة من عمره ، فبقي أميناً لذكري والدته ، ولم ينس قط أنه لم يتنجح في التوفيق بين أبويه (فاقطب يأسه المرير إلى بغض لكل ما يحيط به) . وأسدل هذا اليأس على حياته ظلاماً كثيفاً من الوحدة . وبقي عبد الحميد في عزلة هذه إلى أن أخرجته منها والده عمه عبد العزيز ، واسمها الأميرة بورتقال Portevale . وقد شاركها عبد الحميد يومئذ هو ابنتين عجيبتين : هما هواية الفلك من ناحية ، وهواية السحر الأسود من ناحية ثانية ، وأصبحت منذ ذلك الحين يشتركان تارة في النظر إلى النجوم ، وأخرى في صنع الدمى التي تمثل شخصيات مكروهة لديهما ، فحيناً يعثان بها ، وحيناً ينفذان فيها حكم الإعدام وهكذا .

(١) الدرجة الثرية لسكتاب (عبد الحميد ظل اقه على الأرض) . وقد قام بهذه الترجمة الأستاذ راسم رشدي ، وطبع في سبتمبر سنة ١٩٥٠ — اقلتر ص ١٧

وأما العقدة النفسية الثانية ، فقد كانت أشد في نفس الفقى تأثيراً وأكثر تعمقاً . وكان منشؤها سقوط ثلاثة من سلاطين آل عثمان أمامه ، وهو يسمع ويرى . أولهم عبد الحميد والده ، والثانى عبد العزيز عمه وابن صديقه ، والثالث مراد أخوه . ولقد كان عبد الحميد يبادل هؤلاء الثلاثة بغضاً يبغض وحقداً يحقد . وكان يتمنى لهم جميعاً هذا المنصر الذى صاروا إليه . ولكن كان سقوط كل واحد منهم في الوقت نفسه يزرع في قلبه الخوف والطلع ، ويتمى فيه الشك والريب ، ويغرس فيه قلقاً يزداد مع الأيام ، إلى أن بلغ أقصاه يوم توليه العرش بعد أولئك الثلاثة الذين ذاقوا ألم النذل بعد العز ، ووخز الحرمان بعد السلطان . ولا يتسع المجال هنا لوصف المسرح الذى مثلت عليه هذه المأساة الثلاث ، وهى مأساة السلطان عبد الحميد حين عزله الجند وشيخ الإسلام ، ومأساة السلطان عبد العزيز الذى مات بعد عزله بثلاثة أيام ، ثم مأساة مراد الذى أصابته نوبة عصبية شديدة عندما سمع بموت عمه على هذا النحو .

ولذا ذاك أى في الوقت الذى كان يطلب فيه العرش أميراً يجلس عليه ذهب مدحت (باشا) إلى عبد الحميد ليعرض عليه السلطنة ، فأبى أول الأمر (لأنه تعلم من طفولته الصبر والاحتمال وانتظار الفرص المواتية) وأوى إلى منزله في انتظار هذه الفرص ، وهناك اشتغل بالفلك ، كما اشتغل بالسحر الأسود الذى أغرم به منذ طفولته .

وبعد أشهر قليلة من هذا الصمت قبل أن يكون عبد الحميد سلطاناً على تركيا ، وخرج إلى جامع بايزيد لتقام له مراسم السلطنة . وهناك في غمرة هذا الهدوء الشامل الذى نعيم على الجامع ، وفي غمرة هذا السرور العميق الذى نملأ قلب الأمير الشاب تسلسل إليه مدحت (باشا) وحمله على التوقيع على هذه الورقة التى سببت له آخر العقد النفسية وأخطرها على حياته ، لأنها أشعرتة بأنه مهدد في كل وقت بشفاء مراد من المرض ورجوعه إلى عرش السلطنة .

ولكن عبد الحميد ليس بالرجل القوي ؛ فقد قلنا إن الذكاء والخوف
يختلطان في نفسه اختلاطاً عجيباً ، وعنهما كان يصدر في كل عمل من أعماله
دائماً . فقد جلس عبد الحميد على العرش ، ولم يكذب يمضى عليه أربعة أشهر
كاملة حتى انعقد في عاصمة ملكه مؤتمر من ساسة أوروبا ، وزعموا أنهم إنما
اجتمعوا في الأستانة للنظر في إصلاح تركيا . ولكن هؤلاء المجتمعين
سرعان ما انصرفوا من اجتماعهم هذا عندما سمعوا دوى المدافع التي أطلقت
يومئذ إعلاناً للدستور الذي منحه السلطان عبد الحميد لتركيا . فانظر إلى
هذا السلطان الذكي كيف أصاب بهذا الدستور الذي منحه للشعب التركي
هدفين . وضرب بهذا الحجر عضفوريين .

أما الأول فانصرف هؤلاء الساسة في كثير من الخجل وكثير من الثقة
بدهاء هذا الرجل .

وأما الثاني قيادة وضعها السلطان في الدستور الذي منحه يومئذ ، هي
القيادة الثالثة عشرة بعد المائة . وفيها أن للسلطان الحق في أن يبتغي من أراد
فيه من رعيته ممن يرى أنه خطر على النظام القائم . وقد انتفع عبد الحميد
يومئذ بهذه المادة في نفي مدحت (باشا) ورشدي (باشا) وغيرهما ممن زعم للشعب
أنهم من دعاة النظام الجمهوري .

وكان خليقاً بعبد الحميد بعد ذلك أن يهدأ باله ، ويطمئن قلبه ، ويركن
إلى الراحة والسكون ، ولكنه لم يفعل . فقد بلغ من شدة اهتمامه بشئون
الدولة أنه كان معرضاً لأن يصاب بهزة عصبية فيما لو قيل له يوماً ما إنه
ليس من جديد ، أو أنه لا توجد وثيقة ذات قيمة في انتظاره على المائة (١)
ولا يهولن القارئ قولنا (شئون الدولة) فليست هذه الشئون في
حقيقة الأمر غير هواجس عبد الحميد ، وشدة ذعره ، وخوفه على نفسه
إلى درجة بالغة . وقد بلغ من أمر عبد الحميد في هذه الناحية أنه كان يرتب

(١) المصدر السابق ص ٢٩٠ .

له غرفة كبيرة في القصر ، يضع فيها صناديق من الحديد ، ويجعل لكل صندوق عيوناً يضع فيها التقارير السرية التي يمد بها الجواسيس من حين لآخر . وقد وكل بأمر هذه الصناديق موظفاً واحداً جعله موضع سره وأهلاً بثقتة ، وكان يقضى معه ظلمة الليل وسحابة النهار في قراءة هذه التقارير وترتيبها على أدق وجه .

وذلك هو الجانب الذي استرعى نظر إبراهيم المويلحي حين سافر إلى الأستانة بدعوة من السلطان فذهب إليها ، ووقع نظره على هذه الأمور التي جعلها موضوعاً لمقالات جمعت فيما بعد في كتاب له سماه « ما هنالك » .

على أن الأستانة ورجال الأستانة كانوا يعرفون كيف يخرجون قلب كل قادم إليها وإليهم ، ويشيرون كوا من البنض في نفس كل زائر لها ولهم . وهذا هو عبد الله النديم وقد سافر إلى هذه المدينة بأمر السلطان ، سرعان ما اصطدم فيها بداهية الأستانة إذ ذاك ؛ أبي الهدى الصيادي الذي مر ذكره ؛ وبلغ من غيظ النديم وضيقة بهذا الداهية أن ألف فيه كتاباً عنوانه (المسامير) بناه على سب هذا الرجل وهجوه والسخرية منه بأقذع الألفاظ . ثم حين نشر السيد علي يوسف هذا الكتاب على صفحات جريدة (المؤيد) تعرض لأذى الحكام على النحو الذي ربما أشرنا إليه في الجزء الخاص بصاحب المؤيد .

الآن وقد فرغنا من عرض جهود المويلحي في ميدان الأدب والصحافة يحمل بنا أن نعود إلى أسلوبه الكتابي ، لتلخيص ما نعرفه من خصائص هذا الأسلوب ، ولنعرف المسكاة التي يحتلها إبراهيم المويلحي في أدبنا المصري الحديث .

الفصل السادس

الخصائص الفنية لأسلوب إبراهيم المويلحي

مهما ذهبت تقرأ لهذا الأديب في جريدته (مصباح الشرق) فلن تقول عنه إنه كان موهوباً في السياسة ، ولكنه موهوب في الأدب ، مع أنه كان على اتصال دائم بكثير من رجال الحسب في عصره . غير أن نفسه — فيما يظهر — كانت تعاف السياسة ، ولا يجب الانغماس فيها ، فلقد عاش الرجل في عهد سعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس الثاني ، ولكنه لم يالف ولم يصطف ولم يخدم غير رجل واحد من أفراد الأسرة المالكة ، هو إسماعيل . على أنه لم يمكث في خدمته طويلاً بل كان يطوف البلاد ، وقد وصل في رحلته إلى الأستانة ، وكان له مع السلطان شأن وصفناه من قبل .

والعجب من أمر هذا الأديب الممتاز كيف يرى بعينه مصر في عهد الاستقلال ثم مصر في عهد الاحتلال ، وكيف يخلط نفسه بالملك والأمراء المصريين العظام ، ويصل إلى باب السلطان ، ثم لا يكون لذلك صدى في نفسه غير ما رأيناه من وصف الحياة السياسية المعقدة في تصور آل عثمان ؟

العجب من هذا الأديب الممتاز كيف لا يكون للاحتلال البريطاني تأثير في أعماق قلبه إلا في هذه القصة التي كان ينوي كتابتها ، ثم حالت الظروف دون إتمامها إذ ذاك ، ونفى بها قصة (موسى بن عصام) ، وذلك فضلاً عن طائفة من المقالات القليلة في مخاصمة الاحتلال هنا وهناك .

العجب من كاتبنا هذا كيف لا تترك الثورة العراقية ظلاً (١) في نفسه غير طائفة بسيطة من الرسائل القصيرة عنى عليها النسيان ؟

وأعجب من كل ما مضى في رأينا تلك الأشعار التي نظمها هذا الأديب الكبير في مدح فكتوريا ملكة الإنجليز ، وتهنئتها بيوبيلها في شهر يونيو

(١) حدثني من موضوع هذه الرسالة حفيدة إبراهيم (أندى) الموياسي ، ولكنها لم أذكر عليها حتى الآن .

سنة ١٨٩٧ ، حيث قال هذه القصيدة الكبيرة التي أفردت لها جريدة الأهرام صفحة خاصة . والقصيدة لطيفة النسخ ، متخيرة اللفظ ، جليلة المعنى ، عذبة الموسيقى ، ولا غبار عليها من جميع هذه النواحي .

أجل كان إبراهيم المويلحي رجلاً موهوباً في الأدب ، ما في ذلك موضع لشك أو لجدل . كانت اللغة التي يكتب بها هذا الرجل هي العربية . والعربية لغة القرآن ، وليست لغة تجارية ، محدودة الغنى في الأساليب والألفاظ . بل إنه إذا جاز أن توصف لغة ما بهذه الصفات فلا يجوز أن توصف بها اللغة العربية بالذات . ذلك أن العربية لا تصلح إلا لأن تكون لغة الأدب في أروع صوره وأعلى مراتبه . وربما أنه من أجل ذلك وجدنا المويلحي من كبار المدافعين عن العربية ضد العامية .

ثم إن إبراهيم المويلحي في رأينا من كبار المجددين المعتدلين ، وفي رأى المستشرقين من كبار المحافظين . والذي لا شك فيه أنه كان من أئمة هؤلاء حرصاً على اللغة والتقاليد والدين . وقد رأينا في ماضى كيف كان الرجل شديد الغيرة والتعصب للشرق ضد الغرب ، وللإسلام ضد بقية الأديان ، ولمصر وحدها ضد غيرها من بلاد العالم — لا يعرف في هذا التعصب هوادة ولا ليناً ، ولا يقبل في هذه الأمور مخالفة ولا مجادلة . وليس معنى ذلك أن المويلحي كان يدعو إلى الوطنية الضيقة بالمعنى الذى نفهمه نحن في أيامنا الحاضرة ؛ بل كان المويلحي يدعو إلى الوطنية الواسعة التي تشمل جميع المسلمين ، وتدين بالخلافة للعثمانيين . أما ما زعمناه من تعصب المويلحي لمصر فهو ضرب من ضروب الحب والإيثار لهذا البلد الذى لمس فيه عيوباً كثيرة تستحق الإصلاح .

والرجل وإن كان كثير الأسفار إلى البلاد الأوروبية ، كثير الاختلاط بشتى الأوساط في مصر وغيرها من الأقطار التي سافر إليها . كان لا يزداد بهذه الأسفار وذلك الاختلاط إلا إيماناً بتلك الأشياء الأربعة وهي : الإسلام ، والشرق ، واللغة العربية ، ومصر .

نعم - كان المويلحي من المحافظين في الأدب ، وإن كان من المجددين المعتدلين في الاجتماع ، وإليه انتهت رئاسة الكتابة الأدبية في من مصر . ولا أقول الكتابة الصحفية . لأن الصحافة المصرية يومئذ زعياً غير هذا الرجل . وسترى في الجزء التالي من كتابنا (أدب المقالة الصحفية في مصر) أن زعيم الصحافة المصرية في ذلك الوقت هو السيد علي يوسف . والفرق بين الرجلين كبير من نواح شتى سيتعرض لها البحث بمشيئة الله . وبحسبنا هنا أن نعرف أن المويلحي كان صاحب جريدة أسبوعية ، على حين كان السيد علي يوسف صاحب جريدة يومية . ولا شك أن الأولى أدنى إلى (المجلة) بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، وأما الثانية فصحيفة تطالع القارئ مرة في كل يوم ، ولا بد لصاحبها ومحررها في أكثر الأيام من كتابة المقال الافتتاحي الذي يستغرق منه وقتاً أقل بكثير من الوقت الذي ينفقه كاتب المقال في إحدى المجلات . والحق أن المويلحي لو أراد أن يكون كاتب صحيفة يومية لما استطاع ، وإن الشيخ علي يوسف لو قصر نفسه وقلبه على مجلة أسبوعية أو شهرية لما استطاع ، وأن كلا منهما كان لونا من ألوان الصحافة والأدب غير صاحبه .

وقد عرفنا أن المويلحي إنما تتقف بثقافة عربية شرقية خالصة ، قوامها القرآن ، والحديث ، والشعر ، والتاريخ ، والقصص ، والنحو ، واللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والأدب . ولا نستطيع أن نزع أن ثقافته قد اعتدت إلى أكثر من هذا الأفق . ومع هذا وذلك ففي هذا القدر كفاية لكاتب في مثل موهبة المويلحي . ومتى كان الإنسان موهوباً في الأدب فقد استطاع أن يحيل كل ما يعلبه إلى فن خالص لا ريب فيه . وأن يجعل من كل علم يعلبه أدباً خالصاً لا ريب فيه ، وأن يحسن الانتفاع بهذه الثقافة الشرقية التي أشرنا إلى بعض عناصرها .

على أن تتقف بثقافة واحدة ربما عاد على الكاتب بفائدة نهينا إليها الجاحظ في بعض كتبه المعروفة لنا . وخلاصة هذه الفائدة أن من عرف

لغة واحدة كان أكثر معرفة بالفاظ هذه اللغة ، وأوفر غنى بمادتها من عرف أكثر من هذه اللغة . وأما من حيث المعاني والأفكار فإن الذى يحدث هو عكس ذلك . ومعنى هذا أن اللغة الأجنبية - على حد تعبير الجاحظ - إنما تدخل الضيم على اللغة الأصلية فى ناحية الألفاظ ، وإن أورتها السعة والغنى فى ناحية الأفكار . .

فإذا صححت نظرية الجاحظ المتقدمة - وهى لاشك صحيحة ومشاهدة - كان المويلحى رجلاً موفور الغنى بالألفاظ ، ضخم الثروة بالأشعار ، عظيم القدرة على الانتفاع بالقرآن والحديث ، وبالثقافة الشرقية كلها فى صياغة الأسلوب الأدبى الذى عرف به .

وقد عرفنا لإبراهيم بصرأ كبيراً بالحياة التى انغمس فيها بمصر وغيرها من البلاد الأجنبية التى سافر إليها ، كما عرفنا له بصيرة نافذة فى معرفة الرجال الذين خالطهم مخالطة قوية متصلة كان لها أكبر الأثر فى أدبه وخلقه . فإذا أضفنا الموهبة الأدبية من ناحية ، إلى الثقافة الشرقية الخالصة من ناحية ثانية ، إلى الخبرة العظيمة بالنفس البشرية من ناحية ثالثة ، إلى ما ركب فى طبيعة هذا الرجل من القدرة على التعمق والسخرية من ناحية رابعة - خرج لنا من كل ذلك أديب من أدباء الصف الأول فى مصر والشرق ، وصحفى ممتاز من صحفى ذلك العصر ، ولم يكن هذا الأديب الصحفى غير إبراهيم المويلحى . ونريد أن نشخص أسلوب هذا الكاتب ، ونبحث عن الخصائص الفنية لهذا الأسلوب ، فنبادر أولاً إلى القول بأننا لم نر النثر المصرى الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر إلى عهدنا بهذا الكاتب قد أصبحت له هذه المرونة العظيمة ، والطواعية الكبيرة ، والانطلاق الواسع المدى الذى نراه لأسلوب المويلحى . لانكاد نستثنى من كتاب النهضة جميعاً فى كل ذلك غير كاتب واحد فقط ، هو السيد عبد الله التنديم ، وإنك لتحصن عند قراءة هذين الكاتبين أنهما لا يبدلان جهداً فى الكتابة ، وأن أحدهما لا يبكاد يشعرك

بأى نوع من أنواع الجهد في الكتابة ، فكأنهما كما يقول القدماء - يفران من بحر ، ينما ينحت غيرهما في صخر .

والعجيب أن نرى لأسلوب المويلحي كل هذه المرونة ، وتلس فيه كل هذه الطواعية على الرغم من مثل هذا الكاتب أحياناً إلى استخدام الزينة اللفظية ، وقصده أحياناً إلى اصطناع البديع . ومن شأن البديع والزينة أنهما يعطلان الكاتب ، ويكلفانه جهداً ومشقة في الكتابة ، وكثيراً ما يشعر القارىء بكل ذلك . ولكنك حين تقرأ للمويلحي تلمح فيه ذلك البديع ، وتشعر معه في نفس الوقت بمزية التطويح ، وتلس الزينة ، وتحس معها بمزية المرونة ، وفي ذلك أقوى دليل على الموهبة الأدبية التي منحها الله ذلك الكاتب القدير .

ونريد بعد ذلك أن نضع القارىء يده على بعض مميزات هذا الكاتب ، أو بعض خصائص أسلوبه في الكتابة . ولعل من أهم هذه الخصائص الفنية ما يلي :
أولاً : الانطلاق وطول النفس في الكتابة والاتساع في العبارة . وكثيراً ما نجد المويلحي يطيل الجملة الواحدة إطالة لا تشعر فيها بملل ولا سأم . على حين أن الجملة إذا بلغت هذا الطول عند غيره بعثت في نفس قارئها الضجر . وهنا نحيل القارىء على بعض مقالات المويلحي في كتابه «ما هنالك» وقد نقلنا من عباراته ما يكفي للدلالة على ما نقول ، ومن ذلك العبارة الطويلة التي اقتبسناها من المقالة الخامسة ، فليتمسبها القارىء هناك .

ومعنى هذا أن المويلحي كان رجلاً يحب الإسهاب والإطناب . وقد امتازت كتابته بهذه الميزة التي انفرد بها عن سواه : غنى في الألفاظ ، وغنى في الأساليب . وهو في كل ذلك أشبه ما يكون برجل ورث عن أبيه ثروة ضخمة ، وكنوزاً عظيمة ، فهو ينفق منها بسخاء ، ويظهر بها أمام الناس ، ويأخذ منها بغير حساب ، علماً منه بأن خزائن والده العديدة لا سييل إلى فسادها يوماً ما .

ثانياً : ميل المويلحي مع ذلك إلى الجزالة في الألفاظ والغالب عند

الكتاب الذين يؤثرون الإسهاب والإطناب أنهم يميلون إلى الألفاظ الرخوة،
والتراكيب فيها شيء من الابتذال . وقليل جداً من الكتاب من يستطيعون
الجمع بين الجزالة واتساع العبارة . وحقيقة كان المويلحي واحداً من أولئك
القليلين الذين حافظوا على جزالة اللفظ وورصاته ، وعلى قوة الجرس ونظامته .
ومعنى ذلك أن النثر المصرى تقدم كثيراً على يد هذا الكاتب الذى احتفظ
بالطابع القديم والنسج العربى المتين . ومن ثم لا نرى فى أسلوب المويلحي
هلهلة ولا إسفافاً ، ولا نرى أسلوبه يرتضح عامية شوهاء ، بل يزدان أسلوبه
بكثير من أساليب العربية فى أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة .

ولقد سقنا لك أمثلة على ذلك فى كل ما كتب المويلحي بجريدة مصباح
الشرق ومقالاته ما هنالك ، فلا حاجة بنا إلى هذه الأمثلة مرة ثانية .

ثالثاً : طابع السخرية والتهكم والاستخفاف والتندر ، وهذه الأشياء التى
طبع عليها المويلحي ، وكانت جزءاً من حياته وصفة من صفاته . وقد أكثرنا
القول فى هذه الميزة ، وضررتنا عليها الأمثال . فلما بحاجة كذلك إلى أن
نعيد فيها الكلام . وسنرى فى الفقرة التالية كيف أن السخرية عند المويلحي
أن تقوم على هذه الخاصة الرابعة من خصائص الأسلوب وهى :

رابعاً : الموازنة أو الطباق بين الألفاظ فى تارة وبين الأفكار تارة
أخرى . والحق أن للمويلحي ولماً كبيراً بهذه الموازنات يأتى بها فى كل مقال .
ولا يكاد يخلو منها كلام منسوب إليه . وكثيراً ما يأتى بهذه الموازنات فى جملة
تبدأ بما الذى بمعنى ليس ، ويكون خبرها مجروراً بالباء ، كما فى قوله « ما سار
به الليل وحيداً فى غابة التفت أشجارها ، وتكاثفت ظلماؤها ، وتجاوبت رياحها ،
وعزفت جناها وزارت أسودها ، وترامت على أقدامه أفاعيها وأسودها ،
لا يهتدى لطريق يسلكه ، ولا يجد موتاً وحياً يهلكه — بأخرف ممن يطأ
هذه الدوائر لشرم المطلق فى الناس ، وخيرهم المقيد لأنفسهم ، بوقوفهم على
باب فيه النعم والنقم ، والمز والذل . والحريّة والاستعباد . والشورى والاستبداد
والسعادة والشقاء والحياة والفتناء لدى خليفة عظيم وسلطان كبير ، .

ومن الطباق بين الالفاظ قوله في فصل الغازى عثمان (باشا) إته أسد
« بلفنا ، ونعامه « يلذ ، وقوله « فتسمن صررم بعجافة ذمهم ، وقوله : والله
يعلم أن كل ساكن فى الأستانة مهما بلغ به القدر لا يدري أتدخل عليه الشمس
صباحاً من نافذه البيت أم من نافذة السجن ، وقوله فى المقالة السابعة عن
الجواسيس ... وتعود صبيان القهاوى أن يقدموا للداخل الجمرة والمخبرة ،
فيحرقوا بالأولى الدخان ، ويحرقوا بالثانية أعراض الإنسان ، .

والحق أن السخر عند المولى لى إنما كان يعتمد اعتماداً كبيراً على هذه
الموازات التى يحدثها فى أسلوبه ، ويملاها بكلامه ، ليلفت إليه أذهان القراء ،
وليبيح فيهم كل ما يستطيع أن يبعثه من الضحك والازدراء ، أو الأسف
والرثاء . وليس للسخرية - فى ذاتها - غاية وراء ذلك .

خامساً : الإكثار من ضرب الأمثلة من التاريخ ، ومن الواقع الملموس
فعلى المحدث اللبى ، والقصى البارع ، والكاتب الغزير المادة الواسع الاطلاع .
وكثيراً ما تبنى هذه الأمثلة على قاعدة التبكيت الذى يتوجه به الكاتب إلى فئة
من الناس ، والتسكيت عليهم ، كما كان يفعل النديم فى بعض فنونه الصحفية التى
تعرفها . وربما كان للمصريين عامة ، والقاهريين منهم خاصة قولع بهذا النوع
من الحديث . وأكبر الظن أن المولى لى كان قاهرياً ممتازاً فى هذه الناحية . فمن
الواقع الملموس تلك الحكاية التى أشرنا إليها من قبل ، وخلاصتها أن الشيخ
ظافراً كان جالساً فى الحضرة السلطانية مع السيد أشعد والسيد أبى الهدى .
وفى أثناء الحديث قام من فوره وقال بهيئة الخشوع والخضوع : على الجالى
وغليك السلام ورحمة الله وبركاته . فسأله جلالة السلطان بعد أن قام وقام
السيدان لهذه التحية العجبية . فأجاب بأن الخضى عليه السلام . قد مر فسلم
علينا فرددت عليه السلام . ١ ،

ومن النوادر التاريخية التى من هذا القليل ما حكاه الكاتب من أن
أبا الحسين الجزار الشاعر دعا أصحابه يوماً ليخرج معهم للزهة خارج

المدينة ، فوقفوا في طريقهم على جزار ليشتروا لحماً ، ورجوه أن يقطعه
لأنة أدري بأطاييه ، فقطع لهم لحماً رديناً ، فلاموه فقال لهم :
« اعذروني ولا تؤاخذوني لأنني لما وقعت وراء القرمة أدركني لؤم
الجزارين ، ا

أما الأمثلة التاريخية فكثيرة في مقالاته التي كتبها في مصباح الشرق وفي
غيرها من الصحف في ذلك الوقت . ولسنا بحاجة إلى الرجوع إليها ، بعد
إذ أشرنا إلى الكثير منها في تضاعيف الكتاب .

سادساً : اللهجة النحلاية وكثيراً ما يمنح إليها الكاتب ، وبخاصة حين
تعلو درجة انفعاله في الكتابة . وهنا يكثر من النداء ، والندبة ، والاستغاثه ،
والإشارة ، والتنويع في الضمائر ، بمعنى الانتقال فيها من ضمير الغائب إلى ضمير
المخاطب أو العكس . وكثيراً ما يعتمد الكاتب أيضاً على تنوع الأساليب
من غيرية إلى إنشائية بقصد إحداث الحركة وإشاعة الحياة في الأسلوب ؛
وكثيراً ما يولع الكاتب أيضاً بإطالة المقومات التي يستهوي بها القارىء ويمجره
إلى جانبه . بل كثيراً ما يستطرد الكاتب إلى الشرح أحياناً ، والتعليق أحياناً
أخرى ، كما يفعل الأساتذة المحاضرون ، وكل هذه الخصائص المتقدمة هي
من خصائص الخطابة قبل الكتابة ، وانظر إلى قوله « أتريد أيها القارىء أن
تعلم كيف ذهبت تونس من الدولة ؟ أرادت الدولة أن تقبض على مدحت
(باشا) ... الخ وفي قوله « واغوثاه - لقد كانت ورقة من هذه الأوراق
تنشر القانون الأساسى ، وتجمع مجلس المبعوثان ... الخ . ولكن واحسرتاه
يصد اليوم عشرات منها في النهار لتفتيش بيت زيد أو استبطلاق عمر والخ .»
وإلى قوله « يا كساد العلم ، ورواج الجهل ، ويا شقاء الحق ، وسعادة الباطل ،
ويا خيبة الصادق ، ولجج المنافق ، ويا بكاء الأمين ، وضحك الخائن . أصبحت
دار السلطنة التي كانت عريناً للأسود خلايا تطن فيها زناير الجواسيس .
سابعاً : الزينة اللفظية . وهنا نبادر إلى القول بأن هذه الزينة اللفظية
كانت مظهراً من مظاهر ضعف الأسلوب عند الطبقة الأولى من الصحفيين ،

من لندن رفاعة الطهطاوى إلى عبد الله أبى السعود، إلى محمد أنسى، إلى ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن إلى ، وغيرهم من أصحاب الصحف المصرية الأولى . ولكن هذه الزينة اللفظية مظهر من مظاهر قوة الأسلوب عند المويلحى ؛ وهو الكاتب الوحيد الذى استطاع أن يحتفظ بهذه الزينة فى الكتابة الصحفية الخالصة احتفاظه بها فى الكتابة الأدبية الخالصة .

ألم تقل فى بعض فصول هذا الكتاب إن البديع ليس عيباً فى ذاته ، ولكن العيب عيب الكتاب الذين يصطنعونه فى أساليبهم من غير أن يعدوا أنفسهم له لإعداداً صحيحاً من حيث العلم والثقافة ؟ ألم تقل إن الفرق بين الكتاب الذين يجيدون ممارسة البديع والكتاب الذين لا يستطيعون الإجابة فى ممارسة هذا البديع هو فرق واحد من حيث الثقافة لا أكثر ولا أقل ؟ ومعنى ذلك أن العصور الفقيرة من الثقافة لا تستطيع مطلقاً أن تخرج لنا أدباً غنياً بالبديع ، وأن العصور الغنية بهذه الثقافة التى تخرج لنا أدباً جميل الصورة من حسن الرواء من حيث البديع . وذلك ما نستطيع تطبيقه على المويلحى ؛ فقد كان مثقفاً بثقافة شرقية لا بأس بها ، واستطاع أن ينتفع بهذه الثقافة فيما اختاره لنفسه من طريقه فى الكتابة امتازت فى بعض نواحيها بهذا البديع . ومن مظاهره - أى من مظاهر هذا البديع - فى أسلوب المويلحى أمور منها ؛ الترادف الصوقى أو التقسيم الموسيقى للألفاظ ، والسجع أحياناً ومراعاة النظر ، ثم الاستعارة ، والتشبيه ، ثم الاستشهاد بالشعر وبالقرآن والحديث ، ثم التضمين من الشعر ومن القرآن والحديث . وكل ذلك بطريقة عجيبة تشهد بمهارته فى الكتابة ، وسيطرته على فن الإنشاء . ولنا نريد أن نضرب الأمثال الكثيرة على الترادف الصوقى أو السجع أو التشبيه أو الاستعارة أو الاستشهاد بالشعر ونحو ذلك . وليكننا نحرص هنا على ضرب الأمثلة على تضمين المويلحى للقرآن فى كلامه فكأنه جزء من هذا الكلام . مثال ذلك « وأشربوا فى قلوبهم التجسس » . ونحن نعلم أن فى الآية الكريمة قوله تعالى « وأشربوا فى قلوبهم العجل » . وقوله على لسان حكيم فى حديث موسى بن

عصام: واعلم أن الصانع الحكيم أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا. وقوله في بعض مقالات « ما هنالك » ، وما زال بهرام له النظر الأعلى في طوائع النفوس ، والحكم المبرم عليها بالسعود والنحوس ، يحكم ولا معقب لحكمه ، ويأمر ولا راد لأمره إلخ ، وقوله في وصف موكب من موكب السلطان د ... فإذا دخل يلهز أطمانت القلوب ، وسكنت الخواطر ، واستوت سفينة النجاة على الجودي النخ .

أما تضمينه الشعر فنه قوله « وخرج مع البازي عليه سواد ، وقوله : وأما رجل الأستاة « فله طريق إلى العلياء مختصر » . والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى . ومن السهل على القارئ أن يلاحظها متى قصد إلى ذلك في أثناء قراءته شيئا من هذا الكاتب .

تاسعا : يجب أن نضيف إلى كل ما تقدم معرفة الكاتب الذي نترجم له معرفة تامة « بإيحاءات الألفاظ » . والناقد الأدبي كالأديب يعرف أن الألفاظ نوعا من الإيحاء يختلف في بيئته معانته في بيئة أخرى ، وذلك باختلاف الثقافة الشائعة في كل بيئة على حدة . والكاتب البليغ يستطيع أن يعتمد كثيرا على معرفته بوحى الألفاظ في إثارة المعاني التي يريد أن يثيرها في أذهان القراء . ذلك أن اللفظ القرآني إيحاء ، واللفظ المتداول في شعر رجل كالميتني إيحاء ، واللفظ المتداول في شعر المعري ، إيحاء والألفاظ التي تسمع كثيرا في شعر شوقي أو حافظ إيحاء ، والألفاظ التي تسمع كثيرا من فلان وفلان من الكتاب إيحاء ، وللألفاظ التي ترد في تضاعيف حكاية أو فائدة تاريخية إيحاء وهكذا (١) ، وليس شك في أن كل لفظ من تلك الألفاظ يوحى إلى

(١) من كلام المولى في وصف بعض مشايخ الأستاة « ومن رجه في من الزمان غير مباله وهو تميم يوحى بما حكى من الإمام أبي حنيفة وكان برجه أذى يضطره إلى مدما أمام الطلبة في أثناء الدرس ، فدخل عليه شيخ ذومبية ووفار فشق أبو حنيفة على نفسه وخوى رجه احتشاما وتوفيرا لهذا الشيخ الذي أخذ بعد ذلك يلقى أسئلة بلهاء على الإمام ويطلب منه الجواب . فقال الإمام جوابا من أحدهما : « الجواب ياموي أن يعد أبو حنيفة رجه غير مبال » وبسط أبو حنيفة رجه على راحته ولم يأبه لرجل .

المثقف بالثقافة القرآنية وحدها بشكل ما ، كما يوحى إلى المثقفين بالثقافة الشعرية وحدها بشكل آخر، وإلى المثقفين بالثقافة التاريخية الإسلامية بشكل ثالث ، وإلى المثقفين بالثقافة الأجنبية بشكل رابع وهكذا .

وعندنا أن إبراهيم المويلحي كان من أولئك الكتاب القليلين الذين اعتمدوا كثيراً على موهبتهم في هذا الناحية ، وقد أثبت لنا هذا الكاتب أن الثقافة الشرقية الخالصة كافية لأن تخلق الأديب العصري الممتاز ، والصحفي المقتدر النادر المثال .

لكن لأحب أن يفهم من ذلك أن المويلحي تخلى في كتابته الصحفية عن بعض الطرق الأدبية التي ورثها أديبا العربية عن سبقهم من أصحاب الأقلام ، لا بل الواقع أن براعة المويلحي إنما ظهرت في قدرته على تطوير الطريقة الكتائية القديمة « classique » تطويعاً يكنى للقيام بمهمة الصحافة .

ومهما يكن من شيء فإن إبراهيم المويلحي هو الممثل الأخير لهذه الطريقة القديمة في أدبنا المصري في القرن التاسع عشر . وسنرى أن هذه الطريقة القديمة بدأت تختفي قليلاً لتظهر مكانها طريقة أخرى أكثر ملاءمة للصحافة ؛ وهي الطريقة التي سلكها صحفى ممتاز في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ ونعني السيد على يوسف، وسيأتى الحديث عن هذا الأخير في جزء خاص به .

* * *

(وبعد) فلست أدري كيف يكون أمر هذا الكاتب العظيم لو أنه تثقف بثقافة أجنبية عميقة ؟ إني أستطيع أن أقول إن المويلحي لو أصاب قديراً عظيماً وعميقاً من هذه الثقافة الأوروبية من جهة ، ومن الفلسفة القديمة أو الحديثة من جهة ثانية لظهر أثر ذلك واضحاً في كل ما كتب من فضول قيمة في الأدب ، ومقالات جيدة في الصحف .

أجل - لست أنكر على المويلحي أنه كان يعرف الفرنسية والتركية . وربما كانت له معرفة كذلك بالإنجليزية . ولكن الذي أستطيع أن أجزم به

أن معرفته لجميع هذه اللغات كانت سطحية في جملتها ، أو على الأقل كانت معرفة لا تعين صاحبها على تعمق واضح في هذه الثقافات الأجنبية تعمقاً يترك ظلاً واضحاً في الأدب .

لقد رأيت هذا الكاتب يرد أحياناً - في جريدته مصباح الشرق - على بعض كتاب صحيفة الفيجارو الفرنسية . ولكن هذا الرد كان يتخذ لنفسه في الجريدة صفة العموم لا الخصوص ، وكنت تلمح فيه صفة العارف بفحوى المقال لا الدارس لتفصيلاته ودقائقه .

من أجل ذلك قرأ مقالات المويلحي ففتقدت فيها عنصر التحليل النفسى الأحداث والأشخاص على السواء ولنضرب ذلك مثلاً واحداً : مقالات ما هنالك ، فقد كان في استطاعة المويلحي أن يتخذ منها وسيلة لتشرح نفسية السلطان ، أو لشرح العقد النفسية الكبيرة التى تكونت عند هذا السلطان أو العقد النفسية التى يصد عنها الكثيرون من الرجال الذين كانوا على صلة دائمة به .

ولكن أتى للمويلحي أن يفعل شيئاً من ذلك ، ولا علم له بالفلسفة أو علم النفس ، أو هذه الثقافات الحديثة التى تعين الكتاب والأدباء وأصحاب القصص الزائفة ومن إليهم ؟

الحق أن كتابة المويلحي لاحظ لها من العمق وإن كانت موفورة الخلق من الجمال أو الحسن . ولو قد تنوعت ثقافة الرجل ، وازدادت مصادمه من العلم الأجنبى كما ازدادت أسفاره إلى البلاد الأجنبية لربحنا به كاتباً لا يشق له غبار ، ومضوراً لا تعجز ريشته عن تصوير النفس الإنسانية فى أعماق أغوارها ، بل فى أعقد حالاتها ، وفى الرجل استعداد كبير لبلوغ هذه المكانة الرفيعة كما رأينا .

ومع هذا وذاك فربما كنا نتجنى على الرجل بعض الشيء فى هذا المأخذ الذى نأخذه به ؛ لأنه لا ينبغى للناقد أن يقيس الكتاب والشعراء بمقياس العصر الذى يعيش فيه ، وإنما بمقياس العصور التى عاشوا فيها . وعلم النفس

كغيره من العلوم الحديثة - وليد القرن العشرين . والفلسفة الشرقية العميقة لم تصل كاملة أو كالسكاملة إلى عصر المويلى . ومن ثم كان له العذر كل العذر فيما رميناه به من العجز عن تحليل الحوادث والأشخاص على النحو الذى لا يقوى عليه غير أديب حنق هذه العلوم الحديثة . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

* * *

رحم الله السيد رشيد رضا ، فقد جمع لنا كل مقالات الأستاذ الإمام محمد عبده من بطون الصحف ، ووفر علينا وعلى الباحثين جهداً كبيراً فى البحث عن هذه المقالات . واستطعنا بفضل ذلك أن نتتبع الإمام فى مراحل الأديبة المختلفة ، وأن نكون لأنفسنا صورة من أسلوبه الكتابى ؛ كيف نشأ ، وكيف نمى وارتقى ، وما مراحل هذا النمو والارتقاء ؟

أما المويلى فلم يرزق بمن يجمع له هذه الفصول التى كتبها فى شتى الصحف ، ولا رزق حتى بمن يجمع له هذه الصحف . ومن ثم لم نلتق بهذا الصحفى الكبير إلا فى آخر مرحلة من مراحلها . وفيها - أى فى تلك المرحلة - كان المويلى قد تم نضجه من ناحية الأسلوب . فلم تفعل أكثر من أن تصف هذه المرحلة الأخيرة التى تمثلها جريدة (مصباح الشرق) من جهة ، ومقالات (ما هنالك) من جهة ثانية .

أما المراحل السابقة لهذه المرحلة فلم يرق إليها علينا بعدد كايينت . ولعل من الباحثين بعدنا من يظفر بالصحف الكثيرة التى نشرها المويلى فى مصر وأوروبا ، بل لعل من الباحثين من يعثر على جهود المويلى الأديبة قبل عهده بتلك الصحف . وإذ ذاك يستطيع هؤلاء الباحثون أن يصفوا لنا التطور الأدى لهذا الكاتب البليغ ، من حيث عجزنا نحن عن أن نكون لأنفسنا رأياً فى هذه المسألة .

النهر الأذج

التموزج الأول :

وعنوانه هكذا :

رأينا من الإصلاح في مصر نوعه وسوف نرى سوداها مثل ما نرى
فاهبطت حمر الثياب يلمة وكان لذر الأرض قوت من الثرى (١)
نعم هذا السودان الذي تنقل وتقلب بين أيدي ملوك المصريين جيلا
بجيلا ، من فراغتهم ، وعجمهم ، وعربهم مازال منذ فرغت منه يد الطبيعة على
حالتها واحدة إلى اليوم . فأقام كالسبخة لا يجف ماؤها ، ولا يرجى نباتها . وقد
تغيرت البلاد ومن عليها على مر العصور وكر الدهور ، وهو باق على صده
لا يتغير . وحتى تغيرت تلك الجزيرة جزيرة القوم بعد أن كانت تقسم معه
سهمه من جفوة الطبيعة وقسوة الإقليم : هذا يذيب أواره دماغ الضب
وتوارى فيه الحرباء عن قرص الغزالة ، فترغب عن عاداتها ؛ وترتد عن
عباداتها . وتلك لقرها وشدة بردها يصطلي فيه القوم ربها ، وينتصر فيها
المجوسى لعبادة النار ، فينبعث متغنياً بقول بشار :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار
فاتنقلت بنعمة الجد والاجتهاد وفضل السعى ، والإقدام درة البحر وغرة
العصر ، واستعان أهلها عليها بكثرة الدأب وشدة الطلب وكد القرية ،
وكدح الفكر ، فخرجوا من ظلمة الانحزال والانكماش إلى الانتشار
والانبعاث ، ومن ضعف الأيد وقلة الحول إلى بسطة الحكم وعرض الجاه
ومن ضيق الرزق وشدة الحرمان وضعف الجناح إلى سعة الغنى وغبطة
الحال وصعود الجد وخفض العيش .

وما زالوا منذ فرغوا من استصلاح بلادهم ، واستثمار أرضهم يرتادون
بلاد العالم يصلحونها لأنفسهم ويفلحونها لمنفعتهم ، حتى انتهى بهم الدور
اليوم في مجاهل أفريقيا إلى هذه البقعة التي طالما ذاقوا معها مرارة البأساء

(١) النظر العدد ٥٦ من جريدة مصباح الفرق .

وغضاضة الضراء ، فبدأوا بنصب مصائد الإصلاح وحياتل التمدن ونفاخ الترقى
الإنسانى . وكأنتنا بالسودان إذا انبسط فيه بساط هذه المدينة الغربية ، فهاشنت
من طرق حديدية وأسلاك برقية وتخطيط للرى وتشديد للصانع وتأسيس
للمعامل وإنشاء للمدارس وتكوين للشركات ، وقد خلعت عنه تلك الأيادى
البيضاء لباس السواد ، وزعت عنه ثوب الحداد ، فأثبت فيه الصخر ،
ولفظ رغامه التبر ، وانسابت جداول الماء على وجه الدهماء ، وغدت العظاة
في غرض القطاة في قعرها كالسمكة في نهرها لا تنشد مواقع السماء ، وأورقت
عمد الأطناب وأعشبت شعب الأقتاب ، وارتقى الظلم بعد الجلاميد ، وأنبات
العناقيد ، وجرى سيليل البخار جرى الأيام في الأعمار والأجال في الآمال .
فألقت الآبال عصا الترحال ، والتفت ظمأ العشر في هجير الفقر ، ودجن
فيه الأخدرى ، وأنس البقر الوحشى ، فذلك للركوب . وتلك للسواقى
والغروب ، واكتنست الغزلات حدائق القصور ، وهجرت تلك الربى وتلك
الصخور ، وأصبح الفيل مركباً للزينة في الخرطوم . يخظر محطم الناب موسوم
الخرطوم . وغدا العبد انقن حبراً في كل علم وفن ، وترقى ذوا الجلدة السوداء
إلى البحث في غوامض الكيمياء والكهرباء ، وسما الزنجى من مبارك الأنعام
إلى مرصد الأجرام وانقلبت يده من خريطة الزاد إلى ريطرة البلاد واعتاض
من زئير اللبوث في الغابات بجفيف الألحان في حافظة الأصوات ومن رؤية
الوحوش في المسارح بمشاهدة الصور المتحركة في المراسح ، ومن الدخن
والأعشاب بالفالودج والكباب ، وطبق ريج الإصلاح آفاق السودان ،
وسخر كل ما فيه للمصلح ؛ يقتطف ثمرته ويلتقف منفعته فيحمل ما يحمله
إلى خزائن الأرض في بلاده ويجلس فوقها منشداً :

وأرض بت أقرى الوحش زادى بها ليثوب لى منهن زاد
فأطعمها لأجعلها طعمى ورب قطيعة جلب الوداد
وما يدريك بعد ذلك أن يكون هذا الانقلاب من داعيات الخراب ،

وأن يكون الخروج من باب الشقاء دخولا في باب المحنة والبلاء ، والانسلاخ من المعيشة القبطية إلى المعيشة المدنية اندماجا في ثنايا الأسواء والأرزاء .
فإن صدق الطير وقضى الأمر فلا أحب إلا أن يأتي يوم يتمنى فيه العبد عيش الأب والجد، ونشئى لو تنقلب به الأيام إلى مراعى الأنعام ، ويؤثر ظلم أكل المرد والهبير على معسول تلك العناقيد ؛ وثود تلك الدواجن من الماشية لو عادت طعاما للأسود الضاربة .

فإن فطن السودانيون - ولما يقع التقنيص في الشرك - إلى مجازاة القوم ومباراتهم في جدم ونشاطهم ، وحسن تقليدهم فضائل المدنية ، مع التحرص بما يدخلونه عليهم من فضولها ، ثم الاتفاف بعلمهم والتغلب عليهم بفضائل تلك العلوم ، وإن لم يجلس في صدورهم داء التمدار والتقاطع والتشاحن والتضاغن والتحاسد وحب الأثرة ، ولم يجتدم فيهم ضرم الفتن وهيب الشعب وشد ما لقينا من هذه الأدواء ، أفلتوا من تلك المصائد ، وأوشكوا أن يعتدوا إلى الشرق رونقه الأسنى ، ويمحو من صفاته كلمة التوحش التي ليس للمؤلف الغربي محيد عنها عند وصف الأمم الشرقية .

وإن كانت الأخرى ونام السودانيون نومة المصريين في ظلال الاحتلال؛ يتفياونها وأغفلوا الحزم ، وأخطأوا منافع الرأي ، وضلوا موارد التدبير ، واغثروا من المدنية بالظاهر المموه دون النظر إلى الباطن المشوه ، وأجالوا النظر في أمورهم على الغد ، وتعلقوا بجبال المحال في التسويق بالاستقبال ، فما أشبه الحال بالحال ، وما أعجل أن تقوم بينهم نوادب الجرائد تستصرخ وتستنجد وتستغيث وتستعدى ، ولا سامع للشكوى . ولا كاشف للبلوى ، وقد حلم الأديم وبلى الرديم . هذا إذا لم ينسلخ من أرضه الجلد الأسود كما انقض من أمريكا الجلد الأحمر . هنالك يكي الهندي للمصرى ، ويكي المصرى للزنجى ، والقوم رابضون في أرضهم ربوض الآساد في آجامها محلقين فوق رؤوسهم تحليق الأجادل والنسور في سمائها .

وأعجب العجب أن الاثكليزي يسقط من منطقة الجليد إلى تلك المنطقة المحترقة ، ويخرج مما كان فيه من رفاهية المدينة ورفاهية العيش ، ويهبط من أفق النعيم إلى درك الجحيم ، تلفحه الرمضاء ، وتلوحه الشمس ، ويرتجه التعب ، وينهكه الأين والكلال ليتفتح بما قضى به لنفسه من حق الاشتراك في السودان . وترى شريكه المصرى منزوياً في بلاده فاقداً للقوت ، محروماً من الرزق ، قد أضناه العسر والبؤس ، وأذابه الفقر والعدم ، وبات يتعلم من آلام المعيشة تمليل السليم من لدغ الحية ، فلا ينشط أبداً ولا يهتزل للخروج من هذا الضيق ، وسلوك ما يتسع أمامه من مسالك الأزراق . وهذا السودان قد صار منه على رمية سهم ، وفواق ناقة ، وهو أقرب الناس إلى الانتفاع منه ، وأدناهم إلى أهله لوحدة الدين ، ووحدة اللغة ، وتناسب الطباع ، وتآلف العادات وتوافق الإقليم ، فينام عنه بملء جفونه ، ويفضل التسلى بالآئين والشكوى عما هو محيط به من الآلام والمحن .

فإذا كان مارسخ في النفوس من الفرع والجزع عند ذكر السودان أيام كان مهبطاً للنفي ، وسجناً للتعذيب ، وما كان يهول المصرى من بعد المشقة ومشقة السفر ، ومخاوف اليبداء قد بعد به عن قصد تلك البلاد ، والانتفاع منها طول تلك الأزمنة الماضية ، فما عذره اليوم وقد كادت الحرب تشتعل والقتال يستعر بين دولتين من أكبر دول العالم ، فيهدم ماشيده العلم ، وأنشأه القمدن قرونا عديدة في لحظة واحدة للتنافس بينهما على تلك البلدة التي كانت معدة عندنا لنفى المجرمين في أقصى بلاد السودان . وبماذا يقنع المصرى نفسه في هذا القعود وقد أصبح السفر إلى السودان أيسر طريقاً ، وأقرب مسافة وأخف مؤونة من السفر إلى مثل البرلس أو الواحات .

أفلا ينظر المصرى نظرة واحدة إلى اليونان الذى سبقه إلى الانتفاع والارتزاق في أنحاء السودان ، فيراه يسير وراء الجيوش ، حتى إذا حطت رحالها ، وانتشب القتال ، وعلا القمام ، وتزلزلت الأقدام ، واشتبكت الأسلحة

واشتجرت الرماح ، وسالت الدماء حط اليوناني أيضاً رحله ، وعرض بضاعته لمن يشتريها في هول هذا المورق ، وحر ذلك الموقع ، ثم يعود بعد ذلك إلينا فيعيش بيننا بما جمعه من مال عيشة تغبطه عليها الخاصة ، وتحسده العامة . ومع هذا كله فالإنكليزي بحكم الطبيعة إنسان واليوناني إنسان والمصري إنسان .

لعل هذا المثال الأول من الأمثلة التي نسوقها لكتابة الموبلحى الكبير يعتبر نموذجاً كاملاً لفن الكتابة عنده . فهو رجل تغلب فيه نزعة الآداب نزعة الصحافة ، ويرتفع بالمقال الصحفي إلى الدرجة التي لا يطمع المقال الأدبي نفسه في أبعد منها .

فن تقطيع موسيقى لل عبارات ، إلى إشار لجزالة الألفاظ ، بل حرص شديد على هذه الجزالة ، إلى إتيان بالموازنات اللفظية والمعنوية إلى سمو في العبارة ، إلى مهارة عظيمة في تبكيث المصريين لتكاسلهم عن مسابقة الإنجليز في عمارة السودان ، وعن منافسة اليونان في استجلاب الرزق . وهو تبكيث قوي انتهى منه السكاتب بهذه العبارة اللطيفة وهي قوله :

« ومع هذا كله فالإنكليزي بحكم الطبيعة إنسان ، واليوناني إنسان ، والمصري إنسان » .

التحويج الثاني :

الترك والعرب^(١)

لم يكن فضل الترك في حفظ السلام ، وتشديد دعائمه ، ونشر دعوته ، وتأيد صولته، والدفع عن حرمة وحرمة ، بالشئ الحديث والأمر الجديد، ولا هو مبدوء فيه بيده الدولة العثمانية ، ولا نشأ في نفوسهم بنشأتها . فهم الحماة له ، والكفاة فيه ، والذادة عنه والأنصار لدين الله منذ العهد البعيد والدهر القديم . دخلوا في خدمته، وقاموا بنصرته في صدره وشباب عصره . أدخلهم المعتصم بالله ثامن الخلفاء العباسيين، فجعلهم جنده وأعوانه ووزراءه وقادته . وأخذ الخلفاء من بعده بما أخذ فيهم ، فكانوا لديهم العدة في الشدة، والعمدة في فتوحاتهم وغزواتهم؛ ينتصرون بهم ويدفعون عن الدين بجمعهم . وصفحات التاريخ بين أيدينا تشد لهم بأنهم ما زالوا ينفعون بخدمتهم فتح اليد للقم والدم للتجسم منذ الأعصر الأولى إلى اليوم ، فلهم الفضل الظاهر في الأول والآخر .

وكانما الدهر لا يدور، والزمان لا يحول ، والأشياء فيه تتجدد ، والنظائر تتعدد ، والحوادث فيها يبدئها وبعيدها ، والكتائب كلما نفذت نسخة تجدد طبعه . فقد عثرنا على رسالة كتبها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى الفتح ابن خاقان وزير المتوكل في مناقب الترك وعامة جند الخلافة يقول في صدرها:

« فإن السلطان لا ينفك مُتَسَاوِلَ نَاقِمٍ، ومن محكوم عليه ساخط، ومن معزول عن الحكم زارٍ، ومن متعلل متصفح، ومن معجب برأيه ذى نخل في بيانه مولع بتهجين الصواب وبالاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان جميع المملكة ، يضع نفسه في مواضع الرقباء

(١) لفر بالمدد السادس من مجلة « مصباح الفرق » بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٢٩٨ .

وفي مواضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يحدّر ، وإن كان مجاز ولا يقف فيما يكون للشك محتملا ، ولا يصدّق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده ومستديره من لم يعرف مستقبله .

إلى آخر ما تراه مسطوراً من هذه الرسالة في الصفحة الثالثة من هذا العدد. فتعجب معنا ويحق لك العجب كيف أن ما كان يكتب ويقال في القرن الثاني أصبح ينطبق على حال القرن الرابع عشر في اعتراض المعارضين وانتقاد المنتقدين ، وفي الرد عليهم ، وفي بيان الرابطة التي تربط العربي بالتركي والتركي بالعربي ، حتى كأن الجاحظ وهو يملأ أقواله في المسجد يكتب معنى اليوم في الجريدة بعد مرور القرون وكروور العصور .

فما الرأي الأحزم لجماعة المعارضين والمنتقدين على ما لا يوجب الاعتراض والانتقاد في أعمال الدولة إلا أن يكفوا ويرتدوا عن أمر قد سجل بذمه وعدم جدواه من عهد القرون السالفة ، وأن يتعاونوا على ما هو الأتبع والأصلح للأمة الإسلامية والدولة العثمانية ، وذلك أن يتركوا الأمر لصاحبه ومن يضع الهدى مواضع الجرب فهو بالنافع أدرى وبالصالح أخبر . وقد قال علي بن أبي طالب لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما وقد أشار عليه في شيء لم يوافق رأيه ، لك أن تشير علي بالرأي ، فإذا عصيتك فأطعني . وقالوا الإمام أفضل من الرعية رأياً وتديراً . فالواجب على من يشير عليه بأمر ولا يقبله أن يطيع ويسلم ويعلم أن الإمام قد عرف من المصلحة ما لم يعرف . وقال أبو إسحق الصابي في بعض فصوله : ولولا فضل الرعاية على الرعايا في بعد مطرح النظرة ، واستشفاف عيب العاقبة لتساوت الأقدام ، وتقاربت الأفهام ، واستغنى المأموم عن الإمام .

اللهم اجمع قلوبنا على الحق الأبلج والصراط الأقوم ، وقنا عواقب التفرق والتشتت والتجزب والتشعب ، واسلك بنا طريق الهداية في كل حال ،

المخزج الثالث :

مصر وحدها كيف يتداخل المختلون (١)

ذكرنا فيما مضى للقراء الكرام في كلامنا عن الشرق وحده أن الشرقي واسع الخيال ، حديد الذهن ، مشتعل الذكاء ، لطبيعة الأقاليم الشرقية ، يكاد يسبق ذهنه إلى النتيجة عند بدء المقدمة ، ويجعل بمصادر الأمر قبل بواذره . والمصري من بين جمهور الشرقيين أوسعهم خيالا ، وأحدهم ذهنياً ، وأقدم ذكاء ، وهو أكثرهم تشعباً في الفكر ، وأطوعهم انقياداً للوم ، وأساهم عن المقدمات ، وأسبقهم إلى النتائج ، وأسرعهم في الحكم . فلو تكلمت مع مصري مثلاً على عمل يعمل له لربح يربحه لاخترق بفكره الثاقب جميع مقدمات العمل ، واحدة إثر أخرى ، ولننفذ فكره منها كما تنفذ الكهرباء إلى الأجسام ، لشغفه بالوصول إلى النتيجة ، فيأخذ في تعداد وجوه الإنفاق من ذلك الربح الموهوم ، قبل الشروع في العمل ، ويفوته حينئذ التأمل فيما عسى أن تحتوى عليه المقدمات من الأغراض التي تعكس عليه النتيجة بتامها ، كالناسك الذي كان يجرى عليه من بيت رجل تاجر في كل يوم رزق من السمن والعسل ، وكان يأخذ منه حاجته ، ويرفع الباقي في جرة ، فيعلقها في وتد من ناحية البيت حتى امتلأت . فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره ، والعكاز في يده ، والجرة معلقة على رأسه ، تفكر في غلاء السمن والعسل فقال : سأبيع ما في هذه الجرة بدينار وأشتري به عشرة أعنز ، فيجلن ويلدن في كل خمسة أشهر بطناً ، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تصير غنماً كثيرة . ثم حرر على هذا النحو بضع سنين ، فوجد ذلك أكثر من أربعائة عنز فقال : أنا أشتري مائة من البقر بكل أربعة أعنز ، ثوراً أو بقرة ، وأشتري أرضاً وبندراً ، وأستاجر

(١) مصباح الفرق — عدد ١٩ السنة الأولى بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٨٩٨ .

أكرة ، وأزدرع على الثيران ، وأنفع بالبان الإناث ونأجها ، فلا يأتي على خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع ما لا كثيراً ، فأبني بيتاً فاخراً ، وأشتري إماماً وعبيداً ، وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن وأدخلها فتحمل ، ثم تأتي بغلام سرى نجيب ، فأختار له أحسن الأسماء . فإذا ترعرع أدبته وأحسن تآديبه ، وأشد عليه في ذلك ، فإن يقبل مني وإلا ضربته بهذه العكازة ، وأشار يده إلى الجرة فكسرها ، فسأل ما كان فيها على وجهه .

فقد رأيت أن الناسك مر على ما ترى من المقدمات فلم يقف عند واحدة منها ، بل جعل همه كله في الانصراف إلى النتائج . وهذا معنى قلة التبصر ثم إن المصري لتوزع فكره ، وتشعبه وتوجهه بكليته إلى النتيجة لا يتمكن من الوقوف هنيئة على علاقات الأعمال ببعضها (١) ، فتبقى أعماله منفصلة غير مرتبطة ، ويتعذر عليه ترتيبها على نسق مخصوص ، وتوجيهها إلى غرض مقصود . وهذا معنى قلة التروى .

والإنكليزي بما لم تهبه الطبيعة من قوة الذكاء واتساع الخيال تراه بطيء التصور بطيء القياس قادراً بذلك على التأمل ، والتثبت ، والتروى ، والإمعان فان عمد إلى أمر انصرف بجميعة أولاً إلى النظر في المقدمات ، وأخذ يقلبها بطناً لظهر ، فلا يثني حتى يقتلها علماً ، ثم ينبري للقياس فلا يخطئ إلا بما كسبه الحدثان ، وصروف الزمان التي لم تكن في قدرته أن يحيط بها . وله من تلك الآثاء وذلك الإمعان ما يسهل عليه الوقوف على علاقات الأعمال بعضها ببعض على قدر الطاقة البشرية . ولما كان النجاح في الأعمال يتوقف على العلم بارتباطها ببعضها اجتهد الإنكليزي في ممارسة هذا الباب حتى صار عنده في منزلة المدرس يتلقاه ويحفظه . ومن أمثلة ذلك تلك القاعدة التي تجرى عليها وزارة الخارجية الإنكليزية ، فان كل سفير لها في الخارج يرسل

(١) هذا خطأ في استعمال بعض ، والصواب أن يقول : علاقات الأعمال بعضها ببعض . وهو خطأ شائع في كتاب القرن الماضي . بوجه عام .

إليها في ختام كل شهر تقريراً يحتوي على جميع ما يراه في الدولة المقيم بها ؛ فتجتمع الوزارة هذه التقارير ؛ وتبعث بأسنخها إلى جميع سفرائها : فسفيرها في الصين يعلم ما يعلنه سفيرها في مراكش ، وسفيرها في العجم يعلم ما يعلنه سفيرها في أمريكا ، والسكل يعلمون ما عند السكل ، فلا ترد على سفير منهم حادثة إلا وهو مطلع على متعلقاتها من جميع الجوانب والأطراف . وهذا سر تغلب الإنكليز على الممالك الشرقية بالرأى لا بالقوة .

فإذا اجتمع مصري مع إنكليزي على عمل غاب المصري لا اضطرابه ومجملته ، ونجح الإنكليزي لسكوته ولتؤدته . ولا يزال هذا نصيبهما إن لم يتعود المصري على الثبوت والتأمل ليرى ما وضع له في طريقه من الحوائل والإشراك . ولا يكن المصري مع الإنكليزي كالمسافرين يؤمان منزلاً واحداً ، أحدهما راجب متمجّل ، والآخر راجل متمهل . فان وصلا فقد فات المتمجّل ما اطلع عليه المتمهل من معالم السفر ومواقف النظر . وربما وصل الراجل وضل الراكب ، فاقطع به طريقه . وقد قال عليه الصلاة والسلام : إن المنبت (١) لأرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

وتاريخ الاحتلال يشهد لنا بكل ما تقدم . فانك ترى المصري يتسرع عند كل حادثة إلى التمسك بكل سبب ، والتعلق بكل طرف ، فيضطرب في الأمر ، ويختلط في الرأى ، وهو ذاهل عما يضعه له الإنكليزي في المقدمات من دقائق الأغراض التي تعكس عليه النتيجة .

وما زال المحتلون يتفعون بصوابهم وخطئنا معا ، وينالون أغراضهم ياغتيالنا الحزم في أمورنا ، وانتباههم وتبصرهم في أمورهم ، حتى تمسكوا من التداخل في إدارات الحكومة المصرية ، ولم يبق في أيدينا منها إدارة سالمة من تداخلهم إلا إدارة الأوقاف التي دبروا لها ما دبروا لوقوعها في أيديهم أيضاً . وقد رأينا أن نبسّط تاريخ تداخلهم فيها شاهداً على ما قدمنا ، ونموذجاً لما بيننا . فنقول .

(١) المنبت الذي يتطلع من أخوانه في السفر ، يجهد دابته ليسبق أخوانه ليهلك هو وواجه .

كان ديوان الأوقاف نظارة معدودة من نظارات الحكومة إلى أواخر رئاسة نوبار (باشا) لمجلس انظار سنة ٨٤ . وفي ذلك الحين قرر مجلس النظار فصل تلك النظارة عن هيئة الحكومة ، ووضعها تحت نظر الحضرة الخديوية مباشرة . وكان ذلك على أثر التلغراف المشهور الذي أرسله اللورد جرانفيل ناظر خارجية انكلترا في وقتها إلى المرحوم شريف (باشا) رئيس مجلس النظار قبل استغفاته : بأنه مادامت الجيوش الانكليزية مقيمة في القطر المصري فعلي رجال الحكومة المصرية أن يأتمروا بما تشير به الدولة الانكليزية عليهم من الآراء . فارتأى المغفور له توفيق (باشا) أن يفصل هذا الديوان عن هيئة الحكومة ليكون بآمن من تداخل المحتلين ، وليسلم من الدخول تحت نص هذا التلغراف ، فأعانه دولة نوبار (باشا) على رأيه في فصله ليشغله به عن الحكومة ، ويستبد هو مع المحتلين بجميع أعمالها . وبقي الحال على ذلك إلى حين نظارة دولة رياض (باشا) ، فسعى في إرجاع ديوان الأوقاف إلى الحكومة كما كان عليه لما اعتاده من حب التفرد بمباشرة أعمال الحكومة كلها . فلم يسع المرحوم توفيق (باشا) إلا التسليم له في أن يجعله تحت مراقبته الشخصية فقط مع تعيين أحمد حمدي (باشا) مديراً له ليأتمر بما يأمره به رياض (باشا) ، ويكون دولته واسطة بين الأوقاف والمعينة . ورأى أن هذه المراقبة تقوم مقام إعادة الديوان إلى هيئة الحكومة ، مادام هو رئيساً باقياً فيها . ثم استشعر الحاجة إلى سن لائحة يسير عليها الديوان في إدارته ، فكلف لجنة بإنشائها . ولما انتهت اللجنة منها سقطت نظارة رياض (باشا) ، وخلفتها وزارة سعادة مصطفى (باشا) فمضى ، فاسترجع المرحوم توفيق (باشا) وكالته التي أعطاهها لدولة رياض (باشا) في مباشرة أعمال الأوقاف ، فرجع الديوان كما كان مرتبطاً بالمعينة رأساً ، وحفظت اللائحة المذكورة في محفوظات مجلس النظار لا يحركها إلا من ينفذ الغبار عنها .

وفي عهد الجناب العالي عرضت مسألة من المسائل لها مساس بالأوقاف

ودارت المذاكرة فيها بين الحكومة ومجلس شورى القوانين ، فذكر المجلس الحكومة بتلك اللائحة التي وضعتها ، وما كادت تعرضها عليه حتى سقطت نظارة مصطفى (باشا) فهمى . واشتد النفور بين الحكومة والمحتلين . فكان المحتلون يعيرونها ويسكتونها في كل آن بفساد الأمور في المصالح التي لا تدخل للمحتلين فيها ، ويضربون المثل بديوان الأوقاف ، واختلال أعماله . ويقيمونه حجة على أن كل ما كان في أيدي المصريين غالياً عن مراقبتهم يكون على مثل ذلك الاختلال . وأكثروا من هذا التعبير ، والتنديد ، حتى اضطروا المعنية أن تطلب بنفسها النظر في لائحة الأوقاف ، ولما كانت تلك اللائحة موجودة في مجلس النظار ، ولا بد لتنفيذها من رأى مجلس شورى القوانين ، ولا سبيل لعرضها عليه مباشرة من المعنية ، بل لابد من توسط مجلس النظار أمرت المعنية رئاسة المجلس بإخراج تلك اللائحة والنظر في أمرها ، ورئيسه يومئذ نوباد (باشا) ، فاتهز هذه الفرصة ليأخذ من المعنية ما كان أعطاها لرباه لعرضه الذي أغتته الحوادث عنه ، ويرده إلى الحكومة ، فيدخل تحت مداخلة المحتلين . فلم تشعر المعنية إلا وقد أضيف إلى تلك اللائحة فقرة تجعل النظارة المسالية واجب المراقبة على حسابات الأوقاف ولما كان ديوان الأوقاف من المصالح خوات الإيراد والتفقات ، وكله حساب في حساب كانت المراقبة الحسائية عليه مراقبة على جميع أعماله ، وتداخل في كافة شؤونه وتوضار المحتلون بهمد ذلك إذا ذكروا أمور الأوقاف ذكروها بنير اهتمام ولا عناية ، ليستروا ما وضعوه من الأغراض ، وداموا على هذا الحال سنة كاملة اقتصروا فيها على إرسال موظف من المالية إلى الأوقاف في بعض الأحيان ، حتى جعلوا رجال الأوقاف أنفسهم في مقدمة المستخفين بتلك المراقبة ، والزاعمين بعدم وجودها ، واعتقدوا أن المحتلين لا يتجاوزون في مراقبتهم إلى غير ذلك القدر ، ولأنهم لا يتعدون حدود تلك المداخلة الخفيفة في المستقبل كما يعملون في بقية النظارات ، لأن الأوقاف يحميها منهم اسمها .

وبعد أن مضت سنة أخرى على هذه المراقبة الخفيفة حان لمندوب المالية أن يصرحاً بأنهما عاجزان عن مراقبة الحسابات وترتيبها إذا استمر الديوان على طريقته الأولى في الحساب، ولم يوحده، فضدت المالية رأى مندوبها، فشمرت المعية والأوقاف بما أخفى لها، وأحسا بثقل النتيجة التي كانا يستخنان بمقدماتها.

وهنا نقول أن القارىء لهذه السطور كأنما يقرأ قصيدة من شعر شاعر بليغ، فبينما هو يلهو بنسبها إذا انقل به إلى مديحها لحسن التخلص، وحسن التخلص هنا هو الاستيلاء على الأوقاف بعد ذلك الاستخفاف.

ولما انكشف السر للمعية والأوقاف هالهم الأمر، وكثرت المداولات مع العلماء في مجالس متعددة لسد هذا الباب بعدم الإفتاء بتوحيد الحسابات، حتى قال سعادة إبراهيم (باشا) نؤاد ناظر الحقانية في بعض تلك المجالس كلمته المشهورة عنه: إذا كانت الشريعة لا تبيح توحيد الحساب فالحكومة المصرية لا تقيد نفسها. وبعد جدال طويل تقرررت الطريقة التي ترومها المالية بعد تخفيف في ظاهرها.

ثم قال المكاتب بعد كلام طويل:

والقلم واللسان عاجزان عن وصف التدرج الذي يتداخل به المحتلون وابتدائهم بالصغير لينتموا منه إلى الكبير. وما يماثله إلا تلك النادرة من نواذر أدلامة الشاعر: فقد مدح الخليفة السفاح، فقال له سئى حاجتك. قال أبو دلامة حاجتى كلب أتصيد به. قال أعطوه إياه. قال ودابة أتصيد عليها. قال أعطوه. قال: وغلّام يصيد الكلب وقروده. قال: أعطوه غلاما. قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية. قال يا أمير المؤمنين: هؤلاء عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنونها. قال:

أعطوه داراً تجمعهم . قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فن أين يعيشون ؟ قال
قد أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة جريب عامرة . قال وما العامرة : قال
مالا نبات فيها . فقال : قد أقطعتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب
عامرة من فيافي بني أسد . فضحك وقال : اجعلوها كلها عامرة . قال فأذن
لي أن أقبل يدك . قال أما هذه فدعها . قال : والله ما منعت عيالي شيئاً أقل
ضراً عليهم منها .

فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها ابتداءً بكذب فسهل القصة به ، وجعل
يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة ، حتى نال ما لو سأله بديهية لما وصل إليه .
ولو أن أبا دلامة ما زال مستمرسلاً في هذا النحو لانتهى بالوزارة يطلبها
والأمانة يخطبها !

التمهيد الرابع :

العزة في القوة (١)

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد لل سيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فانما نحن للأسياف كالخدم
استنهاضك الرجل وهو في أرضه ومزرعته بين زوجه ، وولده ، وأنسابه
وأقربائه ، وخلاته وجيرانه ، ومعالم دياره ، وأعلام دينه ، وحملك له على
التدجج بالسلاح ، والتحصن بالدرع ، ليدفع عن حماه العدو المفاجيء ،
وينود عن حرمة المغير الطاريء ، فينهض فيرميه بسهم أو يطعنه برمح ،
فيلقيه إلى الأرض صريعاً للدين وللقم ، فيسلم له أهله وماله - ذلك حقيقة
معقولة وأمر حاصل يعمل به .

وقعودك بالرجل عن الأخذ بأسباب الدفاع ، واختيارك له في حفظ
حوزته ، والعدو محيط به من كل مكان أن يضع ابنه في المكتب . ثم في
المدرسة ، ثم في الكلية ، فيتلقى هناك ما نشئت من علوم التمدين والتهذيب ،
وما تفرق من وجوه العلوم والمعارف ، وما اختلف من أبواب الصناعات
والحرف ، ثم ينتقل إلى المطالب العالية من البحث في الطبيعيات
والرياضيات ، فيخترع الآلات ، وابتدع الأدوات ، ثم يرجع من البحث في
ما وراء الطبيعة وقد تساوت عنده الأديان ، وأصبحت لديه الديانات كلها
إحناً ، والمذاهب كلها فتناً ، وخلص من تلك الغلظة الموروثة ، فلاتت عريكته
وانبسطت نفسه للناس على اختلاف مذاهبهم وبقائهم عليها ، فرآهم كلهم له
إخوة ، واعتبرهم له أعواناً . فإذا وصل إلى هذه الدرجة المطلوبة ، وأمهله
العدو تلك الستين الطوال ، قام يدفع العدو عن حوزة أهله وبيضة قومه -
ذلك هو الطيران على أجنحة الخيال في جو المجال .

(١) مصباح الشرق - عدد ١٨ من السنة الأولى بتاريخ ١٨ أغسطس ١٨٩٩

وقد بحث الباحثون في اختيار الوجهة التي تتخذها الدولة العلية لدفع ما يستدير بها من الملل والمكائد والمكاره ، فذهبوا مذاهب شتى ، وانصرفوا إلى أغراض مختلفة . ومنهم صاحب تلك الرسالة التي طلعت من أفق المشرق على «المصباح» فأوضح فيها أن الوجهة القويمة للدولة العلية في حفظ مركزها من مخالب الأعداء المحيطة بها هي التحصن بالقوة ووسائل المنعة ، وأن ذلك هو الدواء النافع الذي يقتضيه حالها في وجوب الإسراع في التوقى لعدم احتمال المدة وجها من الوجوه الأدوية الأخرى . فوعدت أقواله أحسن الوقع من نفوس الذين يدركون تلك الحقيقة ، ويحسون بموضع ذلك التصواب ، واستيقنتها قلوبهم ، وحلت محل الاستكراه من غيرهم ، واستنكرتها قلوبهم ، فاعترضوا عليها بأن الدولة لو عملت بقول أولئك المنادين لها بالتحصن بأطراف الرماح ، والتوقى بالدروع لتصد عنها المهاجم ، وترد المنازل لاجتمعت الدول الأخرى عليها ومزقتها تمزيقاً ، وتقاسمت أملاكها في أسبوع من الزمان ، ولأحدثت بها من كل جانب براً وبحراً ، ولأوردتها ختفها قبل أن تدرج من مهدها شبراً .

وهو وهم وخيال دفع إليه شدة التسرع في فهم المقصود من كلام كاتب الرسالة . فإنه لم يطلب من الدولة العلية أن تحشد الجنود ، وتحشر الجوع ، وتدعو الدعوة العامة لغزو الغزوات وفتح الفتوح ، وأن تقف في موقف القتال ، وتقول لسكل الدول: نزال نزال . لأن كل إنسان يعلم أن مثل هذه الدعوة لو قامت بها أقوى دولة في العالم لآتفتت الدول على التنكيل بها ، ولقامت كلهن في وجهها صوتاً لوجودهن . وإنما دعا كاتب الرسالة الدولة العلية إلى الأخذ بأسباب القوة لدفع الطارئ ، وصد الطامع على ما تقتضى به حاجتها ، وتهدى إليه مصلحتها . واتمس من الخليفة أمير المؤمنين أن يهتج هذا المنهج الذي هو ناهجه في الحقيقة ، واجتات الدولة من باكورة

ثمرته ما اجتنته . وقد رأيناها تزيد في عدد العساكر ، وتجتلب الأسلحة وتعد المعدات الحربية ، فستحضر السلاح من النمسا وألمانيا ، وتصلح السفن الحربية على الطراز الجديد ، وتنشئ المدرعات في معامل إيطاليا ، وترسل بضابطها للتعليم الحربي والبحري إلى ألمانيا وإنكلترا وأمريكا ، وتنشئ الطرق الحديدية في البلاد التي تحتاج إلى قرب المواصلات لسهولة نقل المعدات الحربية عند الحاجة إليها . ولم نسمع بعد ذلك كاه أن دولة من الدول غضبت من هذا الاستعداد . أو عارضت فيه ، أو اتحدت مع غيرها من الدول على منع الدولة العلية من تحصين بلادها ، ولم يهتز للبرق سلك بالإشارة إلى شيء من هذا القبيل ، ولم تجتمع به حروف أوربية في جريدة .

والاستعداد للقوة على ما تقدم لا يمنع الدولة العلية من مداومة السير على نظام التمدن والتقدم في العلوم الجديدة النافعة والعلوم المفيدة الحادثة ، مما هي آخذة في أسبابه أيضاً . وكان كاتب الرسالة نبه المسلمين إلى العمل بكتابهم في التدرع بالقوة ، كذلك يجب على كل مسلم أن ينبه المسلمين إلى ما بكتابهم وسنة نبيهم وسيرة أسلافهم من التأدب بأدب الدين والاجتهاد في طلب العلم والتعليم واستخلاص اللب وبذ القشور . ولما كان الدين الإسلامي ديننا يتناول أمور الدنيا كما يتناول أمور الآخرة كانت الدعوة للقوة أو للدنية من طريق الدين أقرب وأدنى ، وأوقع وأقع . وعز الدولة ومنعتها ورسوخ مركزها ، وتقدمها في العلوم والمعارف من هذا الطريق لا تقتصر منفعتها على فئة من رعيها دون فئة ولا ملة دون ملة ، فإن الدين الإسلامي دين يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويجب في العمل ، وينغض في الكسل ، ويرشد إلى حسن المعاملة وجميل المعاشرة ، ويرفع من قلوب المسلمين العداوة والبغضاء ، ويحض على إكرام الجار ، ويوجب حفظ الحقوق والمساواة في القضاء بين المسلم وغير المسلم . ولن يفعل في المسلمين نداء مناد مثل ما يفعل نداء من يناديه من طريق دينهم للعمل بالفضيلة ، ولذلك

تقبل المسلمون هذه الرسالة قبولاً حسناً ، وأجلوا قدرها في صدورهم ،
واطمانت لها قلوبهم ، وارتاحت لها نفوسهم .

وقد غيرت الدهور وكرت العصور والفرق المختلفة مقيمون تحت حكم
المسلمين في عيشة راضية ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، فعاش الفريقان في
اتفاق ووفاق وسلام ووثاق ، لم يقل منهم للآخر : إني أكن لك الحقد ،
وأحرق عليك الأرم ، وأبطن لك السوء ، وأربص بك الدوائر ، وأتهب
عليك عداوة ، وأتميز منك غيظاً . ولا يغررك ما يجرى بيننا من ألفاظ
المجاملة فإنما هي الظاهر المموه من تحتها الباطن المشوه . وإني أختار لك
شكلاً للحكم ، فإن لم ترض به فلهم فاخرج من ديارك التي فتحتها بحد السيف ،
واستوطنها مئات من الأعوام ، وحكمت فيها قروناً طويلة من السنين ،
ودونك البوادي والقفار فاتخذها لك سكناً وداراً .

فإن كانت تغيرت اليوم الأحوال وتبدلت الأمور ، فالمسلمون لا يزالون
متمسكين بأداب دينهم ؛ لا يختارون إلا ما يختار لهم حكمه . فنه قوتهم ، وفيه
مدنيتهم ، وبه هدايتهم « قل إن هدى الله هو الهدى ، وإن اتبعت أهواءهم بعد
الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير » .

هذا وأما ما تذهب إليه أفكار بعض كتبة المسلمين من اجتماع أئمة
المسلمين في دار الخلافة العلية لعقد مؤتمر ينظر فيما يجمع كلمة المسلمين ويلم
شعثهم ، فهو رأى مقبول . إلا أن مثل هذا العمل في الوقت الحاضر مما
يشوش على السياسة العامة . والأمر فيها موكول إلى نظر أمير المؤمنين ؛
يسير فيها بحكمته ، وليس من وراء هذا المشروع كبير فائدة . ويكفي لهذا
الآن الاجتهاد في نشر الجرائد الإسلامية للبحث على جمع الكلمة وتأليف
القلوب ، ومبادلة الأفكار التي تنفع الإسلام بين المسلمين في أنحاء الأرض .
ولمثل ذلك المؤتمر وقت يحين بعد . ولا عبرة بما يقال أن الدول تألبت
على الدولة العلية بعد حرب روسيا ، وأخرجت من يدها تونس ، ومصر ،

بسبب اجتماع المصري والمراكشي والتونسي وغيرهم في الآستانة . فإن سالم
نسمع عن اجتماع سياسي على هذا الشكل في تلك الأيام، ولم نسمع أن الدول
تكلبت في شأنه .

وليس المطلوب من جماعة المسلمين الذين تحت حكم الدل الاجنبية أن
يتفقوا فيما بينهم للظاهرة على من يحكمهم ، والوقوف في وجهه والخروج
عليه . وإنما المطلوب منهم أن يساعدوا الدولة العلية اليوم بأفكارهم ،
وأموالهم لصيانة الإسلام . وقد شهدت الحرب اليونانية بأن المسلمين
لا يتأخرون برهة عن بذل أموالهم في إعانة الدولة العلية . واتفاقها في سبيل
الدفاع عن حى الدين ، والنود عن دمار المسلمين . وهم كلهم على تنأى
ديارهم في يدم كتاب الله يقرأون فيه تلك التجارة الراجعة في الآية الشريفة
« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، الآية ، ويتلون فيه تلك
الأرباح المضاعفة في الآية الكريمة « مثل الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله
كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن
يشاء . » .

المفرد الخامس :

مصر وحدها (١)

العادات المصرية

لم يكن شيء في الوجود إلا وضعه البارئ سبحانه وتعالى تحت حكم التغيير والانتقال ، وهو الذي يتغير من حال إلى حال ، وينقل من وضع إلى وضع ، ولا يختص التغيير والانتقال بالماديات ، بل يتناول المعنويات أيضاً ، فمنها ما يتغير تغيراً يدركه الحس ، ومنها ما يظهر تغيره على مرور الأزمان وكروار الأعصار .

وليس التغيير في الشيء الواحد يكون على نمط واحد من السرعة والبطء ، بل يكون التغيير تارة سريعاً ، ثم يتغير سيره فيصير بطيئاً . ومما يدخل تحت التغيير عادات الأمم وأخلاقها ، والرسوم والثبوت في وصفها نسبي . ففي تغيير وانتقال على السوام ، وربما تعودت الأمة عادة ، ودامت عليها أزماناً ، ثم تحولت عنها إلى أخرى ، وبعد هذا التحول بزمن طويل أو قصير عادت إلى عاداتها الأولى مرة ثانية .

فمن ذلك عادة المصافحة ، وهي من السنة الشريفة النبوية . كانت شائعة بين المصريين ، ثم زالت أو كادت . وقد أدركنا الناس لا يصافح بعضهم بعضاً إلا أرباب الطرق من أهل التصوف ، فإنهم بقوا على السنة . وأما التحية بين طبقات الناس فإنها كانت باللسان ، وإشارات اليد ، أو بتقبيل اليد ، أو بتغيير ذلك من لثم الأذيال ، وهو مما أوجبه على الناس كبرياء كبرائهم حتى بلغ ببعض آل البيت النبوي الذين لا ينبغي إلا أن يكونوا قدوة للناس في تعليم مكارم الأخلاق أنه كان إذا قبل يده أحد حضر الخادم في الحال بالماء ففضل ابن النبي يده أنفه واستقذاراً من لمس يد أخيه المسلم . ١

(١) مصباح الفرق - عدد ١٨ من العدد الأول بتاريخ ١٨ أغسطس ١٨٩٨

ولما اختلط المصريون بالغريين عادوا إلى السنة النبوية ، والعادة المصطفوية ، ولكن من طريق التقليد الأجنبي . وصار العظيم يصفح من دونه وأخذت التحية بالإشارات في التلاشي . ولا شك أن هذا من محاسن الأخلاق التي تستوجب مدح صاحبها ، ولكن لو كان الرجوع إليها من باب الرجوع إلى الاقتداء بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم لكان المدح أعظم والثناء أوفر . ومن التناهي في تكلف التقليد أن بعض من تراهم من المتكلمين إذا صالحك رفع كوعه حتى يكاد يساوى به رأسه ، وأمال جسمه ، وحنى ظهره ، وأخذ يدك ثم هزها هزاً متتابعاً . وانتفض كما انتفض الصغور بالله القطر . وذلك لأنهم أخذوا على أنفسهم أن يرضدوا بحركات الأجنبي ومكناته في كل ما يعمله ، فأخذوا عنه ما قبح وما حسن بلا ترو ولا تبصر !

ومن ذلك عادة الاستئذان قبل الدخول ، وهي من آداب القرآن . وقد نهى الله عن دخول البيوت بغير إذن من أهلها فقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، والزخري يقول بعد تفسيرها : وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة ، فقد تركوا العمل به . وباب الاستئذان من ذلك . بينا أنت في بيتك إذ رجع عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا إسلام ولا جاهلية ، وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن أين الأذن الواعية ؟ وقد جرى المسلمون على هذه العادة زمناً ، ثم زالت من بينهم . وشاهدنا الناس يدخل بعضهم على بعض بلا استئذان . ثم جدد فيهم تلك السنة النبوية اختلاطهم بالأجانب ، فأخذوها عنهم ، وقدوم فيها ، وبلغت بهم سماجة التقليد إلى طلب الإذن بالنقر على الباب وإجابته بأمر الدخول باللفظ الأجنبي . وربما نطق به من لا يعرف من اللغة الأجنبية غيره ، ولو كان

الرجوع إلى هذه العادة رجوعاً إلى آداب الدين لكان أولى بأمة أدبها الله في كتابه أحسن تأديب .

وقد كانت اللغة العربية انحطت في جميع طبقات الناس بعد ارتقائها انحطاطاً تستك منه المسامع، وتنفر منه الطباع، وتبدلت أحرف منها بغيرها، فكنت ترى الشيخ الجليل والسكهل النليل قد تخنثت في حديثه ، فأبدل جميع ما في كلامه من حرف القاف بالهمزة ، وأبدل الجيم العربية بجيم لا تعرفها العرب، وأبدل الضاد بالذال ، والظاء بالضاد ، والثاء بالسين والذال بالزاي، ثم يساعد لسانه بيده من العي، فيكثر من الإشارات والحركات والالتفاتات أيضاً حتى يملأ سامعه، ويستقله ناظره وهذا كان يتناول العلماء أيضاً، فإن العالم كان لا ينطق بالقذف إلا في نقل ما في الكتاب في درسه ، فإذا خرج عن الدرس فكلامه لا يفترق عن كلام العامة في شيء . ولا يسلم من هذه الركاكة والرخاوة منهم إلا من كان من أهل الصعيد . فإنه يبدل القاف جيماً مصرية، فيخفف بها هذا الأذى بعض التخفيف. وربما أراد بعض المتعاملين أن يهجر هذه الهمزة هجر ابن عطاء حرف الراء ، فيقلب من جهله كل همزة عشر جيماً لسانه في الكلام قافاً . ولو سمعت الآن بعض من ذكرنا ، وهو يتكلم ذلك الكلام ، وينطق ذلك النطق ويشير تلك الإشارات ، ويطيل في حديثه ذلك التطويل لبكيت على اللغة العربية اشرفية التي نزل بها القرآن، ولرايتهم قد أهانوها واتقموا منها لصعوبة تعلمها الناشئة عن تقصيرهم في أساليب التعليم ، فضربوها بسياط ألسنتهم حتى خلطوا بعضها في بعض ، وصار الأجنبي إذا سمعها ينفر منها سمعه لرخاوتها . كما وصفها الأجانب في كتبهم . وسمع غربي مصرياً من شبان هذا الزمان يتكلم باللغة العربية على قواعدها فأصغى إليه طرباً ، وأنصت لحديثه معجباً من حسن اللغة، وقال إن الغربيين ظلموا هذه اللغة فقال له الشاب إن المصريين هم الذين ظلموها بما فعلوا بها . ومن العجب أن بعض الذين يعرفون هذه اللغة حق معرفتها لا يتكلمون

إلا باللغة المستهجنة ، ويتركون لغة تكسو مقاصد المتكلم حسن القبول في القلوب . وكنت ترى الكاتب الشهير لا يعرف للحروف رسماً ، ولا تعرف لغلطه حداً . وله أيضاً من عى القلم جمل يكررها بلا معنى ولا فائدة ، واستعارات باردة تقشعر منها الأبدان وتستنكرها الأذواق . كقول بعضهم لأمير في الدعاء له (والله يبقى الأمير وأنجاله مسلسلين بقيود النعمة في أو تاد الدوام) . وربما كانت هذه الجملة وأمثالها هي التي شهرته بالبلاغة بين أقرانه . أما الآن فقد تغير الحال ، وأخذت اللغة العربية في الرجوع إلى جمال رونقها ، والكتابة في العودة إلى بهاء بهجتها . فرى الغلام التليذ يتكلم بالألفاظ الفصحى ، ويكتب الكتابة مزداثة بالمعاني الجزلة ، منطبقة على قواعد الرسم ، خالية من الحشو . وترى كثيراً من رجال النيابة والمحامين يقفون في موقف الخصام والدفاع ، فيمثلون لك ما كنت تسمعه عن سحبان وقس بن ساعدة ، وأمثالها من فصاحة الألفاظ ، وجزالة المعاني ، وحسن التشبيه ، ولطف الأسلوب ، وبراعة الإلقاء ، مما يكون له وقع في النفوس ، ومنزلة في القلوب . وقد أخذ هذا يمتد في جميع الطبقات . وينتشر بينها على قدر مداركها واستمدادها : فتغير أسلوب الكلام في المجتمعات ، فأصبح أقرب إلى العربية الفصحى منه إلى العامية العجمى . ولو دام هذا الترقى في اللغة لوضع هذا العصر فوق عصر الجاحظ وأبي تمام في النثر والنظم . والفضل في ذلك للمدارس والمطابع والجرائد . ولو خلت الجرائد من عبارات الشتم والسباب كما هو الواجب عليها لكان لها النصيب الأوفر من ذلك الفضل ؛ لأنها دروس يومية في الإنشاء والسياسة تشترك جميع الأمة في تلقيها ، وتربى في ملكاتها بالأخذ عنها . ولكننا نرى بعضها قد خرجت عن حد ما وضعت له وأصبح ما يكتب بها يخالف شرط الاشتراك فيها ، لأن المشترك فيها لم يعط ثمنها إلا لاستفادته من نقل الأخبار . وإبداء الأفكار . فإذا خالفت هذا ، وجاءت إلى المشترك في حجرته بين أهله وأولاده حاملة من

أنواع السباب والشتائم ما يسكرم نفسه عن المرور بقائله والناطق به ، فقد أضاعت وقته ، وسلبت ماله ، وأقرأته ما كان ينفر من سماعه ، وأدخلت في حجرته ما يستعيز له بالله من هجر القول ولحشه .

فإن كانت الجرائد تفيد الناس من جهة فأنها تضر بأدابهم من جهات . فيجب على الحكومة التي بيدها الحل والعقد في شؤون الرعية في أن تبحث لإيجاد طريقة لحفظ الآداب بمنع الجرائد عن وقوفها موقف الساب ، والشتائم ، والقاذف . وأعراض الناس وديعة في يد الحكومة فينبغي أن تحافظ عليها . ومن الغريب أن أرباب الجرائد يجعلون أنفسهم في منزلة الرادع ، والوازع ، والواعظ ، والناصح ، ويشتمون لمنع الشتم ، ويسبون لمنع السب .

فإن لم تفعل الحكومة ما يجب عليها في هذا الباب لم يبق إلا أن يقوم فضلاء الأمة وأهل الشأن فيها لحفظ الآداب ، ودفع هذا الشر بتأليف جمعية تقف أمام الجرائد وقفة المراقب الوازع بسلطة معنوية .

• • •

(وبعد) فقد كنا نريد أن نسوق أمثلة من كتابة المويلحي في الصحف أكثر من ذلك ؛ ولكننا نمكثني بهذا القدر الضئيل . ولعلك — أيها القارىء الكريم — حين تتأمل هذه النصوص تتفق معنا فيما ذهبنا إليه من هذه النتائج التي أهمها :

أولا : أن الأدب والصحافة خلقا في كل لغة من لغات العالم نوعين من الأساليب . أولهما النوع الممتاز ، وهو خاص بالأدب الخالص . وثانيهما النوع غير الممتاز ؛ وهو الأسلوب القريب من العامية بعد تهذيبها والعناية بحركات إعرابها عناية كاملة . وقد كان المويلحي خير من يمثل النوع الأول في القرن الماضي وأوائل القرن الذي نعيش فيه . ولم يكن قد حان الوقت بعد الظهور النوع الثاني الذي اقترن بظهور الصحافة اليومية المنظمة ، كصحافة السيد على

يوسف وأمثاله ، ومن ثم كان هذا الأخير - كما سنذكر ذلك في الجزء التالي بمشيئة الله - أول زعيم حقيقى للكتابة الصحفية بالمعنى المراد من هذه الكلمة عند إطلاقها .

ثانياً : إن المستشرقين نظروا إلى المويلحى الكبير على أنه من زعماء المحافظين ، ونظرنا نحن إليه على أنه من المجددين المعتدلين . والواقع أننا نلتقى مع المستشرقين في نقطة واحدة ؛ هى أن تجديد المويلحى كان قائماً على إحياء السنة . ولقد جاء النموذج الخامس والأخير شاهداً على ذلك، وموضحاً طريقة المويلحى فى الإصلاح ؛ وهى طريقة سبقه إليها النديم ، ومن ثم نظرنا إلى المويلحى على أنه تلميذ لهذا الأخير ، والرجلان معاً من أصدق تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، كما سبق أن أوضحنا .

ثالثاً : إن القومية الإسلامية كانت سائدة فى أذهان الكتاب والمفكرين على القومية المصرية ، وذلك إلى عهد المويلحى ومن إليه من كتاب تلك الحلبة ، فإذا اتجه أحدهم إلى التفكير فى أى ناحية من نواحي الإصلاح ؛ وخاصة الإصلاح السياسى فأنما يوجه كلامه إلى الدولة العلية ، ويحصر جهوده فى إصلاح عيوبها بوصف أنها زعيمة العالم الإسلامى الذى يبقى متماسكاً إلى ذلك الوقت ، وكان ينتظر إلى السلطان العثمانى إذ ذاك على أنه يمثل الإسلام ، وحامى الشعوب التى انطوت تحت لوائه ، وفى النموذج الذى عنوانه (العزة فى القوة) ما يدل دلالة صريحة على هذه الفكرة .

رابعاً : أن جميع الكتاب المصريين فى ذلك الحين - وفيهم المويلحى الكبير - كانوا ييغضون الاحتلال الإنجليزى من صميم قلوبهم ، وكانوا ينظرون إليه على أنه أضع استقلالهم ، وأفقدهم السودان وسلخهم أيديهم ثم لم تقف مساوئ الاحتلال فى نظرهم عند هذا الحد ، بل تجاوزته إلى الدين الإسلامى الذى تعرض لسخرية الأوربيين ، وإلى القوميتين الشرقية

والمصرية اللتين تعرضتا لأذى أولئك الساخرين المعتدين ، وإلى الحضارة الشرقية الإسلامية التي أحست بشيء من الحياء والاستخدام من الحضارة الأوروبية الحديثة ، منذ أصبحت الغلبة لهذه الأخيرة وهنا انبرى كتابنا المصريون والشرقيون للدفاع عن حضارتهم ، كما دافعوا من قبل عن لغتهم وديانتهم . والحق أن اللغة العربية مدينة بالفضل لأولئك الكتاب الذين حاطوها بعنايتهم ورعايتهم حياة الأم الرؤوم والآب الشفيق . ولولا ذلك لكننا - نحن المصريين - تتكلم الإنجليزية في حياتنا اليومية ، بل في حياتنا العلمية أو الأدبية . وفي ذلك ضياع لقوميتنا ، وتقدان لشخصيتنا ، وعدوان على تاريخنا القديم . وتراثنا المجيد .

تم بحمد الله الجزء الثالث من كتاب

أدب المقالة الصحفية في مصر

ويليه الجزء الرابع بمشيئة الله تعالى

وفيه الكلام عن علي يوسف صاحب المؤيد

To: www.al-mostafa.com